يناير ٢٠١١ / العدد ٣

النور

للدراسات الحضارية والفكرية

أسس التربية في رسائل النور

- سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي
- القرآن العظيم مصدراً للتربية السلوكية عند النورسي
- الأبعاد التربوية في الدرس العقدي النورسي
- التجرد ونبذ الأنانية عند النورسي

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January-July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Year 2, Number 3 (January 2011)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

Istanbul Ilim ve Kultur Vakfi,
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

ISSN 1309-4424
9 771309 442006 03

تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم
THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الإمتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenan@nurmajalla.com
رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com
المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير
أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛
د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الإستشارية
أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد الحليم عويس؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛
أ.د. عبد العزيز خطيب؛ أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛
أ.د. محسن عبد الحميد؛ أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛
د. محمد كنان ميغا.

الإخراج الفني
سعيد طاقطاق، مولاي الحسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي
ISSN: 1309 – 4424 (En-Nur)

الطباعة
يناير ٢٠١١

Mega Basım – Haramidere / Istanbul
Tel: + 90 212 412 17 00

المركز الرئيسي
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com
www.iikv.org

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١ـ التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير – يوليو)، تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢ـ تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول (القرآن الكريم)، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

كلمة العدد: ..... أ.د. عمار جيدل ٣

الدراسات والبحوث

نوادر البحوث: النورسي ودعوته ..... أبو الحسن علي الحسني الندوي ٧

سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي ..... أ.د. أحمد داود أوغلو ١٥

تربية الطفل وأساليبها في التشريع الإسلامي ..... الباحثة سناء حسن هدلة ٤٩

ملف العدد

القرآن العظيم مصدراً للتربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي: . أ.د. فريد الأنصاري ٧٩

التربية السلوكية عند النورسي: ..... أ.د. محسن عبد الحميد ١٠٥

الأبعاد التربوية في الدرس العقدي النورسي: ..... أ.خالد محجوب ١١٥

التجرد ونبذ الأنانية عند النورسي: ..... أ.د. جمال الدين عبد العزيز شريف ١٢٩

بديع الزمان سعيد النورسي ومشروعه الإصلاحي في التربية والتعليم: ... ذ.حسن إزرال ١٥٣

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

الحوار: حوار مع الأستاذ محمد فرنجي ١٦٧

الإصدارات: قراءة في كتاب ١٨١

المؤتمرات والحلقات الدراسية ١٨٤

إستكتاب لملف العدد الرابع ١٩١

معلومات عن النشر في المجلة ١٩٢

Contents ١٩٣

* ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية صرف.

كلمة العدد

كلمة العدد الثالث: أ.د. عمار جيدل

تسعد مجلة النور للدراسات الفكرية والحضارية أن تقدم للقراء الكرام العدد الثالث، وتعتذر عن تأخر صدور العدد عن موعده، وتسجّل اعتزازها بما حظيت به في العالم العربي من عناية واهتمام، فقد اتصل بالمجلة عدد لا يستهان به من الباحثين، وأرسلوا كثيرا من الدراسات والبحوث الجيّدة، وإذ تكبر تواصلهم، تأسف المجلة عن الرد على الأساتذة الباحثين فرداً فرداً ، نظراً لتأخّر استلام ردود بعض المحكمين.

تضمن العدد الثالث جملة من الدراسات وملف العدد، وقد أدرجنا في القسم الأول جملة من الدراسات المتنوعة، افتتحناها بنوادر البحوث، ونقصد بها عيون البحوث التي لا يعلمها إلاّ خاصة الخاصة، فكان لزاما علينا التعريف بهذه الدراسات، وأوّل ما يستحق النشر في هذا المقام دراسة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي، الموسومة بـ ''النورسي ودعوته''، وهي تشير إلى اهتمام المصلحين المبكر برسائل النور ودعوة الأستاذ النورسي، ورتّبنا بعدها البحث المميّز ''سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي'' لوزير الخارجية الحالي للجمهورية التركية، الأستاذ الدكتور أحمد داود أوغلو، البحث دراسة مميّزة للإصلاح السياسي للعالم الإسلامي كما فهمه وعبّر عنه الباحث، وكانت خاتمة الدراسات ''تربية الطفل وأساليبها في التشريع الإسلامي'' للباحثة سناء حسن هدلة.

خصصنا ملف العدد لبحث ''أسس التربية في رسائل النور''، وقد سعينا جاهدين للوفاء بمتطلبات العنوان المختار، ولكن الكتابة النوعية المتخصصة في الفكرة الدقيقة التي رمنا بحثها قليل جدا، لهذا آثرنا توسيع دائرة الاهتمام، فكان الملف عن التربية في رسائل النور، وقد وردت إلينا جملة من البحوث، أضفنا إليها بحوث الوفاء لرجال الدعوة والإصلاح في العالم الإسلامي، وبهذا العنوان أدرجنا دراسة العلامة المرحوم الشيخ الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري ببحثه ''القرآن العظيم مصدراً للتربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي'' وهو بحث في تأصيل البحث التربوي، ثم أدرجنا بعدها

دراسة في المسالك التطبيقية للتربية من خلال البحث موسومة بـ ''التربية السلوكية عند النورسي'' للأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد، وكان البحث الثالث في تجليات الأبعاد التربوية في دراسة المعارف الإسلامية، ومسالك ربطها بمقاصدها التربوية، وذلك من خلال ''الأبعاد التربوية في درس العقيدة عند النورسي'' للباحث الواعد الأستاذ خالد محجوب، والبحث اللاحق يقرب من حيث مقاصده الكلية من البحث السابق، إلاّ أنّه يركّز على جزئية مداواة النفوس، فكان عنوان البحث ''التجرد ونبذ الأنانية عند النورسي'' الذي كتبه الأستاذ الدكتور جمال الدين عبد العزيز شريف، وختمنا الملف بدراسة عن أهمية التربية في المشروع الإصلاحي عند النورسي، واختار المصنف الأستاذ حسن إزرال ''بديع الزمان سعيد النورسي ومشروعه الإصلاحي في التربية والتعليم'' عنوانا لدراسته.

أدرجنا في العدد حوارا مع الأستاذ ''محمد فرنجي'' أحد أبرز الذين اختارهم الله لمعايشة نمو رسائل النور واكتمالها ونشرها في الأفاق، فقد كان الرجل أنموذج الثبات على مسلك رسائل النور مع السعي إلى تحرير مساحات إضافية لنشرها، لهذا تسعد المجلة باستضافته وتعريف القرّاء به، والتعرّف على جزء من تاريخ العمل لتثبيت الإيمان في قلوب المسلمين وإثباته لهم ولغيرهم من مكوّنات الأسرة الإنسانية، ثم كانت لنا بعدها قراءة في آخر ما جادت به دور النشر، فكانت لنا وقفة مع كتاب ضمن سلسلة شاملة ''مدخل إلى سعيد النورسي ومؤلفاته'' لعميد المدرسة اللاهوتية بفرجينيا الأستاذ الدكتور إيان ماركهام، وعرّفنا بعدها بالنشاطات العلمية والبحثية ذات الصلة بمؤسسة الثقافة والعلوم في إسطنبول.

* * *

الدراسات والبحوث

النورسي ودعوته

أبو الحسن علي الحسني الندوي*

[نوادر البحوث: ننشر في هذا المقام البحوث النادرة التي أنجزها بعض أساطين أهل العلم، وفي هذا العدد تتشرف المجلة بنشر مقالة لأحد فرسان اللسان العربي ورأس العاملين على حماية مكاسب الأمة العلمية والتربوية في شبه القارة الهندية العلامة الأستاذ أبو الحسن الندوي، والمقال في أصله بحث ساهم به في التعريف بفكر الأستاذ بديع الزمان، وكان ذلك في أعمال مؤتمر"تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي"، في الفترة الممتدة من ٢٤ - ٢٦ أيلول ١٩٩٥، في إسطنبول – تركيا.]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

قد كتبت في الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية من أن الوضع الذي واجهه الأتراك العثمانيون في أواسط القرن التاسع عشر رغم الدولة الحرة واسعة الأرجاء هو أنهم فقدوا روح الثقة بالنفس وعرفان الذات بعمر العصور وكر الليالي والدهور ولم يكن فيهم حماس القرون الأولى ولا قوة الإيمان واليقين لإبداء العلماء وزعماء الدين ضعفاً وقصوراً في توجيه الأمة والبلاد توجيها علميا وفكريا وفوق كل ذلك فقد اشتغل السلاطين إلاّ من عصم ربك، إسم الدين والخلافة لصيانة مصالحهم

الخاصة وتحقيق رغباتهم. زيادة على ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة، وممتلئة بالحماس الجديد والآمال الجديدة، وجدت وكلائها في تركيا فكرياً علمياً في صورة ضياء كوك آلب وكمال أتاتورك وكان أولهما رائد التنوير الفكري الغربي، وقد تكهن في سنة ١٩٠٠م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب جلها، والثاني أعلن إلغاء الخلافة وقام بعلمنة البلاد، حتى أصبحت تركيا تفقد طابعها الإسلامي ومزاياها الإسلامية التي كونتها واحتضنتها منذ زمن بعيد.

ولكن سنة الله في هذا الكون ومن الحقائق التاريخية أن المتقصي للتاريخ الإسلامي لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق ويتحدى القوى الظالمة وعناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير. وذلك شأن الإسلام فإنه -وإن كان مؤسسا على عقائد ثابتة وحقائق خالدة- زاخرا بالحياة حافلا بالنشاط، له من الحيوية معين لا ينضب ومادة لا تنفذ، صالحا لكل زمان ومكان، وعنده لكل عهد جديد من أطوار الحياة ولكل جيل جديد من الأجيال البشرية ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ، ولكل مجتمع عصري من مجتمعات البشر مدد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الأوان.

من هذه الشخصيات شخصية طلعت على أفق تركيا في أواسط القرن التاسع عشر باسم بديع الزمان سعيد النورسي الذي عاش تلك المرحلة الدقيقة التي تنتقل فيها تركيا من طور إلى طور، وكان مرهف الحس وذكيا فطنا فتفرس الخطر المحدق ببلاده وساءه ذلك الوضع السائد فيها من فشو الجهل والبطالة ووجود الأمية في الأوساط الشعبية وخمود تلك الشعلة الإيمانية والغيرة الدينية التي كانت متأججة في الشعب التركي من ذي قبل فشمّر عن ساق الجد لمحو الأمية ونشر العلوم الدينية فعكف على دراسة القرآن دراسة عميقة ككتاب خالد مليء بالحيوية والنشاط يحل المشاكل والقضايا ويفك الألغاز وصالح لكل زمان ومكان، كما كانت له اليد الطولي في العلوم الجديدة من التاريخ والفلسفة والرياضيات والفلكيات وغيرها حتى أصبح جامعاً بين العلوم القديمة والجديدة، يشار إليه بالبنان ويجله كبار العلماء في عصره وكان متصديا للدرس والإفادة، والظروف في البلاد في طور الانتقال وسيل الحضارة الغربية يجرى فيها من غير هوادة ولا رحمة، فخرج من تلك الزاوية العلمية وخاطب أصحاب السياسة والحكومة بمقالاته وكلماته التي رفع فيها اللثام عن وجه الخطة التي دبرتها

عقول الأعداء في الدولة العثمانية بإعلان القانون الجديد، وشرح المفهوم الصحيح للحرية في الإسلام وطالب من الدولة العثمانية تنفيذ الشريعة في البلاد. شارك في الحرب العالمية الأولى بنفسه ثم أبلى بلاءً حسنا في جهاد القفقاس ضد روسيا وأُلقي عليه القبض فيه وبقي أسيراً سنتين عندهم، ثم رجع إلى بلاده بعد ركوب الأهوال وتحمل المشاق.

نظراً إلى هذه البطولات والتضحيات أعجب به السياسيون وألحّ عليه كمال أتاتورك بالذهاب إلى أنقرة سنة ١٩٢٢ واستقبل استقبالاً حاراً على المحطة، لكنه ما لبث أنْ عثر على تلك التعديلات التي قام بها كمال والتي تجعل الشعب التركي كله فريسة سائغة للزندقة والإلحاد، فأعدّ ورقاً للتقديم إلى أعضاء البرلمان حث فيه على التمسك بالشريعة الغراء وأثار فيهم شرارة الإيمان الكامنة فتأثر ستون عضواً من البرلمان وعادوا إلى الصلاة. ويذكر الشيخ هذا السفر في رسالة ''الطبيعة'' يبدي فيها تأسفه وقلقة:

دعيت لزيارة أنقرة سنة ١٣٣٨هـ ''١٩٢٢م'' وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي إلا أنني أبصرت خلال موجة الفرح هذه زندقة رهيبة، تدب بخبث ومكر وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها، فتأسفت من أعماق روحي وصرخت مستغيثا بالله العلي القدير ومعتصماً بسور هذه الآية الكريمة ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. (إبْرَاهِيمَ : ١٠)

من هذا القول الرهيب الذي يريد أن ينقض على أركان الإيمان ويعمل معا وله في أسه وأصوله، فجئت ضمن هذه الرسالة ببرهان قوي حادّ قاطع يقطع رأس تلك الزندقة ويدحرج أشلاءها باللغة العربية واستقيت معانيها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بداهة وجود الله سبحانه ووضوح وحدانيته.[1]

عاد الشيخ من هذا السفر كئيباً حزينًا يأخذه اليأس من هذا الرجل الذي كسب سمعة كقائد حربي ممتاز ولقّب بالغازي في بعض المعارك ولكنه كان رجلاً لادينيا ملحداً منذ نعومة أظفاره لا يمت بصلة ما إلى العقيدة الإسلامية والشريعة الغراء كما يصفه ''عرفان اوركا'' في كتابه ''أتاتورك'' الذي ألّفه ''بالإنكليزية''عن إعجاب وإخلاص بشخصية كمال، يقول: ''كان قليل الاختلاط غير محبب بين الأصدقاء في

حياته المدرسية وكان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بها، فإنه لا يجد ما يسلي به نفسه وروحه كالإيمان بالله واليوم الآخر لأنه كان لا يؤمن بهما''...

ويقول في موضع: قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين. فانه منافسه الأكبر. وكان يعتقد من صغره انه لا حاجة إلى الله، إنه إسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة. وكان لا يؤمن إلاّ بالمشاهد المحسوس.

إن نشأته الفكرية وتطورها وميوله وطبيعته جعلت تركيا تؤول إلى العلمانية والثورة على الماضي والتغريب المتطرف والدكتاتورية العسكرية، وأقام في ''أنقرة حكومة مستقلة، وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان، وكان أول رئيس لها سنة ١٩٢٤م وبذلك أراد تحويل البلاد رأساً على عقب. وجنّد لذلك كل طاقاته وقام بأعمال العنف والتعسف ليخلع الشعب التركي جلباب الشخصية الإسلامية وليتخلى عن الحضارة الإسلامية التي ورثها أباً عن جد واحتضنها حباً وكرامة''.

إن الشيخ شاهد هذه الظروف بعيني رأسه؛ بل اكتوى بنارها ولعب دوراً فعالاً فيها ولكنه امتاز بين أقرانه بأمرين:

الأمر الأول: هو فكره الحصيف ونظرته الثاقبة ورأيه السديد في تلك الأوضاع السائدة على تركيا، ما عدا جهاده الطويل وتضلعه من العلوم القرآنية والقيام بخدمتها ونشرها، انه انعم النظر على الأحوال ونزل في أغوارها وعثر على مواضع الضعف فيها وعرف المنافذ التي تهب فيها الرياح العاتية والعواصف الهوجاء التي تقضى على الحديقة الغناء وتأكل أوراقها الخضراء كما تأكل النار الحشيش، فوضع اليد على الوتر الحساس. فإنه رأى على رأس قائمة هذه المواضع الضعيفة تلك الفكرة الخاطئة والحركة الهدامة التي نشرت وأنشئت باسم ''القومية'' لان كل حركة للقومية في العالم الإسلامي اتخذت فلسفة لنظامها وتطورت إلى عقيدة، كانت تحديا للإسلام وحاولت أن تسيطر على تلك المساحة للحياة الإنسانية التي كانت خاضعة لحكم الإسلام وسيادته، واشتملت هذه الحركة على العقائد والأخلاق والعواطف ومشاعر الحب والكراهية والولاء وعدم الولاء ورباطة الجأش والحماس وجميع العناصر والأجزاء التي تشتمل عليها الأديان السماوية، وتعتبرها جزءاً منها، ولأجل ذلك كانت كل حركة من هذه الحركات التي لها هذا الشأن والمحتوى والمضامين والتأثير موضع حذر بل موضع خطر لدى المؤمنين بالدين السماوي الأخير، مما جعل الدعاة يستمعون إليه

عن بصيرة وإيمان. فبادروا إلى محاربتها باعتبارها منافسة لهم لأنّ نشوءها وانتشارها يحملان في أعقابهما أخطارًا تفك الوحدة الإسلامية وتنشر الإلحاد والضلال من جرائها، وكانت مقاومتها وكبح جماحها الواجب الأول في نظرهم، وتستوي في هذا الأمر حركات القومية والوطنية التي نشأت في تركيا وإيران وكردستان وأفغانستان، وتصدى الغيارى على الدين والراسخون في العلم وأصحاب العقيدة السليمة في هذه البلاد كلها لمواجهة تلك الحركات وكان شعارهم تحطيم جميع هذه الأصنام العنصرية والثقافية وإعلان : ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾. الأنبياء:٩٢

فتصدى الشيخ لمواجهة هذه الحركة القومية ودحض أباطيل هذه الفكرة الباطلة بجميع إمكانياته وحذر جمع المصابين بهذه الفكرة بقوة البيان وبالغ الحجة.

ويخاطب أخ تركيا ويحذره من أنْ يقع فريسة هذه الفكرة لأنّ قوميته امتزجت بالإسلام: يقول ''إحذر وانتبه! أنت بالذات، فإن قوميتك امتزجت بالإسلام امتزاجاً، لا يمكن فصلها عن الإسلام ومتى ما حاولت عزلها عن الإسلام فقد هلكت إذاً وانتهى أمرك، ألا ترى أن جميع مفاخرك في الماضي قد سجلت في سجل الإسلام، وان تلك المفاخر لا يمكن أنْ تمحى عن الوجود قطعاً، فلا تمحها أنت من قلبك بالاستماع إلى الشبهات التي تثيرها شياطين الإنس.''[2]

إنّ الذي حافظ على حياة الدولة الإسلامية وكيانها -رغم أن تعدادها عشرون أو ثلاثون مليونا- تجاه جميع دول أوربا العظيمة هو هذا المفهوم النابع من القرآن الكريم الذي يحمله جيشها ''إذا متّ فأنا شهيد وان قتلتُ فأنا مجاهد'' هذا المفهوم دفع أبناء هذا الوطن إلى استقبال الموت باسمين مما هزّ قلوب الأوربيين وأرهبهم، ترى أي شيء يمكن أن يبرز في الميدان ويبعث في روح الجنود مثل هذه التضحية والفداء وهم ذوو أفكار بسيطة وقلوب صافية؟

أيّ عنصرية يمكن أن تحل محل هذا المفهوم العلوي؟ وأي فكر غيره يمكن أن يجعل المرء يضحي بحياته وبدنياه كلها طوعاً في سبيله؟''

وفهم الشيخ أن هذه الحركة ليست قائمة على فكرة لائقة بأي بلد أو جديرة بأي مجتمع؛ بل إنّما هي جريمة قومية تبز جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الأمة وأنها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ،

وإنّها خطوة حاسمة مشئومة في سبيل الدمار القومي والانتحار الاجتماعي. ولاشك أنّ القومية في كل جانب من جوانب الأرض سفينة تنخرت وتفككت ألواحها وتناثرت مساميرها وتحارب ربابينها وكتب عليها الغرق، فلا يجوز للمسلمين أن يلتجؤا إلى هذه السفينة المضطربة المشئومة وعندهم سفينة النجاة التي تسع العالم كله وتوصل الناس إلى شاطئ السلام.

الأمر الثاني: هو اختيار منهج دعوي آخر يلائم الظروف التي آلت إليها تركيا وقد اشتغل عقله في فتح الجبهات الجديدة وتهيئة مجالات الكفاح بعد عودته من معتقله وبعد ما أخفقت ثورة ''سعيد بيران'' ولقي المسلمون الغيارى على دينهم خسائر فادحة في أرواحهم وممتلكاتهم. وكان قد أشار عليه الشيخ أن لا يختار في هذه الأوضاع هذه الطريقة الثورية لان ضررها لا يعود إلاّ على المسلمين المتحمسين.

ونفي الشيخ من بلده ولم يزل من منفى إلى منفى حتى جاءه الأجل، لكنه شمر عن ساق الجد لتجلية الفكر الإسلامي وإنعاش الروح الدينية وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية العالمية وبالشريعة الإسلامية الغراء الصالحة لكل زمان ومكان والمسايرة مع كل عصر ومصر في الشعب التركي والجيل المفتون بسحر الحضارة الغربية، واختار لذلك توجيه الرسائل التي تكون حاملة لفلذات كبده ودقات نفسه وقلبه وتكون ملتهبة بالشعلة الإيمانية والغيرة الدينية إلى الشعب التركي أفراداً وجماعات، كأنه استوحى هذا المنهج من الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي الذي اختار هذا الأسلوب الدعوى المؤثر، فنجح فيه أيما نجاح وغيّر مجرى التاريخ وحوّل البلاد التي كانت سريعة المشي إلى الردة العامة إلى احترام الشريعة وتنفيذ أحكامها.

إن رسائله لتدل دلالة واضحة على حاجة الشعب التركي خاصة والعالم الإسلامي عامة في تلك الظروف والملابسات إلى عباقرة من العلماء يقوموا بإعادة الثقة بالدين وبالرسالة المحمدية الخالدة وبالشريعة الإسلامية، وكان يتوجع على هذه الأحوال ويتألم قلبه ويبكي عليها، وبهذه الطريقة حفظ الأمة الإسلامية التركية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشاملة التي ظهرت بل توسعت في أرجاء تركيا وسيطرت بتلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والإرادة الحديدية ''كمال أتاتورك'' وكان هذا التحول المعنوي والردة الفكرية أخطر وأدق وأرسخ جذوراً من انقراض الدولة العثمانية والإنهيار السياسي.

وقام المعجبون به وتلامذته بنشر هذه الرسائل وبثها في القرى والأرياف رغم الحظر من الحكومة، فلعبت هذه الرسائل دوراً عظيماً في مجال إعادة الثقة بالشريعة الإسلامية وبصلاحية الإسلام لمسايرة الركب البشرى بل لقيادته.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسكنه فسيح جناته.

* * *

الهوامش:

* أبو الحسن علي الحسني الندوي-الهند: ولد في قضاء رايبري في سنة ١٩١١ والده من علماء الهند المشهورين وهو عبد الحي الحسني، تلقى دراسته الإسلامية الأولى في ندوة العلماء بالهند ثم تلقى دروساً خاصة من علماء أجلاء في لاهور ودوبندو وغيرها من المراكز الإسلامية العلمية. ألّف كتاب ''إذا هبت ريح الإيمان'' وهو لم يزل في السابعة عشرة من عمره. تسنم مهمة تدريس اللغة العربية والتفسير في ندوة العلماء، تولى رئاسة تحرير مجلة الندوة. ألقى محاضرات علمية في شتى الجامعات العالمية. له مؤلفات تربو على السبعين مؤلفاً بالعربية والأردية والإنكليزية. أصبحت كتبه كتباً رسمية في المدارس وفي مقدمتها ''مختارات من الأدب العربي'' وقصص النبيين للأطفال والقراءة الرشيدة. أسس المجمع العلمي الإسلامي سنة ١٩٥٧. له مساهمة جادة في الدعوة الإصلاحية في الهند. اصبح مديراً لندوة العلماء في سنة ١٩٥٩ كما هو عضو في كثير من الهيئات الادارية لمؤسسات علمية كالمجمع العلمي العربي ورابطة العالم الإسلامي والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

توفي يوم الجمعة ٢٣ من رمضان ١٤٢٠ هـ الموافق ٣١ من ديسمبر ١٩٩٩م.

[1] كليات رسائل النور ج/ ٣ ''اللمعات'': ٢٦٧.

[2] كليات النور ج/ ٢ ''المكتوبات'': ٤١٧ ، ٤٢٠.

سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي

د. أحمد داود أوغلو*

١- المدخل:

الحياة الاجتماعية والفكرية لبديع الزمان سعيد النورسي وكفاحه، هي انعكاس لظروف العالم الإسلامي لما تعرّضت له هذه الشخصية الأنموذجية. وقد دخل العالم الإسلامي في هذا القرن بأربع صفحات مهمة، تشكل كل واحدة منها تكاملاً في المجال النظري والعلمي.[1] الصفحة الأولى تشمل الربع الأول من هذا القرن حتى انهيار الخلافة، وقد قام العالم الإسلامي بما فيها الخلافة العثمانية بآخر حركة مقاومة تجاه الغرب الأوروبي. وشهدت هذه المرحلة الانعكاسات النظرية والعملية للكفاح ضد الاستعمار في العالم الإسلامي.

في ظل مرحلة تميّزت بعلاقات دولية مؤسسة على المنافسة الاستعمارية، كانت إستراتيجية السلطان عبد الحميد الثاني في مقاومة الضغوط الإستعمارية مستندة إلى فكرة الاتحاد الإسلامي، ومثّلت الجبهة العملية لهذا الكفاح، حربا البلقان، ومقاومة طرابلس الغرب أو الحرب العالمية الأولى، وحرب الإستقلال، وحركة الكفاح على محور إسطنبول -مصر- الهند، وهي انعكاس للجبهة النظرية لمرحلة المشروطية وأفكار الحرية، التي سعت إلى إحداث نقاش في موضوع البناء من جديد بالمعنى السياسي في العالم الإسلامي والذي تكاثف على محور إسطنبول -مصر- الهند، وتشخّصت مساعي جهود الإصلاح المختلفة في شخصية جمال الدين الأفغاني.

والمرحلة الثانية تبدأ من إلغاء الخلافة وتنتهي بالحرب العالمية الثانية، فَقَدَ فيها العالم الإسلامي نقاطا أمام مقاومة النظام العالمي الاستعماري مُجْتَمِعاً أوكل على حده. ظهرت في هذه المرحلة تغييرات جذرية في تاريخ الحضارة الإسلامية من منظور المجتمعات الإسلامية، وهذا ليس جديدا، وفقدت جميع المؤسسات والمفاهيم الإسلامية التقليدية فاعليتها في هذه المرحلة. وألغيت الخلافة التي كانت تمثل وحدة المسلمين، وأقحمت المبادئ والمؤسسات الإسلامية في غيبوبة، واستعمرت جميع البلدان الإسلامية ما عدا تركيا وإيران وأفغانستان، وأهملت في هذه البلاد المؤسسات والثقافة السياسية التي تؤمّن خاصية القوة السياسية والاجتماعية الحقيقية للإسلام.

إختارت المجتمعات الإسلامية التي فقدت مركزها، طريق الدفاع عن الإسلام تجاه الإيديولوجيين المعاصرين الذين يسعون لإقامة دينهم في المجال النظري، بواسطة تشكيل هيئات جماعية لمواجهة ضغوط الإدارة الاستعمارية. فكان من نتائج هذا السعي أن تشكّلت جماعات إسلامية في مصر وباكستان وتركيا والتي تعرف اليوم بالحركات الإسلامية.

ونستطيع أن نلخص التيارات الأساسية المتعلقة بالبحوث النظرية السياسية في هذه المرحلة التي أبعدت فيها المجتمعات الإسلامية عن استمرار الروابط النظرية والعملية في ثلاث نقاط رئيسية حول ثلاثة شخصيات:

١- الرأي الذي يرفض تماماً الرسالة السياسية والمميزة للإسلام الذي شكل أساس الخلافة، واهم مثال على ذلك كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق.[2] ومثّل هذا الفكر الطريق الأنسب -بحسب تقدير أصحابه- لدفع التناقض الموجود برفض النظرية والتجربة التاريخية.

٢- الرأي الذي يتخذ أساسا له وجوب إصلاح المؤسسات الإسلامية وعلى رأسها مؤسسة الخلافة. وأهم مثال على ذلك كتاب الخلافة لرشيد رضا،[3] هذا الكتاب ألف بعد إلغاء الخلافة مباشرة، فهو يرى من جهة أن قيام النظام الجديد في تركيا بفصل السلطة عن الخلافة هو تقييد للسلطة الظالمة، ومن جهة أخرى يصر على ضرورة وجود هذه المؤسسة مع إجراء بعض الإصلاحات عليها بمراجعة المصادر التقليدية.

٣- الرأي الثالث، يتناول القضية السياسية في إطار عام يحتكم إلى الخلفية النظرية، ويضع في صدارة اهتماماته التجديد في المبادئ، ويمثّل كتاب ''تجديد الفكر الديني

في الإسلام"[4] لمحمد إقبال مثالاً على ذلك، إذ بيّن أنّه يمكن تحقيق الروح الجمهورية بالإجماع.

وبالتالي فإنّ جعل المفاهيم والمؤسسات المستمدة من المخزون التاريخي فضلا عن قضية التنظير للسياسة الإسلامية، خارج الدورة في هذه المرحلة، أهمّ ما شغل الفكر، ثم السعي للتشكل في إطار جديد؛ يمكن تلخيصه بالسعي لحل المشكلات التي ظهرت نتيجة البقاء خارج المركز السياسي عملياً عن طريق تشكيل الجماعات، والسعي لتقوية المقاومة تجاه النظام العالمي الإستعماري.

المرحلة الثالثة وتبدأ من الحرب العالمية الثانية وخاصة حرب قبرص، وتستمر حتى الربع الأخير من هذا القرن، وتتميز بالثورة الإيرانية والجهاد الأفغاني، وميزة هذه المرحلة ظهور استقلال كثير من الدول الإسلامية نتيجة الثورات على الاستعمار، مما بعث فيهم الشعور بضرورة الاتحاد في إطار منظمة التنمية الإسلامية. وكانت ميزات الدولة الوطنية ومكانة الإسلام فيها من القضايا التي شكّلت بؤرة النقاش النظري الأساسي فيها. ورافقت هذه المرحلة مناقشة مكانة الخلافة في الدولة الإسلامية، ومما أثار النقاش أيضا الخلاف بين الهوية الوطنية في الدول الوطنية والهوية العالمية للإسلام، والصراعات التي دخلتها دولة الخلاقة مع الأنظمة العالمية بسبب ماضيها الإسلامي، فضلا عن مشكلة محاولات تشكيل حياة سياسية وعسكرية واقتصادية بناء على عناصر جديدة للاستقلال في النظام الدولي.

وإن اضطرار تركيا في بداية الربع الأخير من هذا القرن، في المرحلة الثانية التي رجحت طريق التغريب بشكل جذري وإبعاد الإسلام من الساحة الاجتماعية، واضطرت تركيا في الوقت نفسه إلى منازلة الغرب في قبرص، كما عرفت المرحلة البناء الثوري الذي ظهر نتيجة انفجار اجتماعي أطاح بالشاه في إيران، وقد عُرِف المدّ الثوري بمقولاته المعادية للغرب، وفي الفترة نفسها ظهر الجهاد الأفغاني الذي كشف عن عجز إحدى الدول العظمى وأفسد بناء المعسكرين الذي يستند عليه النظام العالمي، وحركة الانتفاضة في فلسطين التي أوقفت التوسع العسكري الإسرائيلي بردّات الفعل الاجتماعية الأساسية، والاعتداء على المسجد الأقصى في الستينات، كلّ ذلك وغيره قَوَّى الشعور بالحاجة إلى التعاون بين الدول الإسلامية.

العالم الإسلامي أمام تحديات كبيرة، بالرغم من تشعّب قضاياه السياسية وكثرتها،

وعدم كفاءة دوله في المجال الاقتصادي والعسكري، وسيفضي هذا التحدي إما إلى زعزعة أكبر لوضع العالم الإسلامي تجاه القوى الحاكمة بانتظام، وذلك بطريق تقوية البناء الاستعماري الجديد، أو سيتولّد عنها أولى حركات يقظة حضارية جديدة وذلك عبر مرحلة طويلة.

تظهر انعكاسات مختلف خواص المرحلة ومتطلباتها عند تناول حياة بديع الزمان وآرائه المتعلقة بالعالم الإسلامي، فنكتشف الفكرة ونحرجها إلى طور التصور لأجل صناعة اليقظة.

٢- المرحلة الأولى: جهود المقاومة في العالم الإسلامي وسعيد القديم.

يظهر الخط التاريخي الفاصل بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية الفرق بين سعيد القديم وسعيد الجديد من الناحية النظرية والعملية. إن البحث عن حلول نظرية ومقاومة سياسية عملية في المرحلة الأولى انعكست على الجهود العلمية والسياسية لسعيد القديم. وقد كان سعيد القديم يحمل ميزة اجتماعية قوية، وكان نشطاً يبحث عن الحلول. وقد بذل جهوداً فكرية وفعلية في كل قضية تتعلق بالعالم الإسلامي وخاصة بالجغرافيا العثمانية، وتجلت في آثار سعيد القديم آراءه السياسية والاجتماعية المتعلقة بالوضع العام للعالم الإسلامي.

ويشهد لها كلماته وكتاباته قبل المشروطية وبعدها، والكلمة التي ألقاها خلال المحاكمات التي تعرض لها بسبب حادثة ٣١ آذار في كتاب سماه ''شهادة مدرستي المصيبة'' أو ''المحكمة العسكرية العرفية''. ومسامراته مع العشائر في الشرق سنة ١٩١٩م جمعها في كتاب ''المناظرات''، ثم وضع الخطبة التي ألقاها في دمشق بكتاب ''الخطبة الشامية''، ورسالة ''السنوحات'' التي كتبها بعد عودته من الأسر في مرحلة الانتساب إلى دار الحكمة الإسلامية، هي جميعها آثار تعكس الجهود العملية والنظرية، وهي الآثار الأساسية التي تعكس الآراء السياسية والاجتماعية لبديع الزمان بشكل مكثف. ويمكن أن نجمع آراءه التي تقارن بين حضارتين في هذه الكتب، والتي تعرض مشكلات العالم الإسلامي وحلولها في ثلاثة عناوين.

١ـ الإسلام والغرب: المقايسة بين الحضارات

يتضح من الأفكار التي عرضها بديع الزمان في هذه المرحلة أنّ القضية ليست

صراعاً سياسياً وتاريخياً فقط، بل يراها صراع حضارة شاملة، وأنه يتناول القضايا الأساسية للعالم الإسلامي انطلاقاً من هذه النقطة. وإن المقايسة التي أجراها بين أسس الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، مهمة جداً من حيث بيان عُمَد القضايا الرئيسة وانعكاساتها السياسية والاجتماعية العالمية.

''لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية:

فنقطة استنادها هي: القوة، وهذه شأنها: الاعتداء.

وهدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم.

ودستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا شأنه: التنازع.

والرابطة التي تربط المجموعات البشرية هي: العنصرية والقومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها: التصادم، كما نراه.

وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة هي: تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة وتطمين رغباتها وتسهيل مطالبها.''[5]

''أما المدينة التي تأمرنا بها الشريعة الغرّاء وتتضمنها، فهي التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسساً ايجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة السلبية.

نعم! إن نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوة. والحق من شأنه العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبة والتجاذب.

وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية، والوطنية، والمهنية بدلاً من العنصرية. وهذه شأنها: الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.

ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه التساند والاتحاد.

وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على الخدمات التي تقدم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانية إلى مراقي الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحدّ من النزعات النفسانية تُطمئن الروح وتشوقها إلى المعالي.''[6]

تعكس مقايسة بديع الزمان خاصية معيارية لتاريخ الفكر السياسي الإسلامي

التقليدي. يستند هذا الفكر الحق والعدل والتعاون وغيرها من القيم اللازمة لتحقيق النظام والاستقرار الاجتماعي أكثر مما هي تحليل للتغيير الاجتماعي. فالمعادلة التي وضعها المفكرون أمثال ابن خلدون، وطورسون بك، وصارت قيمة سياسية مشتركة للمجتمعات الإسلامية، تختلف بشكل قطعي عن تقاليد الفكر الغربي الذي يتوجه لتحليل التغير الاجتماعي، ويستند على أسس المنافسة والصراع بين الطبقات.

بيّن بديع الزمان في هذه المقايسة أنّه يمكن أنْ تعيش القيم الإسلامية مرة أخرى تجاه نظام الحضارة الغربية المستند على أساس القوة والصراع. واللافت للنظر هنا هو اتخاذ عنصر الوطن والصنف مكانهما في هذه الخطة التقليدية، وفي هذا السياق يتناول بديع الزمان المفهومين الأساسيين للإيديولوجية القومية والاشتراكية داخل مجموع القيم الإسلامية الأساسية ويسعى لإقامة التوازن بين سلبيات وإيجابيات الأيديولوجيتين.

تميّز فكر سعيد القديم في التعامل مع الحضارة الغربية عن المفكرين الآخرين، فإنه بالرغم من جميع الأزمات والهزائم التي عاشها، إتبع الصراع المباشر أسلوباً في كثير من الأحيان، ونهج سلوكاً أصرّ فيه على أن النصر والتفوق النهائي هو للإسلام - أو للشرق - وهذا الموقف الصامد والعزيز والمؤيد أحياناً بالرؤى وأحياناً بالنظرة الثاقبة إلى المستقبل وبالإشارات المعنوية، فإنه كان يسوق إلى الأمل دوماً رغم الظروف السلبية التي عاشها. وخير ما يعكس هذه النفسية بشكل عجيب القسم المعنون باسم ''خطاب في رؤيا'' في رسالة السنوحات التي ألفها سنة ١٩١٩م ''١٣٣٥هـ'' وهي المرحلة التي تمزقت فيها الدولة العثمانية.

''كانت خصومة الشرق تخنق انبعاث الإسلام وصحوته. وقد زالت وينبغي لها ذلك. أما خصومة الغرب فينبغي أن تدوم لأنها سبب مهم في تنامي الأخوة الإسلامية ووحدتها، وإذا بأمارات التصديق تتعالى من المجلس. فقالوا: نعم، كونوا على أمل؛ أن أعظم صوت داوٍ في انقلابات المستقبل هو صوت الإسلام الهادر.''[7]

كما كان يخالف المنادين بالفكر المعاصر والذين بقوا تحت تأثير النفسية الانهزامية تجاه الغرب في تلك المرحلة والتي ترى أنّ الدين عائق أمام التطور، ويسعى للإيضاح بأن تطور المجتمعات الإسلامية والشرقية لا يتم إلا بالأسس الدينية، وذلك بطراز مقارن، حيث قال:

"إنّه بنسبة قوة الحقائق الإسلامية وبنسبة التزام المسلمين تلك الحقائق، يزدادون رقياً وتقدماً، هكذا يرينا التاريخ. ويرينا أيضاً أنّه بقدر ضعف تمسكهم بتلك الحقائق يصابون بالتوحش والتخلف والإضمحلال والوقوع في ألوان من الهرج والمرج والاضطرابات. ويُغلَبون على أمرهم.. أما سائر الأديان الأخرى فالأمر فيها على عكس الإسلام، أي: بقدر ضعف تمسّك أتباعها وضعف تعصبهم وصلابتهم في دينهم يزدادون رقيا وتقدماً، وعلى قدر تعصبهم وتمسكهم بدينهم يتعرّضون للإنحطاط والإضطرابات.

هذا هو حكم التاريخ... وهكذا مرّ الزمان إلى الآن."[8]

"إن ظهور جمهور الأنبياء في الشرق رمزٌ من القدر الإلهي: إن المهيمن على شعور الشرقيين هو الدين. فما نراه في الوقت الحاضر من مظاهر اليقظة في أنحاء العالم الإسلامي تثبت لنا أن الذي ينبه العالم الإسلامي وينقذه من الذل والهوان هو الشعور الديني ليس إلاّ.

وقد ثبت أيضاً أنّ الذي حافظ على هذه الدولة المسلمة 'العثمانية' هو ذلك الشعور رغم جميع الثورات والمصادمات الدامية التي نشبت في أرجائها... فنحن نتميز بهذه الخاصية عن الغرب، ولا نقاس معهم."[9]

٢ـ النقاط المتعلقة بالقضايا الأساسية للعالم الإسلامي

أظهر بديع الزمان التفوق العقيدي للإسلام تجاه الغرب والذي وضح باستمرار تفاؤله بالمستقبل، قام بوضع نقاط مهمة تتعلق بالضعف العملي للعالم الإسلامي وبالطرق التي تقضي على هذا الضعف. وخلال ذلك اهتم بالتمييز بين تقصير العالم الإسلامي والإسلام نفسه. وهذا التمييز يظهر بشكل بارز في قوله:

"وقد شاهدت أيضاً، أن الإسلام الذي يشكل المدنية الحقيقية قد تأخر عن المدنية الحاضرة مادياً، فكأن الاستلام قد استاء من سوء أخلاقنا فمضى راجعاً إلى الماضي ليشكونا إلى خير القرون."[10]

يرى سعيد القديم أن العالم الإسلامي "مجلس النواب، ومجلس الشورى غير منتظم أو الذي اختل انتظامه،"[11] ويسعى بمختلف الوسائل إلى بيان الأمراض التي كانت سببا في تخلف العالم الإسلامي. وأبانت هذه الأمراض عن الفساد السلوكي العام للمجتمع أحياناً، وأخطاء النخبة في العالم الإسلامي أحياناً أخرى. وقد جمعت

المفاسد السلوكية العامة التي سيطرت على المجتمع في الخطبة الشامية في ستة أصناف:

''أولاً: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

ثانياً: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

ثالثاً: حبّ العداوة.

رابعاً: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

خامساً: سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة.

سادساً: حصر الهمة في المنفعة الشخصية.''[12]

والفرق الموجود بين الإسلام والشريعة، والأحوال السيئة للمسلمين يجلب السلوك الفاسد للنخبة وأفكارهم الخاطئة لموضوع النقاش:

''فالحرية والعدالة والمساواة التي كان يترفل بها خير القرون والخلفاء الأربعة، ولاسيما في ذلك الوقت، دليل علي أن الشريعة الغراء جامعة لجميع روابط المساواة والعدالة والحرية الحقة. فآثار سيدنا عمر وسيدنا علي رضي الله عنهما وصلاح الدين الأيوبي دليل وأي دليل على هذا الادعاء.

ومن هنا فإني أقرر:

إن سبب تأخرنا وتدنينا وسوء أحوالنا إلى الآن ناتج مما يأتي:

١- عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء.

٢- تصرفات بعض المداهنين تصرفاً عفوياً.

٣- التعصب المقيت في غير محله سواءً لدى عالم جاهل أو جاهل عالم!

٤- تقليد مساوئ المدنية الأوروبية تقليداً ببغائياً -بسوء حظنا أو سوء اختيارنا- مما ولّد تَرْكَنا لمحاسن المدنية التي لا تستحصل بغير مشكلات ومصاعب.

فلو قام الموظفون خير قيام بوظائفهم وسعى الآخرون حسب الظروف المحيطة وما يتطلبه الزمان الحاضر، فلن يجد أحد متسعاً من الوقت للسفاهة. ولو انهمك أي منهما بها فلا يكون إلاّ جرثومة خطرة في جسم المجتمع.''[13]

٣- البحث عن الحل بمواجهة أزمات العالم الإسلامي

أ- المبادئ الأساسية:

١- **الثقة بالنفس:** يمكن التفكير بوصفة بديع الزمان للخروج من هذه الأزمة على شكل حلقات متداخلة تبدأ من الفرد وتتجه نحو العالم الإسلامي. وأكثر نقطة أصر عليها في الخطة الفردية هي تقوية الثقة بالنفس بالتجديد النفسي. وقد أوصى سعيد القديم في جميع رسائله وكلماته في المرحلة التي عاش فيها العالم الإسلامي أزمات وهزائم كبيرة بالأمل تجاه اليأس. والحقيقة إن أهم أساس نفسي يجعل المجتمعات تستطيع الوقوف على أقدامها في مراحل الأزمات ويدفعها للكفاح من أجل المستقبل هو الشعور بالثقة بالنفس. وكي لا يفقد الفرد المسلم أساس هذه المقاومة النفسية يقوم سعيد القديم بإدخال الأسس العقيدية أحياناً، والأحداث الطبيعية أحياناً أخرى، والاستطلاعات المعنوية، أحياناً يقوم بديع الزمان بتحويل الإيمان بالقدر إلى بؤرة مقاومة نفسية حركية بقوله: ''إن المستقبل سيكون للإسلام، وللإسلام وحده. وأنّ الحكم لن يكون إلاّ لحقائق القرآن والإيمان. لذا فعلينا الرضى بالقدر الإلهي وبما قسّمه الله لنا؛ إذ لنا مستقبل زاهر، وللأجانب ماضٍ مشوش مختلط''[14] كما سعى لجعل الأمل المتعلق بالمستقبل للكتل الإسلامية مستمراً انطلاقا من الأحداث الطبيعية التي يشاهدها الناس يومياً بقوله ''وكما أنّ الشتاء يعقبه الربيع والليل يخلفه النهار، فسيكون للبشرية ربيع ونهار إن شاء الله، ولكن أن تنتظروا من الرحمة الإلهية شروق شمس حقيقة الإسلام، فتروا المدنية الحقيقية في ظل سلام عام شامل''[15] وقد تناول موضوع الأمل ''التفاؤل'' والثقة بالنفس بدرجة بالغة الأهمية، حيث تم تقييم المصائب التي حدثت في نهاية الحرب العالمية الأولى على أنها دليل على النجاح المستقبلي والوحدة الإسلامية:

''إنّ المصيبة ليست شراً محضاً، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء، مثلما قد تفضي السعادة إلى بلاء... فهذه الدولة الإسلامية التي أخذت على عاتقها -سابقاً- القيام بفريضة الجهاد -فرضاً كفائياً- حفاظاً على العالم الإسلامي وهو كالجسد الواحد، ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء لأجله، وحملت راية الخلافة إعلاءً لكلمة الله وذوداً عن استقلال العالم الإسلامي... ستعوّض عما أصابتها من مصيبة، وستزيلها السعادةُ التي سوف يرفل بها العالم الإسلامي.

إذ عجّلت هذه المصيبة بعث الأخوة الإسلامية ونماءها في أرجاء العالم الإسلامي، تلك الأخوة التي هي جوهر حياتنا وروحنا. حتى أننا عندما كنا نتألم كان العالم الإسلامي يبكي، فلو أوغلت أوروبا في إيلامنا لصرخ العالم الإسلامي.

فلو متنا فسوف نموت عشرون مليوناً 'من العثمانيين الأتراك' ولكن نُبعث ثلاثمائة 'أي ثلاثمائة مليوناً من المسلمين'.

نحن نعيش في عصر الخوارق. فبعد مضي سنتين أو ثلاث على موتنا سنرى أحياءً يبعثون.

لقد أفقدتنا الهزيمة سعادة عاجلة زائلة، ولكن تنتظرنا سعادة آجلة دائمة، فالذي يستبدل مستقبلاً زاهراً فسيحاً بحال حاضرٍ جزئي متغير محدود، لا شك أنه رابح..."[16]

٢- **الحرية المشروطية:** إن العنصر الأساسي الذي يؤسس العلاقة بين الفرد والمجتمع في نظام الفكر عند بديع الزمان، هو فكر الحرية الذي يؤمِّن تَحَوُّل التجدد النفسي والشعور بالثقة بالنفس إلى مشاركة اجتماعية وسياسية. وقد أعطى بديع الزمان أهمية لهذا المبدأ الأساسي في مرحلة سعيد الجديد، حيث قال: "إن أكثر شيء احتاج إليه، وأهم دستور في حياتي هو حريتي"[17] و "أنا أعيش دون خبز لكن لا أعيش دون حرية"[18] ويقوم بتأسيس علاقة مباشرة بين العقيدة والحرية. ويبين أنّ فكر الحرية المنسوب إلى الغرب اكتسب قيمته الحقيقية في العقيدة الإسلامية، حيث يقول:

"المؤمن حرّ في ذاته. فالذي هو عبد لله رب العالمين لا ينبغي له أن يتذلل للناس، بمعنى: كلما رسخ الإيمان قويت الحرية."[19]

إن العلاقة المنطقية التي أسسها بديع الزمان بين الإيمان، والحرية، والحقوق تشكل أساس آرائه السياسية والمشاركة السياسية للفرد:

"لأن الذي ينتسب إلى سلطان الكون برابطة الإيمان ويكون عبداً له تتنزّه شفقتُه الإيمانية عن التجاوز على حرية الآخرين وحقوقهم، مثلما تترفع شهامتُه الإيمانية وعزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والانقياد لسيطرتهم وإكراههم.

نعم. إنّ خادماً صادقاً مخلصاً للسلطان لا يتذلل لتحكّم راعٍ وسيطرته، كما لا يتنازل أن يفرض سيطرته على مسكين ضعيف. فبمقدار قوة الإيمان إذن تتلألأ الحرية وتسطع. فدونكم خير القرن، العصر السعيد، عصر النبوة والصحابة الكرام."[20]

وإن مشاهدة بديع الزمان العلاقة التي أسسها بين الحرية والإيمان أهم عائق أمام الاستبداد والتحكم، وهو ما بعثه على تأييده حركة المشروطية. ويذكر هذه الحقيقة في كتابه المحكمة العسكرية:

''إنّ أوروبا تظن الشريعة هي التي تمدّ الاستبداد بالقوة وتعينه. حاش وكلا... إنّ الجهل والتعصب المتفشيان فينا قد ساعدا أوروبا لتحمل ظناً خاطئاً من أنّ الشريعة تعين الاستبداد. لذا تألمت كثيراً من أعماق قلبي على ظنهم السيئ هذا بالشريعة.''[21]

ومن هذه الزاوية فإن الحرية بالنسبة للمجتمعات الإسلامية ضرورة مطلقة من أجل البناء السياسي الداخلي، ومن أجل الاستقلالية في العلاقات الخارجية:

''إنّ المدخل الأول لتقدم آسيا والعالم الإسلامي في المستقبل هو المشروطية المشروعة والحرية التي هي ضمن نطاق الشريعة.''[22]

ويتضح من هذا أنّ الحرية هي المبدأ الأساسي للبناء السياسي والترقي الاجتماعي إذا وضعت تحت الرقابة الحقوقية والشرعية، ''لأن الحرية الحسناء ما هي إلاّ تلك المتأدبة بآداب الشريعة والمتزينة بفضائلها، وليست تلك التي في السفاهة والرذائل''.[23]

و ''إنّ الحرية العامة هي المحصّلة الناتجة من حريات الأفراد، ومن شأن الحرية عدم الإضرار سواء بالنفس أو بالآخرين.''[24]

إنعكس فكر بديع الزمان في استخدام الحرية، داخل حدود المشروعية والحقوق الجارية، على عمله السياسي. يظهر هذا المعنى من الخطاب الذي ألقاه في سلانيك بعد ثلاثة أيام من إعلان المشروطية، والذي دعا القائمين فيه على المشروطية بالبقاء داخل الحدود المشروعة ''لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في إناء آخر ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة.''[25]

وقد وجه النداء نفسه إلى النواب في جامع آيا صوفيا:

''إفهموا المشروطية في ضوء المشروعية وتلقوها على أساسها، ولقّنوها الآخرين على هذه الصورة. كي لا تلوثها باليد القذرة لاستبداد جديد متستر وملحد باتخاذ ذلك الشيء الطيب المبارك ترساً لأغراضه الشخصية. قيّدوا الحرية بآداب الشرع لأنّ عوام الناس والجاهلين يصبحون سفهاء وعصاة وقطاع طرق، فلا يطيعون بعد أنْ ظلوا أحراراً سائبين بلا قيد وشرط.''[26]

كما وجه هذا التنبيه إلى أساس المشروعية للعساكر المتمردين في أحداث ٣١ آذار.[27]

٣- **الأمة الإسلامية وقضية الهوية:** يتعلق المبدأ المهم الآخر والذي يشكل أساس آرائه السياسية لسعيد القديم بقضية الهوية. وبيّن بإصرار أنّ كل التيارات العثمانية، والإسلامية، والتركية التي ظهرت في أواخر أيام الدولة العثمانية من أجل تنظيم الدولة من جديد تشكّلت بناء على هوية مستقلة. وبعد عصيان العناصر غير المسلمة في البلقان فقدت فكرة العثمانية تأثيرها بشكل كبير.[28]

كان في بداية القرن العشرين التمايز بين الهوية الدينية التي تستند على الفكر الإسلامي، وبين الهوية القومية التي تستند على التيارات القومية التركية وغيرها. وقد مدح سعيد القديم الذي رأى التأثير الجديد للتيارات القومية القائمة على محاولة التوفيق بين هاتين الهويتين وانتظامهما من جهة، كما مدح الهويات القومية التي خدمت الإسلام بمختلف الوسائل، واعتبرها معبّرة عن التوحيد لأجل الهداية الإسلامية من جهة أخرى.

الوحدة بين الدين والقومية يجب أنْ تتخذ مكانة في أعلى هرم الهوية الإسلامية. وهذا هو أهم فرق بين المجتمعات الغربية التي تتخذ القومية أساساً لهويتها والمجتمعات الشرقية التي جعلت الدين والقومية وحدة لا تتجزأ. وأثناء مرافقته السلطان رشاد في سياحته لروم ايلي تظهر مرحلة سعيد القديم بشكل واضح في المحاورة التي جرت حول الأمة الإسلامية والقومية:

"نحن معاشر المسلمين، الدين والملية عندنا متحدان بالذات، والاختلاف اعتباري، أي ظاهري، عرضي، بل الدين هو حياة الملية وروحها. فإذا ما نُظر إليهما بأنهما مختلفان ومتباينان، فإنّ الحمية الدينية تشمل العوام والخواص، بينما الحمية الملية تنحصر في واحد بالمائة من الناس، ممن يضحي بمنفعته الشخصية لأجل الأمة.

وعليه فلابد أن تكون الحمية الدينية أساساً في الحقوق العامة، وتكون الملية خادمة منقادة لها وساندة حصينة لها.

فنحن الشرقيين لا نشبه الغربيين، إذ المهيمن على قلوبنا الشعور الديني؛ فإن بعث الأنبياء في الشرق يشير به القدرُ الإلهي إلى أنّ الشعور الديني وحده هو الذي يستنهض الشرق ويسوقه إلى التقدم والرقي، والعصر السعيد - وهو خير القرون والذي يليه - خير برهان على هذا.

فيا زملائي في هذه المدرسة السيارة، أعني القطار، يا من تسألون عن التفاضل بين الحمية الدينية والملية، ويا أيها الدارسون في المدارس الحديثة. إني أقول لكم جميعاً:

إنّ الحمية الدينية والملية الإسلامية قد امتزجتا في الترك والعرب مزجاً لا يمكن فصلهما، وأنّ الحمية الإسلامية هي أقوى وأمتن حبل نوراني نازل من العرش الأعظم، فهي العروة لا انفصام لها، وهي القلعة الحصينة التي لا تهدم.''[29] وقد بيّن سعيد الجديد أيضاً هذا الفكر الأساس لسعيد القديم في المبحث الثالث من المكتوب السادس والعشرين، وقد لفت الأنظار إلى هوية الانتساب هذه في القسم الذي يخاطب فيه الأتراك، قائلا:

''إنّ الشعب التركي هم أكثر عدداً من أي قوم من الأقوام الإسلامية الأخرى، وإنهم مسلمون في كل بقاع العالم، بينما الأقوام الأخرى، فيهم المسلمون وغير المسلمين معاً، لذا لم تنقسم الأمة التركية كبقية الأقوام، فأينما توجد طائفة من الأتراك فهم مسلمون، والذين ارتدوا عن الإسلام أو الذين لم يسلموا أصلاً، قد خرجوا عن وصف الترك كالمجر. علماً أنّ الأقوام الأخرى حتى الصغيرة منها فيهم المسلمون وغير المسلمين.

أيها الأخ التركي!

إحذر وانتبه! أنت بالذات، فإنّ قوميتك امتزجت بالإسلام امتزاجاً لا يمكن فصلها عن الإسلام.''

بديع الزمان الذي عارض بشدّة الدعوة إلى الهوية القومية، بيّن في الوقت نفسه القوة الكافية في القومية الايجابية وكيف أنها يمكن أن تكون تحت إمرة هوية الأمة الإسلامية.

''لما كان في الفكر القومي ذوق للنفس، ولذة تُغفل، وقوة مشؤومة، فلا يقال للمشتغلين بالحياة الاجتماعية في هذا الوقت: دعوا القومية!

ولكن القومية نفسها على قسمين:

قسم منها سلبي مشؤوم مضر، يتربى وينمو بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه، ويتصرف بحذر القومية الايجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي سبب للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية.

هذا الفكر الايجابي القومي، ينبغي أنْ يكون خادماً للإسلام، وأنْ يكون قلعة حصينة له، وسوراً منيعاً حوله، لا أنْ يحل محل الإسلام، ولا بديلاً عنه.''[30]

ما بينه بديع الزمان في المرحلة المتأخرة من حياته باسم سعيد القديم، وضّحه وطبّقه أيضاً في تطلعاته:

''فنمو الشعور القومي في الشخص إما أنْ يكون إيجابياً أو سلبياً:

فالإيجابي ينتعش بنمو الشفقة على بني الجنس التي تدفع إلى التعاون والتعارف.

أما السلبي فهو الذي ينشأ من الحِرْص على العرق والجنس الذي يسبب التناكر والتعاند. والإسلام يرفض هذا الأخير.''[31]

إنّ سعيداً الجديد الذي قال بلسان سعيد القديم ''لقد انتشر الفكر القومي وترسّخ في هذا العصر. ويثير ظالمو أوروبا الماكرون بخاصة هذا الفكر بشكله السلبي في أوساط المسلمين ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم،''[32] لهذا سعى سعياً حثيثاً للحيلولة دون وقوع هذا التمزق، فحاول جعل الأمة الإسلامية حية نابضة بظهور الأفكار القومية عقيب الإعلان عن المشروطية وأوضح أنّ الإسلام والأقدر على تقديم الحل للمعضلات:

''والمسلم هو الرابط فقط بين مختلف المكوّنات. فليست هناك رابطة حقيقية وقوية غير الإسلام بين العرب والترك والكرد والأروناؤوط والجركس واللاز.

إن إهمالاً طفيفاً في الدين أدّى إلى إرساء قواعد ملوك الطوائف وظهور جاهليات ماتت قبل ثلاثة عشر قرناً وبالتالي إلى ظهور الفتن والقلاقل. وقد ظهرت فعلاً وشاهدناها.''[33]

وفي الخطبة الشامية التي ألقاها فيما بعد وجه نداء لتوحيد مفهوم الأمة الإسلامية تجاه بذور العداوة التي كان يسعى الأجانب إلى بثها بين الأتراك والعرب بشكل خاص:

''إنّ الحرية الشرعية والشورى المشروعة قد أظهرتا السيادة الحقيقية لأمتنا. إذ أنّ حجر الأساس في بناء امتنا وقوام روحها إنما هو الإسلام، وأنّ الخلافة العثمانية والجيش التركي من حيث كونهما حاملين لراية الأمة الإسلامية فهما بمثابة الصَدَفة والقلعة للأمة، وأنّ العرب والترك هما الأخوان الحقيقيّان وسيظلان حارسين أمينين لتلك القلعة المنيعة، والصَدَفة المتينة.

وهكذا فبفضل هذه الرابطة المقدسة التي تشد الأمة الإسلامية بعضها ببعض يصبح المسلمون كافةً عشيرة واحدة. فترتبط طوائف الإسلام برباط الأخوة الإسلامية كما يرتبط أفراد العشيرة الواحدة ويمد بعضهم بعضا معنوياً.''[34]

ويقيم سعيد القديم علاقة مباشرة بين الأمة الإسلامية ووحدتها والعقيدة، ويرى أنّ العمل في موضوع الأخوة والوحدة الإسلامية واجب ديني. وهذا يوجب على جميع المسلمين الإتحاد حول هوية واحدة، ويبين الأساس النظري الذي يعني بأن فكر الوحدة الإسلامية واجب ديني:

''أقول مكرراً أن التوحيد الإلهي هو جهة الوحدة في الاتحاد المحمدي الذي هو حقيقةُ اتحاد الإسلام 'الوحدة الإسلامية'.''[35]

وبناء على مفهوم القومية مع فكر الحرية عنده، يسلّط بديع الزمان الضوء على مقاومة العالم الإسلامي وكفاحه لأجل الاستقلال:

''فلو أنكم قرأتم صحيفة الأفكار وتأملتم في طريق السياسة واستمعتم إلى الخطباء العموميين، أعني الصحافة الصادقة في أخبارها، لعلمتم أنه قد حصل في العالم العربي والهند وجاوا ومصر والقفقاس وإفريقيا وأمثالها، تحوّلٌ عظيم وانقلاب عجيب ورقي فكري وتيقظ تام نابعٌ من فوران فكر الحرية وغليانه في أفكار العالم الإسلامي، فلو كنا دافعين مائة سنة ثمناً لها لكان رخيصاً، لأن الحرية كشفت عن الملّية وأظهرتها وبدأ يتجلى الجوهر النوراني للإسلام في صَدَفة الملّية، فآذنت بتحرك الإسلام واهتزازه.''[36]

والحقيقة أن الحركات القومية المقاومة للإستعمار اكتسبت قوة بالهوية الإسلامية وأعدت الأرضية المناسبة فيما بعد لأفكار الوحدة الإسلامية. وإن حركات البحث عن الهوية تجاه الإستعمار والغرب استمرت بشكل عام حول هوية إسلامية.

ب- إحياء وإصلاح المؤسسات السياسية

إن بديع الزمان الذي يسعى لتقوية البناء النفسي بمبادئ الإيمان والثقة بالنفس، وتطوير وتيرة اجتماعية الفرد بمبادئ الحرية والمشروعية داخل توازن الفرد والمجتمع، كان يسعى أيضا ضمن إطار هذه المبادئ لتأسيس شبكة اتصال سياسي جديد يستند على المشورة، وإصلاح مؤسسة الخلافة والمشيخة وأمثالها ضمن هذا الإطار.

وبالنسبة له إن الحرية الموجودة تحت سيطرة المشروعية، هي الشرط الأولي لمؤسسة الشورى التي هي أساس شبكة الإتصال السياسي. وإن الحرية المشروعة التي

هي شرط أولي للترقي المستقبلي للعالم الإسلامي هي بنفس الوقت مرتبطة بميكانيكية الشورى والحاكمية بشكل مباشر:

''إنّ مفتاح حظ الإسلام وسعده ورقيه موجود في الشورى التي في المشروطية. حيث قد انسحق -لحد الآن- ثلاثمائة مليوناً من المسلمين تحت أقدام الإستبداد المعنوي للأجانب.

وحيث إن الحاكمية الإسلامية مهيمنة الآن في العالم ولا سيما في آسيا، فإنّ كل مسلم يكون مالكاً لجزء حقيقي من الحاكمية.''[37]

تخطى بديع الزمان إبعاد الفكر السياسي الإسلامي في المرحلة التقليدية والمتعلق بالمشاركة السياسية والاجتماعية في موضوع الجزء الحقيقي للشورى والحاكمية وجاء بطاقم من العناصر الجديدة. وخلال الإنتقال من الحاكمية السياسية الفردية للخليفة إلى نشر الحاكمية على طبقات المجتمع كون المسلمين مالكين للجزء الحقيقي لهذه الحاكمية، وقد برزت بين هذه العناصر الجديدة مشاركة غير المسلمين بالتساوي مع المسلمين في جهاز الشورى وذلك بتحويل موضعهم من حقوق أهل الكتاب إلى حقوق المواطنين. وبديع الزمان إلى جانب مدافعته عن الوحدة الإسلامية وفكر الحاكمية السياسية للمسلمين، إلا أنّه يرى أنّ مشاركة غير المسلمين في السياسة واتخاذهم مكانة في الإدارة ممكن من زاوية نظر الشريعة. وأهم جديد في هذا هو أنّ عمل أجهزة السياسة الميدانية ينظر إليه على أساس أنّه فن ومهارة أكثر من ارتباطه بالعقيدة، ولهذا قبل آراء غير المسلمين في هذا الإطار حيث يقول:

''كيف يمكن أن يصير الأرمني والياً أو قائم مقام، كما يحدث الآن؟

ج: كما صار ساعتياً وميكانيكياً وكناساً... لأن المشروطية هي حاكمية الأمة، والحكومة ليست إلاّ خادمة.''[38]

هذا التناول الذي يستند على رأي ''عدم الخلط بين دائرة الإعتقاد ودائرة المعاملات''[39] شرعياً مفهوم المواطنة التي سعى لتطويرها في المرحلة الأخيرة للدولة العثمانية.

والتناول الجديد الذي جيء به لموضوع الحاكمية يقيم الحكومة على أنها موضع خدمة وعمل، ويجلب مع الإنزلاق من فكر الحكومة الغاية إلى فكر الحكومة الواسطة. ولا ضير في تعيين غير المسلم واليا أو قائم مقام ضمن هذا الإطار لأنّ:

''لئن صدقت المشروطية فالقائم مقام والوالي ليسوا رؤساء بل خدام مأجورون، فغير المسلم لا يكون رئيساً مطلقاً، بل يكون خادماً.''[40]

وهذا الوضع مثال على كيفية إعادة النظر في الأحكام الفقهية داخل الأطر السياسية الجديدة. وإن بعض الضرورات والاحتياجات جلبت معها تغييرات جدية في الأحكام والمؤسسات. لأن ''الحاجة أستاذ لكل أمر''.[41] قال بديع الزمان:

''إنّ السلطنة والخلافة متحدتان بالذات ومتلازمتان لا تنفكان وإنْ كانت وجهة كل منهما مغايرة للأخرى... وبناء على هذا فسلطاننا هو سلطان وهو خليفة في الوقت نفسه يمثل رمز العالم الإسلامي. فمن حيث السلطنة يشرف على ثلاثين مليوناً، ومن حيث الخلافة ينبغي أنْ يكون ركيزة ثلاثمائة مليون من المسلمين الذين تربطهم رابطة نورانية، وأنْ يكون موضع إمدادهم وعونهم.

فالوزارة تمثل السلطنة، أما المشيخة الإسلامية فهي تمثل الخلافة.''[42]

وبعد تكرار الآراء التقليدية في جمع السلطنة والخلافة بيد واحدة، يبين بشكل خاص ضرورة حصول تجديدات جدية تستند على الشورى لمؤسسة الخلافة.

وبالنسبة له فمن الضروري لإحياء العالم الإسلامي، وجعله يقف على قدميه، تنظيم مؤسسة الخلافة بشكل يؤمّن مشاركة جميع العالم الإسلامي:

''لقد أظهر الزمان أنّ هذه المشيخة الإسلامية - التي تمثل الخلافة - ليست خاصة لأهل إسطنبول أو للدولة العثمانية، وإنما هي مؤسسة جليلة تعود للمسلمين عامة. فوضعها الحالي المنطفئ لا يؤهلها للقيام بأعباء إرشاد إسطنبول وحدها ناهيك عن إرشاد العالم الإسلامي!''[43]

يستشف من آراء سعيد القديم أنّ أهم تجديد يطلب تحقيقه في مؤسسة الخلافة، يجب أنْ ينصب على الشورى والشخصية المعنوية التي تشكلها هذه الشورى مع التأكيد على موقع حاكم، وهو الطريق الأساسي الذي يُبْلِغ المشيخة إلى قوتها الحقيقية. إن الآراء التي تبين وجوب نظام الشورى والشخصية المعنوية الحاكمة التي تستمد قوتها من هذه المؤسسة، مشاركة خاصة قام بها بديع الزمان لمساعي تأمين الوحدة الإسلامية بتنظيم مؤسسة الخلافة من جديد في الربع الأول من هذا القرن.

وهذا الرأي يجلب بُعْداً جديداً لأصول الفقه. وبدل البيعة الفردية التي تجعل الإجتهاد والخلافة مشروعة، فإن الإتجاه إلى روح الجماعة والشخصية المعنوية وغيرها من المفاهيم المشتركة والمجردة، يمكن الحكم عليه بأنّه محاولة إجراء رابطة

خاصة وجديدة بين مفاهيم الدولة والحاكمية التي صارت مشتركة ومجردة في القرن التاسع عشر والمؤسسات الإسلامية:

"لسنا في الزمان الغابر، حيث كان الحاكم شخصاً واحداً، ومفتيه ربما شخص واحد أيضاً، يصحح رأيه ويصوبه. فالزمان الآن زمان الجماعة والحاكم شخص معنوي ينبثق من روح الجماعة. فمجالس الشورى تملك تلك الشخصية، فالذي يفتي لمثل هذا الحاكم ينبغي أنْ يكون متجانساً معه، أي ينبغي أنْ يكون شخصاً معنوياً نابعاً من مجلس شورى عالٍ، كي يتمكن من أنْ يُسمع صوته للآخرين ويسوق ذلك الحاكم إلى الصراط السوي في أمور الدين.

وإلا فسيبقى صوته كطنين الذباب أمام الشخص المعنوي الناشئ من الجماعة حتى لو كان فرداً فذاً عظيماً. فهذا الموقع الحساس يعرض قوة المسلمين الحيوية إلى الخطر مادام باقياً على وضعه المنكفئ هذا، حتى يصح لنا أنْ نقول:

إنّ الضعف الذي نراه في الدين، والإهمال الذي نشاهده في الشعائر الإسلامية والفوضى التي ضربت أطنابها في الاجتهادات قد تفشت نتيجة ضعف المشيخة وانطفاء نورها، حيث أنّ الشخص الموجود خارج المشيخة يمكنه أنْ يحتفظ برأيه إزاء المشيخة المستندة إلى شخص واحد. بينما كلام شيخ الإسلام المستند إلى مجلس شورى المسلمين يجعل أكبر داهية يتخلى عن رأيه أو يحصر اجتهاده في نفسه في الأقل.

نعم، إنّ كلّ من يجد في نفسه كفاءة واستعداداً للاجتهاد يمكنه أنْ يجتهد، ولكن لا يكون هذا الاجتهاد موضع عمل إلاّ عندما يقترن بتصديق نوع من إجماع الجمهور. فمثل هذا الشيخ - أي شيخ الإسلام المستند إلى مجلس شورى- يكون قد نال هذا السر. فكما نرى في كتب الشريعة أنّ مدار الفتوى: الإجماع، ورأي الجمهور، يلزم الآن ذلك أيضاً ليكون فيصلاً قاطعاً لدابر الفوضى الناشبة في الآراء."[44]

يبين بديع الزمان أن تقوية الخلافة بالمشورة العلمية يمكن أنْ يتم بتنظيم دار الحكمة الإسلامية من جديد، ويذكر أنّه في حالة عدم تأسيس مثل مؤسسة الشورى هذه فإن إسطنبول ستفقد فرصتها في كونها مركزاً للخلافة الإسلامية:

"فالحاجة شديدة لمثل هذا المجلس الشورى الشرعي، فإنْ لم يؤسس في مركز الخلافة فسيؤسس بالضرورة في مكان آخر.

وعلى الرغم من أنّ القيام ببعض المقدمات يناسب أنْ يسبق تأسيس هذا المجلس -كمؤسسة الجماعات الإسلامية وإلحاق الأوقاف بالمشيخة وأمثالها من الأمور- فان الشروع بتأسيس المجلس مباشرة ثم تهيئة المقدمات له يحقق الغرض أيضاً. فالدوائر الانتخابية -للأعيان والنواب- رغم محدوديتها واختلاط وظائفها قد تكون لها تأثير بالواسطة، رغم أنّ الوضع يستوجب تأسيس مجلس شورى إسلامي خالص كي يتمكن من كفالة المهمة السامية.

إنّ استخدام أيّ شيء في غير موضعه يكون مآله التعطل، ولا يبين أثره المرجو منه. فدار الحكمة الإسلامية التي أنشئت لغاية عظيمة، إذا خرجت من طورها الحالي وأشركت في الشورى مع رؤساء الدوائر الأخرى في المشيخة وعُدّت من أعضائها، واستُدعي لها نحوا من عشرين من العلماء الأجلاء الموثوقين من أنحاء العالم الإسلامي كافة، عندها يمكن أنْ يكون هناك أساس لهذه المسألة الجسيمة."[45]

تعد المقارنة التي عقدها بديع الزمان بين الوزارة والخلافة، مهمة جداً من منظور وضعه للنتائج التي جاء بها عدم التوافق في المسؤولية بين الوزارة التي تحكم داخل الحدود العثمانية ومؤسسة الخلافة التي هي بموقع تمثيل العالم الإسلامي كله. والحقيقة أنّ أهم القضايا في تلك المرحلة هي ميزة العلاقات التي ستقوم بها مؤسسة الخلافة التي تمثل الاتحاد الإسلامي مع المسلمين في المناطق التي لا تصلها السلطة السياسية فعلياً.

إن القضية العملية الأساسية للإداريين العثمانيين الذين شاهدوا الأفضلية السياسية العالمية التي تؤمّنها الضرورة النظرية لعمل مؤسسة الخلافة تجاه المستعمرين هي عدم وضعهم إدارة سياسية تجعل جميع جغرافية العالم الإسلامي تحت تأثير القوة السياسية. يعني الوزارة التي بين أيديهم. وقد سعى السلطان عبد الحميد الثاني لإلغاء حالة عدم التوازن هذه بين الوزارة والخلافة بالدبلوماسية المتعددة الجهات، وعندما حاول مسؤولو الإتحاد والترقي إلغاءها بالطرق العسكرية في الحرب العالمية الأولى، ألغيت الوزارة بعد الحرب من مسرح التاريخ ثم تبعتها الخلافة. وقد لفت بديع الزمان الأنظار إلى النتائج التي سيظهرها عدم التوازن والتناقض بين ساحة المسؤولية الدينية والقوة السياسية في نهاية الحرب العالمية الأولى في المرحلة التي كان موجوداً فيها بإسطنبول، كما أشار إلى بعض الأمور المهمة المتعلقة بالتطورات التي ظهرت فيما بعد:

''إنّ الوزارة والمشيخة جناحا هذه الدولة المسلمة، فإنْ لم يكونا جناحين متساويين متكافئين فلا يدوم لها المضي، وإنْ مضت المشيخة على وضعها الحاضر فسوف تنسلخ عن كثير من المقدسات الدينية أمام اجتياح المدنية الفاسدة.''[46]

٣- المرحلة الثانية: فقدان السلطة السياسية – الدينية في العالم الإسلامي ورسائل النور

الفصل الذي قام به بديع الزمان بين سعيد القديم وسعيد الجديد يعكس الفصل بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية للعالم الإسلامي بنفس الوقت. ففي المرحلة الأولى يتخذ بديع الزمان مكانه كسعيد القديم داخل السياسة الفعالة من أجل الإصلاحات السياسية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي، وفي المرحلة الثانية بدل أنْ يسعى بديع الزمان إلى تخليص العالم الإسلامي الذي دخل مرحلة الفتور السياسي، حاول إنشاء إيمان الفرد المسلم من جديد، وعمل على إخراج جماعة مسلمة من هذا الفرد. ويمكن تقييم هذه المساعي والجهود بأنها ترجيح لإحياء روح الجماعة وإيمان كإيمان العهد ''المكي'' للفرد المسلم الذي سيؤسس مدينته الجديدة بدل السعي داخل الدهاليز السياسية ''للمدينة'' الخاطئة للشخص المعنوي الذي فقد ''مدينته'' بمعنى السلطة السياسية الحرة. لذلك فإن ابتعاد بديع الزمان عن السياسة في مرحلة سعيد الجديد يجب أنْ لا ينظر إليه -كما فعل علي عبد الرازق- على أنه مسلك لفصل الشمولية السياسية والإجتماعية للدين الإسلامي. وبهذا المعنى فإن بديع الزمان ينفصل عن مسلك علي عبد الرازق الذي يضيق الشمولية الإسلامية، وعن مسلك رشيد رضا الذي يسعى وراء حلول التجديد المؤسسي. ورغم أنّه يقترب من محمد إقبال إلا أنّ إصراره على موضوع تأسيس إيمان الفرد من جديد جعله يتميّز عن مسلكه.

في المرحلة التي ازدادت فيها التأثيرات الإيديولوجية المستندة على الفلسفة في النظام السياسي، منح بديع الزمان أهمية كبيرة موضوع النجاة بإيمان الفرد، وهذا يظهر أنّه يرى الحل الأساسي في كل مسلم، فيصير كل فرد مسلم بحاله بؤرة للمقاومة تجاه التوسع الفردي المستند على الإيديولوجية، وذلك بطريق الدفاع عن إيمان الفرد أكثر من التجديد المؤسسي. هذا التحديد وهذا المسلك يناسب الوضع العام للعالم الإسلامي في تلك المرحلة.

وهكذا بدأت الحضارة، التي فقدت نقاط المقاومة الجغرافية والسياسية، المقاومة

في هذه المرحلة على مستوى الفرد والجماعة، ويمكن القول بأنّ وضع العالم الذي عاشه العالم الإسلامي يمثّل انعكاسات في حياة شخصيته النموذجية، ظهر في مرحلتي سعيد القديم وسعيد الجديد لبديع الزمان.

والقضية الأساسية بالنسبة له في العالم الإسلامي هي تقوية إيمان الفرد، وأن حل القضايا المتعلقة بالحياة لا يتم إلا بإرجاعها إلى هذه المسألة الأساسية:

''في هذا العصر تيارات قوية ومسيطرة إلى درجة تستحوذ على كل شيء، وتستولي عليه، وتمتلكه لنفسها، وتسخره لأجلها، فلو أتى ذلك الذي يُنتظر مجيئه حقاً في هذا العصر، فإنني أرى أنّه يغيّر، ويجرّد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة في عالم السياسة، حفاظاً على أعماله من أنْ تغتصبها تلك التيارات.

ثم إنّ هناك ثلاث مسائل هي:

الحياة... الشريعة... الإيمان.

وأن مسألة 'الإيمان' هي أهم هذه المسائل وأعظمها في نظر الحقيقة. بيد أنّ 'الحياة' و 'الشريعة' تبدوان في نظر الناس عامة وضمن متطلبات أوضاع العالم أهم تلك المسائل. ولما كان تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها دفعة واحدة في الأرض كافة لا يوافق سنة الله الجارية في البشرية، فإن ذلك الشخص المنتظر لو كان موجوداً في الوقت الحاضر لاتخذ أعظم تلك المسائل وأهمها أساساً له دون المسائل الأخرى، وذلك لئلا تفقد خدمة الإيمان نزاهتها وصفاءها لدى الناس عامة، ولكي يتحقق لدى عقول عوام الناس -الذين يمكن أنْ يُستغفلوا ببساطة- إنّ تلك الخدمة ليست أداة لأي مقصد آخر.''[47]

إن سعيداً الجديد رأى تخليص وضع العالم الإسلامي الذي صارت كل جغرافيته تحت وطأة الاستعمار تجاه الإيديولوجيات المعادية للدين يمر عبر تقوية إيمان الفرد، وفي الجواب الذي أعطاه رداً على الإنتقادات الموجهة إليه بأنه لم يهتم بالسياسية العالمية، بَيَّنَ أنّ الطريق السياسي والاجتماعي دخل مستنقعاً، وأنه يجب أن يكون الكفاح لتخليص الذين هم في المستنقع بتنويرهم بنور القرآن العظيم:

''إنّ خدمة القرآن الكريم هي التي منعتني بشدة عن عالم السياسة بل أنستني حتى التفكر فيها. وإلاّ فإنّ تأريخ حياتي كلها يشهد بأن الخوف لم يكبلني ولا يمنعني في مواصلة سيري فيما أراه حقاً. ثم ممَّ يكون خوفي؟ فليس لي مع الدنيا علاقة غير

الأجل، إذ ليس لي أهل وأولاد أفكر فيهم، ولا أموال أفكر فيها، ولا أفكر في شرف الأصالة والحسب والنسب. ورحم الله من أعان على القضاء على السمعة الاجتماعية التي هي الرياء والشهرة الكاذبة، فضلاً عن الحفاظ عليها...

فلم يبق إلاّ أجلي، وذلك بيد الخالق الجليل وحده. ومن يجرأ أن يتعرض له قبل أوانه. فنحن نفضل أصلاً موتاً عزيزاً على حياة ذليلة.

ولقد قال أحدهم مثل سعيد القديم:

ونحن أناسٌ لا تَوَسّطَ بَيْننا لنا الصَدْرُ دونَ العالَمينَ أو القبرُ.

إنّما هي خدمة القرآن تمنعني عن التفكر في الحياة الاجتماعية السياسية وذلك:

أنّ الحياة البشرية ما هي إلاّ كركب وقافلة تمضي، ولقد رأيت بنور القرآن الكريم في هذا الزمان، أنّ طريق تلك القافلة الماضية أدت بهم إلى مستنقع آسن، فالبشرية تتعثر في سيرها فهي لا تكاد تقوم حتى تقع في أوحال ملوثة منتنة.''[48]

يرى بديع الزمان أنّ الخدمة بطريق السياسة هي بالدرجة العاشرة بالنسبة للإيمان، وبدعم زاوية نظره هذه بالحقائق النظرية والعملية:

''أما وجه عدالة القدر الإلهي فهو:

إعطاء قسم من الخدمات الإيمانية الجليلة التي تؤدي بحقائق رسائل النور وبالشخص المعنوي لطلابها إلى مؤلفها، ولأن أهل الدنيا والسياسة وعوام الناس ينظرون إلى الخدمات التي تخص السياسة الإسلامية والحياة الاجتماعية على أنها أسبق وأولى من خدمة الحقائق الإيمانية التي هي الأولى في مراتب الخدمات في نظر الحقيقة الأخرى لا تأتى إلاّ في المرتبة العاشرة منها، إلاّ أنّ أولئك يرجحونها على أعظم قضية في الكون ألا وهي خدمة الحقائق الإيمانية. ومن هنا فإنّ إعطاء قسم من تلك الخدمات إلى مؤلف رسائل النور وحسن ظن طلابها المفرط نحوه يوحى إلى أهل السياسة أنّه -أي المؤلف- يحمل فكراً إسلامياً ثورياً فيتخذون جبهة مضادة لرسائل النور ويحاولون إعاقة فتوحاتها. وهذا احتمال وارد بقوة. وما هذا إلاّ خطأ وفيه ضرر عظيم.''[49]

وسبب ابتعاد بديع الزمان عن السياسة في هذه المرحلة، ليس معناه القبول بقول بعضهم: على المسلمين أنْ يعيشوا كأفراد ويبتعدوا عن حياة المجتمع، بل هو عدم

تناسب المبادئ التي تستند عليها الحياة السياسية الجارية مع مفهومه الأخلاقي:

''نعم إنّ السياسة الحاضرة تفسد القلوب، وتدع الأرواح الحساسة في عذاب، فالذي يروم سلامة القلب وراحة الروح عليه أنْ يترك السياسة.''[50]

ومع ذلك يرى بديع الزمان ضرورة المشاركة في تشكيل الجماعات التي ولدت مع فقدان الدعم السياسي للمجتمعات الإسلامية الأخرى في هذه المرحلة، ويرى أنّ المرحلة مرحلة الجماعات:

''إنّ هذا الزمان، زمان الجماعة، فالأهمية والقيمة تكونان حسب الشخصية المعنوية للجماعة. وينبغي ألاّ تؤخذ بنظر الاعتبار ماهية الفرد المادية الفردية الفانية.''[51]

إن بديع الزمان الذي دافع في مرحلة سعيد القديم عن فكر إصلاح مؤسسة الخلافة وتوحيد العالم الإسلامي حول مركز واحد، يرى في المرحلة الجديدة -بعد أنْ شاهد أنّ دار الإسلام والخلافة قد فقدت آخر نقاط المقاومة في كونها النظام العالمي البديل- إنّ الوحدة الإسلامية هي مجال الوحدة المعنوية:

''أجل نحن جمعية، تلك الجمعية التي لها ثلاثمائة وخمسون مليوناً من الأعضاء في كل عصر. وهم يؤكدون كمال احترامهم وصادق ارتباطهم وتعلقهم بمبادئ تلك الجمعية المقدسة -بإقامة الصلاة- خمس مرات يومياً، ويتسابقون في مدّ يد العون والمساعدة بعضهم إلى بعض، سواء بدعواتهم الشخصية عن ظهر الغيب، أم بمكاسبهم المعنوية الوفيرة وفق الدستور الإلهي: ﴿إنّما المؤمِنون إخوةٌ﴾الحجرات:١٠.''

وهكذا فنحن أعضاء في تلك الجمعية المقدسة العظمى إذاً، أما وظيفتنا ضمن نطاق هذه الجمعية فهي: تبليغ الحقائق الإيمانية التي يتضمنها القرآن الكريم إلى طلاب الحق والإيمان على أصح وأنزه وجه، إنقاذاً لأنفسنا وإياهم من الإعدام الأبدي وبرزخ السجن الانفرادي السرمدي.

أما الجمعيات الدنيوية المؤسسة على الدسائس والأحابيل السياسية فلا علاقة لنا بها من قريب أو بعيد بل نترفع عنها.''[52]

٤- المرحلة الثالثة: كفاح الحرية في العالم الإسلامي وسعيد الثالث

إتّخذ بديع الزمان في المرحلة الثانية مبدأ الإبتعاد عن الأحداث والتطورات

السياسية، أما في المرحلة الثالثة من هذا القرن، الذي كثرت فيها حركات مقاومة الإستعمار في العالم الإسلامي، بدأت حرية الدين والفكر بالتوسع مع ظهور تعدد الأحزاب في تركيا، فقد بدأ يبدى قناعاته المتعلقة بقضايا العالم الإسلامي ومكانة تركيا في هذا العالم.

ويظهر للعيان التوازي بين السير العام للعالم الإسلامي في هذا القرن وحياة بديع الزمان. وإن تسمية بديع الزمان لهذه المرحلة بمرحلة أفيون (١٩٥٣)[53] هي دليل غريب على هذا التوازي:

''تُعرض لي حالة روحية مهمة لمرتين أو ثلاث، وهي حالة شبيهة بالتي دفعتني لأنزوي في جبل يوشع باسطنبول قبل ثلاثين سنة وجعلتني أنسلّ من الحياة الاجتماعية البراقة لدار الحكمة الإسلامية، بل لم أسمح حتى ببقاء المرحوم عبد الرحمن معي، وهو الطالب الأول لرسائل النور وبطلها الرائد، كي ينجز بعض أعمالي الضرورية.

تلك الحالة التي هي انقلاب روحي أظهر ماهية سعيد الجديد.

والآن بدأت عندي تباشير شبيهة بتلك الحالة، واعتقد أنها إشارة إلى ظهور سعيد الثالث الذي يكون تاركاً للدنيا كلياً.''[54]

وإن تهنئة لرئيس الجمهورية جلال بايار يومها، وبذلك فإن التصريحات التي قام بها وخاصة بالعطف على العالم الإسلامي، وتأسيسه رابطة بين النظام الجديد في تركيا وحركات الحرية الجديدة في العالم الإسلامي، يدل على تظاهر سلوك أكثر فعالية. وبتعبيره هو فقد بدأ ''يعيد النظر في عالم السياسة'':

''نظرت مرتين أو ثلاث إلى دنيا السياسة خلال ما يقرب من خمس عشرة يوماً. ورأيت عجباً:

أن تيار الزندقة الذي يحكم بالاستبداد المطلق والرشوة العامة قد سعى لتعذيبنا وإفنائنا في سبيل إرضاء الماسونية والشيوعية، كما ذكرته في دفاعاتي، ولكني رأيت تباشير ظهور تيار آخر سيكسر قوة التيار الأول... ولم أنظر أكثر من هذا، إذ لا رخصة لي من حيث مسلكي، وعلى الرغم من أنني تركت السياسة منذ ثلاثين سنة، فإنني أقدم تهانيّ إلى رئيس الجمهورية وإلى مجلس الوزراء الذين تولوا رئاسة الأحرار، وأقرن التهنئة بالإفصاح عن 'حقيقة' وهي الآتية:

إنّ الذين يغيرون علينا ويعذبوننا في المحاكم قالوا: 'ربما يستغل طلاب النور

الدين في سبيل أغراض سياسية!' ونحن قلنا ونقول لأولئك الظالمين في دفاعاتنا ونسند قولنا بألوف الحجج:

إننا لا نجعل الدين أداة للسياسة، فليس لنا غاية إلاّ رضاه تعالى، ولن نجعل الدين أداة للسياسة ولا للسلطة ولا للدنيا برمتها. هذا هو مسلكنا.

وقد تحقق لدى أعدائنا، أنهم على الرغم من تدقيقاتهم المغرضة طوال ثلاث سنوات في ثلاثة أكياس مليئة بالكتب والمكاتيب لا يستطيعون إدانتنا، بل لا يجدون مبررا للأحكام الاعتباطية التي حكمونا بها. وحيث أنهم لم يجدوا أي شيء علينا فسخ التمييز ذلك الحكم. فنحن لا نجعل الدين أداة للسياسة بل نتخذ السياسة آلة للدين ومصالحه وفي وئام معه عندما نجد أنفسنا مضطرين اضطراراً قاطعاً إلى أنْ ننظر إلى السياسة تجاه الذين يجعلون السياسة المستبدة أداة للإلحاد، إضراراً للبلاد والعباد أضراراً بليغة، فعملنا يحقق رابطة أخوية لثلاثمائة وخمسين مليونا مع إخوانهم في هذه البلاد.

حاصل الكلام:

إننا سعينا لأجل إسعاد هذه الأمة والبلاد بجعل السياسة أداة للدين وفي وئام معه تجاه أولئك الذين جعلوا السياسة المستبدة آلة للإلحاد وعذّبونا.''[55] عرض بديع الزمان في هذه المرحلة على الإدارة الجديدة في تركيا الإنفتاح على الدين في السياسة الداخلية، واتباع سياسة نحو الإتحاد الإسلامي في السياسة الخارجية، ويربط هذا العرض بمكانة تركيا داخل العالمية، ولهذا الرأي مؤيّدات في الأسباب الأساسية الثلاثة الباعثة على السياسة الجديدة.

الأول، كون الشعور الديني يشكل أهم عائق أمام انتشار الشيوعية التي هي بموضع الواسطة الإيديولوجية الجديدة للسياسة الروسية التوسعية المتطورة ضد تركيا على مر الزمان.

والثاني، إن تأسيس رابطة إيمانية مع المسلمين داخل روسيا سيشكل عنصر توازن تجاه روسيا:

''إن مصلحة الإسلام والبلاد تقتضي قبل كل شيء إقرار قانون حرية المتدينين وتنفيذه فوراً في المدارس. لأن هذا التصديق يُكسب هذه البلاد القوة المعنوية لأربعين مليوناً من المسلمين في روسيا وأربعمائة مليوناً من المسلمين عامة، ويجعل تلك القلة الهائلة ظهيرا لنا. إذ مما لا شك فيه أنّ الحقائق القرآنية هي التي صدّت اعتداء روسيا

علينا -قبل اعتدائها على أمريكا والإنكليز- بمقتضى عداوتها لنا منذ ألف عام، لذا فمن اللازم لمصلحة هذه البلاد التمسك بتلك الحقائق القرآنية والإيمانية وجعلها سداً قرآنياً قويا -كقوة سد ذي القرنين- لصد تيار الإلحاد المعتدي. ذلك لأن الإلحاد الذي استولى على روسيا وعلى نصف الصين -لحد الآن- وعلى نصف أوروبا قد وقف تجاهنا عند حده. ولم توقفه إلاّ الحقائق الإيمانية والقرآنية."[56]

والسبب الثالث لهذه السياسة هو إجبار القوى الغربية الموجودة تحت تهديد الشيوعية في التوازنات الجديدة للسياسة العالمية على عدم معارضة فكرة الاتحاد الإسلامي:

"إنّ أخطر شيء في هذا الزمان هو الإلحاد والزندقة والفوضى والإرهاب. وليس تجاه هذه المخاطر إلاّ الاعتصام بحقائق القرآن. وبخلاف ذلك لا يمكن بحال من الأحوال أنْ تجابه هذه المصيبة البشرية التي دفعت الصين إلى أحضان الشيوعية في زمن قصير. ولا يمكن إسكاتها بالقوى السياسية والمادية، فليس إلاّ الحقائق القرآنية التي تستطيع أن تدفع تلك المصيبة، إنّ ما ورد في 'مسألة خطرت في ليلة القدر' المنشورة في 'مرشد الشباب' يظهر آثاره في كل من أمريكا وأوروبا. لذا فإنّ القوة الحقيقية التي يجب أنْ تستند إليها حكومتنا الحاضرة هي الحقائق القرآنية والدعوة إليها. إذ تكسب بهذا أخوة ثلاثمائة وخمسين مليون من المسلمين والتي هي قوة احتياطية ساندة لها ضمن دائرة الاتحاد الإسلامي. وقد كانت الدول النصرانية لا تميل إلى هذا الاتحاد الإسلامي، أما وقد ظهرت الشيوعية والإرهاب والفوضى. تضطر كل من أمريكا وأوروبا أن تؤيدا هذا الاتحاد الإسلامي والقرآن."[57]

قام بديع الزمان في إطار هذا الوضع والسياسة الجديدة بتقديم عروضه الإصلاحية المشابهة للتي كان يعرضها في المرحلة الأولى. وإن فكرته بإكساب مؤسسة الشؤون الدينية بناء يجعلها تحمل رسالة تتعلق بجميع العالم الإسلامي بعد أن أُنزلت إلى مستوى وضع وظيفة عادية داخل ميكانيكية الدولة تشكل مثالاً نموذجياً على موقفه الجديد:

"إنّ رئاسة الشؤون الدينية ليست معلّمة الدين محصورة بتركيا كالمشيخة الإسلامية، بل وظيفتها تتعلق كالمشيخة الإسلامية بجمع العالم الإسلامي وتشرف عليه، فهناك حاجة ماسة ولا سيما في الوقت الحاضر أن يحمل العالم الإسلامي تجاه

رئاسة الشؤون الدينية حسن الظن والبعد عن الإتهام والشكوك. ثم إنّ الدول التي ليست في نطاق الاتفاق مع تركيا فإنّ 'رسائل النور' أعظم وسيلة لئلا تحمل تلك الدول الشكوك والشبهات حولها."[58]

لقد سعى بديع الزمان إلى عرض فكرة الإتحاد الإسلامي في هذه المرحلة الجديدة التي بدأت فيها الحركات التحريرية الإسلامية ضد المستعمرين، وقد كرر تحذيراته المشابهة لتحذيرات سعيد القديم تجاه التأثيرات الإنحلالية للحركات العنصرية:

"يدع الأمة الإسلامية المقدسة -كالأول- وينطلق بدعوى القومية ظاهراً إلاّ أنها في الحقيقة عنصرية، فيهضم حق مئة بريئ بجريرة مجرم واحد، فيسعى ضد الأحرار والديمقراطيين المتدينيين وضد جميع العناصر الذين يمثلون سبعين بالمائة من أبناء الوطن وضد الحكومة وضد الأتراك المساكين وضد السياسة التي يسلكها الديمقراطيون، فيدعوا إلى أخوة عنصرية تمنح -رشوة- ذوقاً أنانياً سائباً إلى نفوسهم الأمارة بالسوء. فهذه الأخوة العنصرية التي تهش لها نفوسهم، تحمل في طياتها عداوة إخوان حقيقيين أكثر منهم بألف مرة. وما هذا إلاّ خطر جسيم لا يشعر به لسكره ذاك. إذ تلك العنصرية تجعل صاحبها يترك الكسب المعنوي بدعاء إخوانه المسلمين الحقيقيين 'اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات' المنطلق من أربعمائة مليون مسلم، لأجل ذوق جزئي دنيوي ينتفع به من أربعمائة من المهملين. وهذا خطر عظيم على هذا الوطن وعلى الحكومة وعلى الديمقراطيين المتدينين وعلى الأتراك، والذي يقوم بمثل هذه الدعوة ليس من الأتراك الحقيقيين، فالأتراك النجباء يتجنبون مثل هذه الأخطاء."[59]

إن المجتمعات الإسلامية التي قاومت المستعمرين بالخلافة العثمانية في المرحلة الأولى لهذا القرن، والتي فقدت حريتها تماماً تحت الإدارة الإستعمارية في المرحلة الثانية، كانت تسعى لتشكيل دولها القومية المستقلة في هذه المرحلة الثالثة. وقد أعطى بديع الزمان أهمية كبيرة للاتفاقات بين الدول التي كسبت إستقلاليتها من جديد في العالم الإسلامي، ويطرح فكرة الاتحاد الإسلامي تجاه الصراعات المحتمل ظهورها بواسطة المفاهيم القومية الخاطئة بين هذه الدول. وإن تهنئة لرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء بسب الإتفاق مع العراق وباكستان هو انعكاس لهذا الموقف:

"إننا نبارك تعاونكم الوثيق مع العراق وباكستان بملء أرواحنا ووجداننا. فلقد

أكسبتم بهذا التعاون الفرح والإنشراح لهذه الأمة وسيكون بإذن الله مقدمة لإقرار الأمان والسلام بين أربعمائة مليون مسلم، ويضمن السلام العام للبشرية قاطبة. هذا ما أحسسته في روحي ورأيته لزاماً عليّ أن اكتب إليكم هذه الحقيقة، حيث وردت إلى قلبي في الصلاة وأذكارها.''[60]

ويتضح جليا أنّ بديع الزمان ذهب إلى أبعد من المسلك المشجع للعلاقات بين الدول وبذل جهوداً كبيرة في هذه المرحلة من أجل تقوية الاتحاد في العالم الإسلامي بإنشاء علاقات مع قادة الدول والجماعات. يشهد لها لقاءه مع وزير المعارف الباكستاني حول موضوع نشر رسائل النور في باكستان،[61] ولقاءه مع الجماعات والحركات الإسلامية التي ظهرت في المرحلة الثانية على الخصوص، وفي ذلك خير دليل على مسلكه الجديد. وفي رده على تهنئة أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، يضع أمام الأعين الارتباط الذي قامت به رسائل النور مع هذه الجماعات، كما تدل على أنّ بديع الزمان مُصِرٌ على موضوع تقييم الجهود المبذولة للوحدة الإسلامية في الوضع العالمي من أجل نشرها على المستوى الاجتماعي:

''بالنسبة للتهنئة التي كتبها إليّ من حلب أحد أعضاء الإخوان المسلمين، فإننا نهنئه بالمقابل ونهنئ الإخوان المسلمين من صميم قلوبنا وأرواحنا ونقول لهم:

بارك الله فيكم ألف مرة. إنّ طلاب النور -الذين هم بمثابة خلف الإتحاد المحمدي السابق- يمثلون الإتحاد الإسلامي في الأناضول. أما في البلاد العربية فالإخوان المسلمون هم الذين يمثلون الاتحاد الإسلامي... إن طلاب النور والإخوان المسلمين -من بين صنوف عديدة- يشكلان صفين مترافقين ومتوافقين ضمن حزب القرآن، وضمن دائرة الاتحاد الإسلامي المقدسة، وقد سعدنا باهتمامهم الجدي برسائل النور وبعزمهم على ترجمة بعضها إلى اللغة العربية، ونحن نحمل لهم شعور العرفان بالجميل، لذا فأرسلوا جواباً لمن أرسل إليّ بطاقة التهنئة باسم جمعية الإخوان، وأرجو منهم أنْ يقوموا برعاية طلاب النور ورسائل النور هناك.''[62]

وباختصار لقد تشكلت دنيا جديدة بعد الحرب العالمية الثانية في الربع الثالث من هذا القرن، وقد قام سعيد الثالث بتكوين العلاقات والعروض الفعالة من أجل جعل العالم الإسلامي ضمن اتحاد وصاحب قوة وتأثير داخل العالم الجديد على مستوى الحكومات والمجتمعات الدولية، وذلك بتعدي موقف سعيد الجديد الذي اتخذ مبدأ

الإبتعاد عن السياسة حتى لم يعد يقرأ الصحف. وإذا نظرنا من زاوية أخرى فإن سعيداً الثالث كسر أطواق الاستبداد في مرحلة سعيد الجديد مثل العالم الإسلامي الذي كسر أطواق الاستعمار في المرحلة الثانية، وسعى لإضافة أبعاد اجتماعية وسياسية على الإيمان الذي أنشأه سعيد الجديد. وهكذا فإن سعيداً الثالث رغم تقدمه في السن مزج مخزون تجارب سعيد القديم وسعيد الجديد وعكس ذلك على علاقاته الاجتماعية.

٥- المرحلة الرابعة والآراء السياسية لبديع الزمان

توفي بديع الزمان في النصف الأول من المرحلة الثالثة من التصنيف، ولم يعش المرحلة التي تشمل الربع الأخير. ونستطيع أن نقول إنّ بديع الزمان هو الوحيد الذي عرض آراء سياسية غريبة جداً تتعلق بهذه المرحلة. فمثلاً أجاب على سؤال رئيس جامعة الأزهر الشيخ بخيت الذي كان موجوداً في تلك المرحلة في إسطنبول: ''ما تقول في حق هذه الحرية العثمانية والمدنية الأوربية؟ فأجابه سعيد:

إن الدولة العثمانية حاملة بدولة أوربية وستلد يوماً ما، وأنّ أوروبا حاملة بالإسلامية وستلد يوماً ما.''[63]

ثم تذكر هذه الحادثة في مرحلة سعيد الثالث:

''فلقد شاهدنا الولادة الأولى، أنها سبقت أوروبا في بُعدها عن الدين بربع قرن.

أما الولادة الثانية: فستظهر بعد حوالي ثلاثين سنة بإذن الله. ستظهر في الشرق والغرب دولة إسلامية.''[64]

ويشير بذلك إلى بعض التطورات في الربع الأخير من هذا القرن. ويمكن أنْ نشاهد من هذه الآراء بقدر الإشارات المعنوية، مشاهدات آثار وقابلية سياسية ترى أنّ تمزق الدولة العثمانية في البلقان بشكل خاص، وبتمزق إمبراطوريات الإستعمار ستتشكل تجمعات سكانية مسلمة جدية في دول أوروبا الغربية وإنهم سيقومون ببعض الطلبات السياسية. وكي نستطيع مشاهدة ذلك يجب لفت النظر إلى ''طريق السياسة''[65] على حدّ قوله. وبعد المشروطية وأثناء عودته من إسطنبول إلى مدينة ''وان''، وبقوله للشرطي الروسي الذي ناقشه في تيفليس، إنني أضع خطة مدرستي، ويشير جوابه له إلى آراء سياسية مستقبلية مهمة جداً تتعلق بالمرحلة التالية: ''لقد بدأ ظهور ثلاثة أنوار متتابعة في آسيا، في العالم الإسلامي، وستظهر عندكم ثلاث ظلمات

بعضها فوق بعض، سيمزّق هذا الستار المستبد ويتقلص، وعندها آتي إلى هنا وأنشئ مدرستي.

قال: هيهات! إنني أحار من فرط أملك؟

قلت: وأنا أحار من عقلك! أيمكن أن تتوقع دوام هذا الشتاء؟ إن لكل شتاء ربيعاً ولكل ليل نهاراً.

قال: لقد تفرق المسلمون شذر مذر.

قلت: ذهبوا لكسب العلم، فها هو الهندي الذي هو ابن الإسلام الكفء يدرس في إعدادية الإنكليز.

وها هو المصري الذي هو ابن الإسلام الذكي يتلقى الدرس في مدرسة الإدارة السياسية للإنكليز...

وها هو القفقاسي والتركستاني اللذان هما ابنا الإسلام الشجاعان يتدربان في المدرسة الحربية للروس... إلخ.

فيا هذا! إنّ هؤلاء الأبناء النبلاء، بعدما ينالون شهاداتهم، سيتولى كل منهم قارة من القارات، ويرفعون لواء أبيهم العادل، الإسلام العظيم، خفاقاً ليرفرف في آفاق الكمالات، معلنين سر الحكمة الأزلية المقدرة في بني البشر رغم كل شيء.''[66]

وفي بداية مرحلة الحرب الباردة التي تسارعت فيها الحركات الفلسفية المادية والاشتراكية أشار إلى بداية اليقظة الدينية بترك الفلسفة الإشتراكية السوفيتية بقوله:

''إنّ الصحوة الحاصلة في البشرية نتيجة الحربين العالميتين أبانت بأن الأمة لا تعيش بلا دين. فلن تبقى روسيا بلا دين ولا تستطيع ذلك، ولا تعود إلى النصرانية.''[67]

إن هذه الكلمات التي يمكن الحكم بأنّها آراء حول الثورات الإستعمارية في المرحلة الثالثة وانهيار الإتحاد السوفيتي وحصول القفقاس وآسيا الوسطى على استقلالها في المرحلة الأخيرة تحمل أهمية كبيرة من زاوية المرحلة التي قيلت فيها. هذه الكلمات التي قيلت في مرحلة كان يعيش فيها العالم الإسلامي آلاماً كبيرة قبيل الحرب العالمية الأولى، يمكن القول أنّها إشارة إلى إيمان قوي وشعور بالثقة بالذات. وقد قال بديع الزمان في الخطبة الشامية، التي هي من آثار سعيد القديم، إنّ أهم مرض أصاب العالم الإسلامي هو اليأس، وأن الشعور بالثقة بالذات الذي يذكره في كثير من

آثاره لعب دوراً مهماً في عدم سريان نفسية اليأس في أطرافه. وإن الذي جعله يقول في تلك المرحلة للعالم الإسلامي.''وها قد أخذت الحجب التي كانت تكسف شمس الإسلام تنزاح وتنقشع وأخذت تلك الموانع بالإنكماش والإنسحاب. ولقد بدأت تباشير ذلك الفجر منذ خمس وأربعين سنة، وها قد بزغ فجرها الصادق سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف أو هو على وشك البزوغ، وحتى إن كان هذا الفجر فجراً كاذباً فسيطلع الفجر الصادق بعد ثلاثين أو أربعين عاماً إن شاء الله.

نعم فلقد حالت ثمانية موانع دون استيلاء حقائق الإسلام على الزمان الماضي استيلاءً تماماً وهي:

المانع الأول والثاني والثالث:

جهل الأجانب.

وتأخرهم عن عصرهم ''أي بُعدهم عن الحضارة''.

وتعصبهم لدينهم.

فهذه الموانع الثلاثة بدأت تزول بفضل التقدم العلمي ومحاسن المدنية.

المانع الرابع والخامس:

تحكّم القسيسين وسيطرة الزعماء الروحانيين على أفكار الناس وأذهانهم.

وتقليد الأجانب لأولئك القسيسين تقليدا أعمى.

فهذان المانعان أيضاً يأخذان بالزوال بعد انتشار حرية الفكر وميل النوع البشري إلى البحث عن الحقائق.

المانع السادس والسابع:

تفشي روح الإستبداد فينا.

وانتشار الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها.

إنّ زوال قوة استبداد الفرد الآن يشير إلى زوال استبداد الجماعة والمنظمات الرهيبة بعد ثلاثين أو أربعين سنة. ثم إن فوران الحمية الإسلامية والوقوف على النتائج الوخيمة للأخلاق الذميمة كفيلان برفع هذين المانعين بل هما على وشك أنْ يُرفعا وسيزولان زوالاً تاماً إن شاء الله''[68] بفضل الإيمان القوي والثقة بالذات.

والحقيقة إن الستائر المتكاثفة أمام العالم الإسلامي في الربع الثاني من هذا القرن يعني في المرحلة الثانية لتحليلنا بدأت تنقشع في المرحلة الثالثة. وفي المرحلة الرابعة إن الصراعات التي ظهرت بين العالم الإسلامي والقوى المنظمة أدت إلى تطور الشعور بالقدر المشترك حتى داخل النخبة السياسية المؤيدة للغرب. وقد لعبت أخيراً دورا يثير هذا الشعور بالتعاون والقدر المشترك في أزمة البوسنة.

رغم جميع الأزمات السياسية، والإقتصادية، والثقافية فإن العالم الإسلامي على عتبة حضارة جديدة. في هذه المرحلة الجديدة والصعبة، حتى الأعداء قدموا احترامهم لنداءات بديع الزمان الذي عاش وشعر كشخصية نموذجية عاشت جميع صفحات العالم الإسلامي طيلة قرن، وإننا الآن بحاجة إلى منهجه العزيز وصوته القوى الذي يقول: ''نعم، كونوا على أمل، إنّ أعظم صوت داوٍ في انقلابات المستقبل هو الإسلام الهادر.''[69]

* * *

الهوامش:

* الأستاذ الدكتور أحمد داود اوغلو: ولد سنة ١٩٥٩م في قضاء طشكند بولاية قونيا. تخرج في ثانوية إسطنبول للبنين سنة ١٩٧٧م. وأنهى قسم الاقتصاد والسياسة في كلية العلوم الاقتصادية والإدارية بجامعة البوسفور سنة ١٩٨٤م. ثم أكمل دراسة الماجستير في نفس الجامعة في فرع الإدارة العامة بمعهد العلوم الاجتماعية، كما أكمل دراسة الدكتوراه سنة ١٩٩٠م في موضوع علم السياسة والعلاقات الدولية. وبدأ عمله في الجامعة الإسلامية بماليزيا في فرع العلوم الإسلامية كمساعد أستاذ مساعد سنة ١٩٩٠م. وحصل على لقب أستاذ مساعد بنفس الجامعة سنة ١٩٩٣م. ويعمل عضواً في بعض المؤسسات الأكاديمية العالمية ويعرف اللغة الإنجليزية، والألمانية، والعربية، والماليزية. وقد قدم المقالات لكثير من المجلات المحلية والأجنبية، وللمؤتمرات الدولية التي عقدت في أمريكا وكندا وماليزيا وداخل البلاد وخارجها.
وزير الخارجية الحالي للجمهورية التركية.

Alternative Paradigms: The lmpact of islalmic and Westarn Weltanschauvgsan Political Theory. USA.

zational Transformation and The Muslim world Kuala Lumpur, 1994.[1994. Civil

[1] Davutoglu A. 1994. Civilizational Transformation and the Muslim World, K. L.: Quill ve 20. Yüzyilda islâm Siyasasinin Temel Meseleleri. ilim ve Sanat, Mayis 1992, 7: 5-14.

[2] علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، بيروت ١٩٦٦.

[3] رشيد رضا، الخلافة، القاهرة ١٩٨٨.

[4] M. ikbal, The Reconstruction of Muslim Thought, Londra, 1934: 164.

[5] Sünûhat, istanbul: Sozler, 1977: 44-46.

[6] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، السانحات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

[7] نفسه.

[8] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.
[9] صيقل الإسلام، السانحات.
[10] صيقل الإسلام، المحكمة العرفية العسكرية.
[11] صيقل الإسلام، المناظرات.
[12] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.
[13] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.
[14] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.
[15] نفسه.
[16] صيقل الإسلام، السانحات.
[17] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ملحق اميرداغ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.
[18] نفسه.
[19] نفسه.
[20] صيقل الإسلام، المناظرات.
[21] صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية.
[22] نفسه.
[23] صيقل الإسلام، المناظرات.
[24] نفسه.
[25] صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية.
[26] نفسه.
[27] نفسه.
[28] صيقل الإسلام، المناظرات.
[29] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.
[30] النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.
[31] نفسه.
[32] صيقل الإسلام، السانحات.
[33] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، رد الأوهام.
[34] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.
[35] صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية.
[36] صيقل الإسلام، المناظرات.
[37] صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية.
[38] صيقل الإسلام، المناظرات.
[39] Manazarat Osm., 38-39 zikr. Mürsel Safa, Siyasi Dusunce Tarihi Isiginda Bediuzzaman Said Nursi, ist.: Yeni Asya Yayinlari. 1989, s. 155.
[40] صيقل الإسلام، المناظرات.
[41] صيقل الإسلام، السانحات.
[42] نفسه.

[43] نفسه.
[44] نفسه.
[45] نفسه.
[46] نفسه.
[47] ملحق قسطموني.
[48] المكتوبات، المكتوب الثالث عشر.
[49] الملاحق، ملحق قسطموني.
[50] نفسه.
[51] نفسه.
[52] سيرة ذاتية، مقتطفات من دفاع الأستاذ النورسي في محكمة دنيزلي.
[53] Tarihce-i Hayat, s. 537.
[54] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، الشعاع الرابع عشر، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.
[55] الملاحق، أميرداغ.
[56] نفسه.
[57] نفسه.
[58] نفسه.
[59] نفسه.
[60] نفسه.
[61] نفسه.
[62] نفسه.
[63] سيرة ذاتية، بداية الانعطاف التاريخي.
[64] الملاحق، اميرداغ؛ وسيرة ذاتية: لقاء مع مفتي الديار المصرية.
[65] صيقل الإسلام، المناظرات.
[66] سيرة ذاتية، بداية الانعطاف التاريخي.
[67] الملاحق، اميرداغ.
[68] صيقل الإسلام، الخطبة الشامية.
[69] صيقل الإسلام، الصانحات.

تربية الطفل وأساليبها في التشريع الإسلامي

الباحثة سناء حسن هدلة*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المصطفى المختار، وآله وصحبه الطيبين الأبرار، وبعد: خلق الله تعالى الإنسان وعلمه البيان، ولم يتركه سدى، بل هيأ له من يشرف على تهذيبه وتعليمه، لاسيما في مراحل الطفولة حيث يكون ألين عريكة، وأنقى فطرة، وأصدق تأثراً بكل من يحيط به، ويعتبر الوالدين مسؤولين بالدرجة الأولى عن تنشئته وإحاطته بالرعاية والحماية والتوجيه.

و الأصل في هذه التربية أن تكون شاملة لحياة الطفل في جوانبها كافة الخاصة والعامة، غير أنها أضحت عند بعض المربين في الأيام الراهنة مقتصرة على بعض الجوانب فحسب، وابتعد أكثر المربين عن منهجية الإسلام في التربية إذا ما قورن ذلك بالضخ الإعلامي الرهيب الذي يتلقاه الطفل من غير مراقبة ولا توجيه.

وعجزت النظريات التربوية الحديثة المفسرة لسلوك الطفل عن الوصول به إلى المستوى التربوي والأخلاقي المتوقع منها، وظهر من يردد عبارات الغرب وتجاربه المؤقتة بدعوى التقدم والمدنية وتحرير الطفل من سلطة الوالدين، فكان لابد من:

- التأكيد على دور الوالدين في التربية والتأديب، والمسؤولية الملقاة على عاتقهما في ذلك.

- إيضاح شمولية التربية لكل الجوانب الكفيلة بإعداد الفرد الصالح السوي.

- إتساع دائرة الأساليب التربوية، وعدم حصرها بأسلوب الجزاء والعقاب المادي.

- الحكمة في استخدام وسائل الثواب والعقاب المادية والمعنوية وفق الضوابط الشرعية المنصوص عليها، لاسيما في حال استخدام العقاب البدني.

- بيان للسياسات التربوية الخاطئة التي يتبعها بعض المربين مع أولادهم، وبيان الرأي الإسلامي فيها.

- عرض موجز لمزايا النهج التربوي الإسلامي الذي ينبغي على المربين إتباعه.

خطة البحث: المطلب الأول: تعريف التربية وهدفها.

المطلب الثاني: أنواع التربية.

المطلب الثالث: أساليب التربية.

المطلب الرابع: السياسات التربوية الخاطئة، ورأي التشريع الإسلامي فيها.

المطلب الخامس: مزايا النهج التربوي الإسلامي.

الخاتمة.

الملخص

يتضمن هذا البحث نظرة سريعة عن مسؤولية التربية، وهدفها في حياة الطفل، ثم عرض أنواع التربية وجوانبها المختلفة التي ينبغي الإحاطة بها لإعداد المواطن الصالح، يليه الكلام عن الأساليب التربوية في الإسلام والتي تتجلى بالقدوة والوعظ والعادة وإثارة العاطفة والتعليم، وينتهي بالحديث عن السياسات التربوية الخاطئة في تربية الطفل في المنظور الإسلامي، ومزايا النهج التربوي الإسلامي.

المطلب الأول: تعريف التربية وهدفها وأنوعها:

حمّل الشارع الحكيم الوالدين مسؤولية تربية أولادهم وتوجيههم وتأديبهم، لاسيما في مراحلهم العمرية الأولى حرصاً منهم على التنشئة القويمة، وتنطوي هذه التنشئة على جوانب الحياة كافة ويتم ذلك بأساليب متنوعة، لابد قبل عرضها من بيان لمفهوم التربية وهدفها:

١: تعريف التربية:

لغة: يعود أصل الإشتقاق اللغوي لكلمة تربية إلى:

رَبَّ: ومنه ربَّ الصبي، بمعنى ربّاه حتى أدرك، ورَبَّه رَبّاً: أي تولى أمره وملكه، وهي بهذا المعنى صفة ذات في حقه تعالى بصفته المالك والسيد.[1]

رَبَبَ: ربَبَه تربيباً بمعنى ربّاه، ومنه الحديث "لَكَ نِعمَة تَرُبُّهَا عَلَيَّ"،[2] أي تحفظها وترعاها، وربّاه تربيةً، وتربّاه، أي: أحسن القيام عليه، ووليه حتى يفارق الطفولة سواء كان ابناً له أم لم يكن، وتطلق في حقه تعالى بصفته مدبراً لخلقه ومربّيهم.[3]

رَبَا: رَبَا الشيء يربو، بمعنى زاد ونما، وربّاه تربيةً أي غذّاه، ويطلق هذا على كل ما يُنَمَّى، كالولد، والزرع ونحوه.[4]

اصطلاحا: يعرّف الفقهاء التربية بأنها: تنشئة الولد حتى يبلغ التمام والكمال شيئاً فشيئا.[5]

وهذه التنشئة لابد وأن تكون ذات أبعاد أخلاقية واجتماعية ونفسية وعقلية وجسدية، ويعرّف بعض العلماء المعاصرين التربية حديثاً بأنها: مجموعة العمليات والجهود الموجهة، بغية إحداث التغيير المرغوب في سلوك الأفراد في أحوال وظروف البيئة المادية والاجتماعية.[6]

يستند هذا التعريف إلى تحديد طبيعة التربية من حيث هي طرق ووسائل لتنشئة الطفل بطريق التدريس كما يراها ابن سينا.[7]

أو بطريق الإعتياد كما يرها الغزالي وغيره[8] لذلك يمكن تعريفها بأنها: علم إعداد الإنسان حسبما يريد دينه، ومجتمعه، وأمته.[9]

٢- هدف التربية:

تهدف التربية الإسلامية إلى إعداد الإنسان الصّالح، الفاضل ذو الخلق الكريم، والعزيمة القوية، القادر على التلاؤم مع حياة المجتمع الذي ينتمي إليه، وممارسة دوره النافع فيه، وهو الذي يكون بحق خليفة الله في هذه الأرض[10] لذلك ينبغي أن يكون هذا الإعداد شاملا لجوانب حياته كافة، الخاصة والعامة، تربية تجلب النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾. القصص:٧٧ [11]

ثانيا أنواع التربية:

١- التربية الإيمانية: وهي ربط الولد منذ نعومة أظفاره بأصول الإيمان وأركانه،

وترسيخها في خوالج نفسه، إبتداء بوجود الله تعالى وصفاته، مروراً بعظمة كلام الله وإعجازه وبيانه بالسنة المشرفة، وانتهاء بالإعتياد على تطبيق أركان الإسلام، وتمثل مبادئ الشريعة الغراء حتى تتسامى روحه إلى الأفق الأعلى، بإيمان صادق، ويقين ليس بعده كفر[12]، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.الروم:٣٠

وأول ما ينبغي للولد معرفته في حق الله تعالى أنه واجب الوجود، فيستحيل عليه العدم، ومن صفاته القدم، والبقاء، ومخالفته للحوادث، ليس كمثله شيء، وهو سبحانه قائم بنفسه واحد في ذاته، وصفاته، وأفعاله، يتصف بالقدرة، والإرادة، والعلم والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، ويستحيل عليه أضدادها، كما يجوز في حقه كل فعل أو ترك ممكن.[13]

أما ما يعلّم في حق رسوله الكريم ﷺ، فيتعيّن أنْ يعلم بأنّه صادق أمين، إستفرغ الوسع في التبليغ موصوف بالفطنة، كما يتعيّن أن يتعلّم ما يستحيل في حقه من نحو الكذب، والخيانة، والبلادة، وكتمان شيء من الرسالة، ويجوز في حقه ما يجوز للبشر من الأكل، والشرب والجماع، والمرض الخفيف، وهو ﷺ مبعوث الله تعالى إلى الخلق كافة، عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم، بشريعته نسخت الشرائع السابقة، والله فضّله على سائر الخلائق.

٢- التربية الخلقية: وهي تنشئة الفرد على المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية التي توجه سلوك الطفل من وقت تمييزه، حتى يعتاد الصّلاح وترسخ في نفسه القيم، فتكون دافعاً له إلى كل فضيلة وعوناً له على كمال دينه ومروءته وشخصيته، ومنها برّ الوالدين واحترامهم، والتزام الأدب في التعامل مع الغير إبتداء بالأسرة، وانتهاء بمختلف المؤسسات الاجتماعية[14] والأفراد، وقد وصف الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.القلم:٥

٣- التربية البدنية: ويتم من خلالها تنمية قدرات الفرد البدنية، وزيادة كفاءته الحركية، الأمر الذي يعينه على تحمل أعباء الحياة ومتطلباتها، فالعقل السليم في الجسم السليم،[15] وقد قال ﷺ: ''المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.''[16]

وقد تتابعت الوصايا الإلهية الداعية إلى حفظ الصحة البدنية، والنهي عن الإسراف

في الطعام والشراب، والأمر بالصيام والنظافة والطهارة،[17] ونهى عن كل ما يضرّ بالجسم ويوهنه، وأمر بالتداوي من الأمراض.[18]

٤- التربية العقلية: وهي تنمية المدارك الفكرية والقدرات العقلية لدى الطفل، وذلك من خلال توجيهه نحو اكتساب المعارف الشرعية والعلمية والثقافية والحضارية التي تساهم في تحقيق نضجه الفكري المدعّم بالحكمة والمنطق والسداد في الرأي،[19] والآيات القرآنية الداعية إلى إعمال العقل والفكر، وإلى التبصر في الخلق كثيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾.الروم:٣٠

٥- التربية الوجدانية: وهي تربية المشاعر الإنسانية لدى الفرد من فرح وحزن وقلق واطمئنان، وتوجيه الأحاسيس الداخلية من لذة وألم، وضبط العواطف والإنفعالات الوجدانية من حب وكره، وهذا النوع يتجلى في المعاملة الودية للطفل، وإشعاره بالحبّ والرّعاية والعطف واحترام الذات[20]، وقد تجلى ذلك في سلوكه ومعاملته ﷺ وعن أبي هريرة ﷺ قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن ﷺ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: ''مَن لا يَرحَم لا يُرحَم''.[21]

٦- التربية الاجتماعية: تربية الطفل منذ نعومة أظفاره على التكيف مع المجتمع بمختلف مؤسساته، والإلتزام بالآداب الإجتماعية، والفضائل الخلقية التي ترتئيها العناصر الراشدة فيه، وتعريف الطفل بحقوق المجتمع والقوانين والنظم السائدة فيه حتى يتمكن من التعايش مع أفراده على أسس المحبة والإحترام والأخوة والتعاون، دون أن يخل ذلك بجرأته في إثبات ذاته، بعيداً عن التردد أو الخجل،[22] قال ﷺ: ''مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.''[23]

٧- التربية المهنية: تدريب الطفل على الكسب الضروري وتعليمه الصنائع التي تليق به[24] من أجل تأمين المتطلبات المادية للحياة وغالباً ما تخضع هذه الوسائل والطرق لتغير الزمان والمكان، وتتراوح بين القدم والحداثة كالزراعة والصناعة والتجارة وتعلم المعلوماتية والحاسوب واللغات وغيرها،[25] ويجوز للوالد إجارة ولده واستخدامه تدريباً له وتأديباً.[26] وقد أمر الله تعالى بالسعي في طلب الرزق، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. الملك:١٥

٨- التربية الأدبية: تتجلى في إتقان علوم اللغة العربية، لتقويم لسانه، وإصلاح بيانه،[27] ويعلم رواية الرجز والقصيد، ومن الشعر ما انطوى على فضل الأدب ومكارم الأخلاق، وأركان علوم اللسان العربي تتمثل في اللغة، والنحو، والبيان، والأدب[28]، وبحفظ القرآن الكريم تحفظ اللغة العربية، ولولاه لاندثرت منذ زمن بعيد، وهو معجزة النبي ﷺ في فصاحته وبلاغته وتناسقه، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً﴾. النساء:٨٢

٩- التربية الجمالية: إيقاظ شعور الفرد بجمال الكون، والتعبير عن ذلك بإحساس مرهف، يبعث فيه الشعور بالإرتياح والسرور ويتذوق الجمال ويسعى للحفاظ عليه والعناية به، فيرتقي وجدانه وتتهذب انفعالاته، لتنعكس على نفسه بمتعة ذات طابع خاص،[29] وقد تحدث القرآن عن الزينة والجمال، ولفت نظر الإنسان إلى ما في الكون من جمال وروعة وفن وإبداع حتى تكون دليلاً على قدرة الله وعظمته، فهو سبحانه جميل يحب الجمال وقد أمر الإنسان بالتجمل فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. الأعراف:٣١

١٠- التربية الجنسية: وتعني تعليم الولد وتوعيته ومصارحته بالقضايا المتعلقة بالجنس والمتصلة بالزواج حتى يكون على بينة من الحلال والحرام، ومن كل ما قد يؤدي إليهما، فيتحكم بذاته ويضبط نوازعه بعيداً عن الإنسياق وراء الشهوات، والتخبط في سبل الغواية والإنحلال.[30]

وهذا النوع من التربية يتم بشكل تدريجي مرحلي، فيبدأ بالمجاز إلى التلميح، كلما توسعت مدارك الطفل وظهرت نباهته، لكن لا ينتقل إلى التصريح إلا بعد مؤانسة الرشد منه، وبلوغه مرحلة التكليف.

وينبغي تدريب الطفل على التزام المبادئ الإسلامية في الإستئذان، وغض البصر، والتفريق في المضاجع والعفة والحياء، والغيرة على المحارم.

ومن الضروري في هذا الصدد إبعاد الطفل عن المثيرات الجنسية، وإشغاله بما هو نافع له من الأنشطة العلمية والثقافية والرياضية على اختلاف أنواعها.[31]

المطلب الثالث: أساليب التربية:

تتنوع الأساليب التربوية لتحقيق الهدف العام للتربية، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

١- القدوة الحسنة: تعتبر القدوة من أهم الأساليب التربوية التي ينعكس تأثيرها على شخصية الفرد بشكل واضح، ولها دور بارز في تعديل السلوك وفق القيم والفضائل الخلقية، ويعود السبب في ذلك إلى ميل الطفل نحو تقليد الآخرين، ومحاكاتهم في أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم، وهذا يتطلب من المربّي تمثل الإستقامة في سلوكه، وترجمة قوله إلى فعل حتى يكون أبلغ أثرا وأعمق انطباعا في النفس، وهذا موضع اتفاق بين علماء التربية المسلمين وغيرهم[32] والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ﴾. الأحزاب:٢١

وغالباً ما ينتهي هذا الأسلوب بالممارسة العملية للحياة، والدروس العملية للفضيلة والقيم والأحكام الشرعية فيعتمد الطفل على نفسه، ويستفيد من تجاربه.[33]

٢- الوعظ والإرشاد: يعتبر النصح والتوجيه المباشر أسلوبا هاماً في التربية، ويختلف تأثيره باختلاف حال النفوس في الإقبال والنفور، والسهولة والعناد، ومن المعلوم أن نفس الطفل أكثر مرونة، وألين عريكة وأسرع اعتياداً من الكبير، فكان تعاهده بالتربية والتأديب واجب كل من يتولى أمره.[34]

وعلى المربي تحيّن الوقت المناسب في توجيهه وإرشاده، لئلا تتسلل السآمة إلى نفسه، ويراعي اللطف في النصح والرفق في القول وخفض الصوت، وستر الحال ما أمكن،[35] فقد روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: ''كان رسول الله ﷺ يتخولنا الموعظة في الأيام كراهة السآمة.''[36]

٣- العادة: وهي تكرير الشيء دائماً أو غالباً على نهج واحد من غير علاقة عقلية، وقد تأخذ طابعاً اجتماعياً، فترتضيها عقول الناس، ويعودون إليها مرة بعد أخرى.[37]

والإنسان في الغالب يكون إلى ما اعتاد أميل وعليه أحرص وبه أشد تمسكاً، والصغير أسلس قيادة، وأحسن مواتاة وقبولاً، وأقل عزيمة في الإنصراف عما يؤمر به من المذاهب الجميلة والطرق المثلى، وهذا يرتب على المربي تعويد الطفل على التزام القواعد والمبادئ الإسلامية حتى ينساق وراء أدائها بشكل آلي ودون تجريدها من حقيقة كونها عبادة في الهدف والمغزى.[38] وقد قال ﷺ: ''مُرُوا أولادَكُم بِالصَّلاةِ، وَهُم أبنَاءُ سَبع، وَاضرِبُوهُم عَلَيهَا، وَهُم أبنَاءُ عَشر،''[39] وليس ذلك إلا بهدف تعويدهم على التزام الطاعة واجتناب المعصية.

٤- إثارة العاطفة: تثار العواطف بإيقاظ المشاعر الوجدانية، وتحريك العواطف

الداخلية تجاه الشيء المتعلم بحيث يكون رديفاً للفرد نحو الإلتزام به والثبات عليه،[40] وتتنوع الوسائل المستخدمة في الترغيب بالأمر وإثارة الإهتمام به، كالحوار والقصة وضرب الأمثال وغيرها، وهذا أسلوب قرآني بليغ الأثر في تهذيب النفس وتوجيهها، قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[الأعراف: ١٧٦]

٥- التربية بالتعليم: يعتبر التعليم وسيلة خادمة للتربية، وجزءاً هاماً منها، وهو في الغالب يقترن بالدليل العقلي والبرهان المنطقي، ويراعى فيه التدرّج مع استخدام الوسائل الحديثة والحسية بغية تقريب المعنى وتزويد الفرد بأرضية علمية وثقافية واسعة.[41]

جعل بعض علماء التربية التعليم مرحلة لاحقة لمرحلة التهذيب والتأديب، والتي بدورها تتبع مرحلة الحضانة، فمن تعلم دون تأديب، لم ينفعه التعليم.[42]

٦- الترغيب والترهيب: الترغيب: وعد يصاحبه تحبيب الإنسان وإغراؤه بإنجاز عمل ما، يجني من ورائه مصلحة وخيراً، أما الترهيب: فهو وعيد الإنسان بالعقوبة، وتحذيره من الأعمال المحرمة.[43]

وما من شك أن استخدام مثل هذا الأسلوب له أهميته، لاسيما في مراحل الطفولة الأولى، وهو مستقى من الفطرة الإنسانية، حيث يرى المربّون المسلمون أن لدى الطفل ميلاً طبيعياً نحو حب الثناء والمديح، كالرغبة في كل ما يجلب له اللذة والسرور، دون التفكير في العاقبة، وهو أيضاً يبغض اللوم، وكلّ ما يجلب له الشعور بالألم.[44]

ومن صور الترغيب: المديح، والثناء، والإبتسام، والتقبيل، والتربيت على الكتفين والرأس والمعانقة.[45]

ومنه إظهار محاسن الطفل والثناء عليه أمام الآخرين من غير مراء ولا تبجيل وكذلك الدعاء له،[46] فها هو ذا رسول الله ﷺ يدعو لخادمه أنس بقوله: ''اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته.''[47]

أما الترهيب فهو كالتغافل والتأنيب والتعنيف والتهديد والحرمان والهجر.[48] من غير شتم أو لعن أو تحقير،[49] فما ورد عن النبي ﷺ أنه كان كذلك، جاء في حديث أنس رضي الله عنه ''لم يكن رسول الله ﷺ سبّاباً، ولا فحاشاً ولا لعّاناً''،[50] وعليه تجنب الدعاء على ولده، لأن في الدعاء عليه إفسادا له، قال ﷺ: ''لا تدعو على أنفسكم، ولا تدعوا

على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم".[51]

ولا ينبغي هتك ستر الطفل أو مكاشفته، لاسيما إذا ستره واجتهد في إخفائه، لأن هذا قد لا يزيده إلا جسارة وإصراراً على الخطأ دون مبالاة بأحد.[52]

٧- الثواب والعقاب: حظي هذا الجانب باهتمام علماء التربية المسلمين كما اعتمده علماء النفس في الغرب، ابتداء بمبدأ اللذة (تكرار السلوك يرتبط باللذة الحاصلة منه)، والذي قال به فرويد وهربرت سبنسر، وانتهاء بمبدأ التعزيز الذي تبناه السلوكيون، حيث جعلوا المنبهات الخارجية التي ترافق السلوك من ثواب، أو عقاب بواعث له بخلاف الحافز الذي يعبر عن حاجة فيزيولوجية داخلية في الغالب.[53]

ومن صور الثواب المادي: تقديم ما له قيمة مادية في ظاهره، وهو معنوي في تأثيره أيضاً وذلك كالمكافآت المالية والجوائز نحو الدمى، والكتب، والأدوات المدرسية والرياضية والفنية والألعاب، والهدايا المختلفة، وقد تكون معززاً غذائياً، وفق ما عبّر عنه علماء النفس.[54]

وقد أشارت الدراسات الحديثة إلى أن المعززات المادية يتعاظم تأثيرها في مراحل الطفولة الأولى، وعند المعوقين أيضاً، ثم يبدأ بالإنحسار حتى يصبح شبه معدوم في المرحلة الإعدادية والثانوية،[55] والإتفاق مطرد عند علماء التربية على أن الثواب كلما خرج عن المضمون المادي إلى المعنوي كان أثبت في تعديل السلوك وتوجيهه.[56]

أما العقاب: وهو إنزال العقوبة الفعلية بالإنسان المقصر أو المسيء للأدب، فقد إتفق علماء التربية من المسلمين وغيرهم على اعتماد العقاب في سياسة الطفل وتوجيهه،[57] كوسيلة اضطرارية، نظراً لخطورته، وما قد يخلفه من آثار جسدية أو نفسية سلبية، ولابد أن يكون تربوياً في مآله، ويتم إيقاعه بشكل تدريجي من الأخف إلى الأشد، ولا يلجأ إلى وسيلة مع جدوى ما دونها.[58]

والعقاب ضروري في بعض الأحيان لتقويم سلوك الطفل وتنمية الشعور بالمسؤولية لديه، شرط ألا يكون تلقائياً متكرراً بحيث يصبغ علاقة الولد بأبويه أو معلميه، لأن التعنيف المتكرر يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً، بل وقد ينتج عنه أشكال من السلوك الخاطئ، كالإستهزاء مثلاً.[59]

ومن العقوبات البدنية: الصفع وشد الأذن والضرب وهو إسم لفعل مؤلم يتصل

بالبدن، أو استعمال آلة التأديب في محل قابل الإيلام.[60] ولكي تفهم العقوبة في غير سياقها، كأنّها مطلوبة لذاتها، يحسن التنبيه إلى ضوابط العقوبة البدنية وشروطها.

ضوابط العقوبة البدنية وشروطها:

إن استخدام العقوبة البدنية ليس على إطلاقه، بل هو في الشرع الإسلامي مضبوط بضوابط وشروط لابد من مراعاتها، حتى يكون مجدياً، ويحقق الهدف المرجو منه في الإصلاح.

ألا يكون الضرب مبرحاً، فلا يكسر عظماً، ولا يجرح لحماً، ولا يريق دماً.[61]

تجنب ضرب الوجه تكريماً له، خشية تشويهه، ويتجنب الرأس والمقاتل، والمواضع المخوفة، كالفرج والبطن، وثغرة النحر، وتحت الأذن.[62]

ألا يكون الضرب بالسوط أو العصا، ولكن بدرّة مأمونة معتدلة الرطوبة والحجم.[63]

النظر في حال الصبي وعمره وطاقته وذنبه، فلا تنبغي الزيادة على الثلاث، إلا إذا عظم الذنب أو تكرر، فتجوز الزيادة على الثلاث إلى العشر، لكن بإذن الولي.[64]

أن يكون الصبي مستأهلاً له.[65]

التناسب بين مقدار العقوبة والذنب المقترف.[66]

أن يغلب على الظن إفادته بحيث يؤدي إلى تحقيق الأغراض المتوخاة منه في ردع الولد وإصلاحه.[67]

ألا يمس كرامة الطفل، وألا ينطوي على إهانة له، فلا يضرب بالحذاء مثلاً.[68]

ألا يتم إيقاع العقوبة البدنية في حال الغضب، أو بدافع الانتقام،[69] فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: ''ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله''.[70]

المطلب الرابع: السياسات التربوية الخاطئة في تنشئة الطفل وحكم الشرع فيها:

تلخّصت أساليب التعامل مع الأولاد في طور التنشئة فيما يأتي:

الأسلوب التسلطي: يقوم هذا الأسلوب على تحكم الوالدين في أفعال الطفل وأقواله، والتحكم برغباته بطريق الجبر و الإكراه، وتوجيه سلوك الطفل بما يتوافق مع رغباتهم الشخصية.

ويترافق في الغالب بإلزام الطفل القيام بما يفوق قدراته وإمكانياته، ظناً من الوالدين أن ذلك يصب في مصلحة الطفل مستقبلاً كما يكون عرياً عن الشرح والتفسير والإقناع العقلي.

ومن أمثلته إجبار الوالد طفله على ارتداء لباس معين، أو تناول ما يكره، ومنه التحكم بنوع الدراسة أو العمل أو اللعب أو ما شابه.

وقد أثبتت التجارب والدراسات أن لمثل هذا الأسلوب آثاره السلبية على شخصية الطفل إذ يقتل فيه روح الإبداع والإبتكار، ويفقده القدرة على إبداء الرأي والمناقشة واتخاذ القرار، والشعور الدائم بالخجل والقلق والتوتر، وقد يؤدي به إلى العناد والعدوانية.[71]

الإهمال: وهو تجاهل الوالدين الطفل بعيداً عن الإشراف والتوجيه لسلوكه ترغيباً وترهيباً، فضلا عما قد يرافقه من السخرية التي تؤدي إلى إصابة الطفل بالإحباط، وقد يكون هذا التجاهل مقصوداً أو غير مقصود، مادياً أو عاطفياً، كما في حال الإنشغال عن الطفل بالعمل أو الملهيات ونحوها.

ومن الملاحظ أن التقصير في إشباع حاجات الطفل الفزيولوجية والنفسية يشكل خطراً على الطفل لاسيما في مراحله العمرية الأولى.[72]

ولعل هذا ما يفسر أشكال السلوك السلبية التي قد تصدر عن الطفل، كالتبلد الانفعالي، وعدم الإكتراث بالأوامر والنواهي التي يصدرها الوالدين، والإعتداء على الآخرين، والإنحراف الأخلاقي، والبحث عن المواطن التي تشبع ما حرم منه من حاجات.[73]

ويرى المربّون أن الطفل إذا أهمل في بدء حياته صار في الغالب فاسد الخلق، كثير الكذب، كثير الحقد والحسد، كثير السرقة والنميمة والإلحاح، فضولياً يتدخل فيما لا يعنيه، ويكيد لغيره من زملائه، ذا مجون، لا يبالي بما يصنع، ولا يكترث لما يفعل.[74]

الإفراط في الحماية: وتكون بالتساهل مع الطفل وتشجيعه على إشباع رغباته، وممارسة أشكال السلوك دون مراعاة الضوابط الدينية أو الخلقية أو الاجتماعية، وهذه الحماية قد تتعدى حدود الآخرين، وذلك في حال تعرضهم للإيذاء من الطفل نفسياً أو جسدياً.

ومن المعلوم أن لهذا الأسلوب آثاره السلبية على شخصية الطفل، حيث ينشأ أنانياً

غير آبه بأحد، حريصاً كل الحرص على تلبية رغباته والحصول على كل ما يريد، ويصبح عاجزاً عن الإعتماد على نفسه محتاجاً إلى معونة الغير، ويعاني في الغالب من سوء التكيف.

وإذا كان التعنيف المستمر والعقاب المتكرر يساعد على تكوين اتجاهات سلبية لدى الطفل، وهو موضع اتفاق عند علماء النفس قاطبة[75]، فهذا لا يعني أن يترك الطفل لجنون أهوائه وسيطرة نزواته فيغرق في الفوضى، بعيداً عن الإنضباط والإتزان وكما أمر الإسلام بالتعامل مع الطفل على أساس الرأفة والحنان، فقد نهى عن الإفراط والغلو في ذلك.[76]

لأن الطفل بحاجة إلى سلطة ضابطة، تبدأ بالأسرة وتنتهي بالإنضباط الذاتي، وقد نصت اتفاقية منظمة العمل الدولية ٦٥/١٢٣ على احترام حرية الآباء أو الأوصياء عند وجودهم في تربية أولادهم دينياً وخلقياً، وفق قناعاتهم الخاصة، لكن هذا لا يعني أن يترك لهم الحبل على الغارب بل يجب أن يترافق ذلك مع اتخاذ جميع التدابير التشريعية والإدارية والإجتماعية والتعليمية الملائمة لحماية الطفل من كافة أشكال العنف أو الضرر أو الإساءة البدنية والعقلية أو الإهمال أو المعاملة المنطوية على الإستغلال بما في ذلك الإساءة الجنسية.[77]

الإفراط في الشدة: وتعني تعريض الطفل للعقاب المستمر إزاء ما يصدر عنه من أنواع السلوك المختلف، ويرافق ذلك في الغالب عدم التناسب بين الذنب والعقاب الذي يتم إيقاعه.

وهذا أسلوب يقوم عليه النظام التربوي القديم، وقد أضحى من تداعيات الحياة القهقرية، بعد أن أثبتت الدراسات الحديثة عدم جدواه في إصلاح الطفل وتقويم سلوكه، وأن غرمه يفوق غنمه، بل وقد يشكل خطورة عليه بالنظر إلى آثاره النفسية والجسدية التي يعتبر من أهمها التمرد والعدوانية.[78]

وقد شغل موضوع العنف ضد الطفل محور الإهتمام منذ عام ١٩٧٢، وكثرت الجمعيات الراعية للطفل، والتي تنادي بحقوقه وتطالب بمنع استخدام الشدة معه، وجاءت النظريات الفلسفية رديفاً لذلك ففسرت أنواع السلوك الصادرة عن الطفل، وحذرت من خطر استخدام العقاب ضده، وأرفق ذلك بعدد من الصور الواقعية لاستخدام العنف حقيقة تجاه الطفل، نتيجة الجهل بالشرع وضوابطه، أو نتيجة استحكام الغضب وسرعة الانفعال.[79]

ومن المعلوم أن الممارسات العنيفة تجاه الطفل أمر مناف لتعاليم الشرع الإسلامي جملة وتفصيلاً، وعلى النقيض من ذلك، فقد أمر النبي ﷺ بالرفق بالأطفال والرحمة بهم، فقال: ''لَيسَ مِنَّا مَن لَم يَرحَم صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرَ كَبِيرَنَا''.[80]

وعن أبي هريرة قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن رضي الله عنه وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: ''مَن لا يَرحَم لا يُرحَم.''[81]

وقد وردت نصوص الشرع الإسلامي الحنيف في مدح الرفق باعتباره ثمرة حسن الخلق، وذمّ العنف لأنه نتيجة الغضب والفظاظة، قال تعالى في وصف المصطفى ﷺ ﴿وَلَو كُنتَ فظّاً غَلِيظَ القَلبِ لانفَضُّوا مِن حَولِكَ.﴾ آل عمران:١٥٩

وقد أثنى النبي ﷺ على الرفق وبالغ فيه، فقال: ''إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لا يُعطِي عَلَى العُنْفِ.''[82]

وفي الرفق جماع الخير، قال ﷺ: ''مَن أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفقِ فَقَد أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ الخَيرِ وَمَن حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفقِ فقد حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الخَيرِ،''[83] وقال أيضاً: ''إِنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شَيءٍ إلا زَانَه، وَلا يُنزَعُ مِن شَيءٍ إلا شَانَه.''[84]

وإذا كانت الطباع أميل إلى العنف والحدة، منها إلى الرفق والحلم، غير أن اللين أبلغ تأثيراً من الشدّة والعنف،[85] وقد أرجع الفلاسفة المسلمون العنف إلى الغضب والفظاظة، لأنَّ الغضب قوة في القلب، تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وهي طبع لدى الإنسان، لا سبيل لقمعها بحال، واستخدامها مستحسن في موضعه من غير إفراط ولا تفريط، وبذلك يظهر دور التهذيب ومجاهدة النفس في التحكم بها، والحدّ من آثارها، أما دوافعها فقد تكون لأسباب غريزية، أو اعتيادية مكتسبة، وهي إن خرجت عن سياسة العقل والدين، بحيث لا يبقى للمرء معها بصيرة ولا فكر ولا نظر ولا اختيار فسوف تسفر عن مظاهر متعددة من العنف، وإن تمَّ كظمها لعجز عن التشفي، احتقنت في القلب وصارت حقداً.[86] وقد تعاقبت التوجيهات الإلهية نحو كظم الغيظ والبعد عن التوتر والغضب، قال تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ﴾ آل عمران:١٣٤ وورد عن النبي ﷺ أنه قال: ''ليسَ الشَّديدُ بالصُّرعَةِ إنَّمَا الشَّديدُ الذي يَملِكُ نَفسَهُ عِندَ الغضَبِ.''[87]

فإذا لجأ المربّي إلى العقاب البدني في بعض الأحيان لتقويم سلوك الطفل وتنمية

الشعور بالمسؤولية لديه فهذا لا يعني أن يجعل من الشدة طابعاً يطبع علاقته بولده، لأن التعنيف المتكرر يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً، بل وقد ينتج عنه أشكال من السلوك الخاطئ، كالإستهزاء والمكر والكذب مثلاً.[88]

المفاضلة بين الأطفال: يخطئ كثير من الآباء والأمهات عندما يفاضلون بين أبنائهم، ويعمدون إلى التمييز بينهم في المعاملة أو الإنفاق أو غيره، ويكون ذلك لاعتبارات شخصية أو متعلقة بالطفل المميز، جنسه، ترتيبه بين الأولاد، صفاته الخلقية أو الخلقية. وأيا كان سبب التمييز فلا مبرر له، إذ الضرر المترتب عليه يفوق نفعه، ومن أهم آثاره التفكك الأسري، وزرع بذور الأحقاد والضغائن في قلوب الأولاد تجاه بعضهم البعض وتجاه والديهم، وقد أوصى رسول الله ﷺ بالعدل بين الأولاد فقال: ''اتقوا الله واعدلوا في أولادكم''[89]، وهذا حديث عام في الإنفاق وغيره.

وأمر رسول الله ﷺ أيضا بالتسوية بينهم في العطاء، فقد ورد أن النعمان بن بشير جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، فقال ﷺ: ''أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟'' قال: لا، قال ﷺ: ''تشهدني إذن فإني لا أشهد على جور،''[90] فالحديث يدل بظاهره على ذم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطايا لما في ذلك من الظلم.[91]

التوبيخ المستمر: إشعار الطفل بالذنب بشكل دائم، وذلك من خلال تعريضه للنقد المستمر، وتتبع أخطائه والإكثار من لومه. وقد يكون التوبيخ شديداً، فيغلّظ له بالقول، أو ينعت بالقبيح من النعوت، وقد يجاوز ذلك إلى الشتم أو اللعن أو التحقير[92] وهذا الأسلوب من شأنه أن يجعل الطفل انطوائيا متقوقعاً حول ذاته، كثير التردد والخوف إزاء أي أمر، وقد ينشئ لدى الطفل ردود فعل مختلفة كالإستهزاء واللامبالاة بسماع الملامة وركوب القبائح وقد يدفع به إلى المعاندة والنكاية لاسيما عند المكاشفة.[93]

وقد كان رسول الله ﷺ أبعد الناس عن ذلك، فقد ورد عن أنس رضي الله عنه أنه قال: ''خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين والله ما قال 'أف' ولا 'لم صنعت؟'، ولا: ألا صنعت؟''[94] وأخرج البخاري عن عمر بن سلمة رضي الله عنه قال: ''كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ فكانت يدي تطيش في الصفحة فقال لي: يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك، فما زالت طعمتي بعد.''[95]

التذبذب في المعاملة: ويعني التقلب وعدم الإستقرار في تعامل الأبوين مع الطفل،

لاسيما في استخدام أسلوب الثواب والعقاب، فيعاقب على القيام بسلوك معين أحيانا، ويثاب على السلوك ذاته أحيانا أخرى، مما يجعل الطفل في حيرة من أمره في صحة ما ارتكب أو خطئه.

وينشأ عن استخدام هذا الأسلوب في الغالب شخصية متقلبة تتعامل مع الآخرين بشكل مزدوج.[96]

أما في التشريع الإسلامي، فينبغي أن يكون المربي حازماً ذو سياسة مستقرة في تعامله مع أولاده، والحزم عموماً: هو الإحتياط في الأخذ بالأمور، والنظر فيها قبل نزولها، وتوقّي المهالك قبل الوقوع فيها، وتدبير الأمور على أحسن ما تكون من وجوهها،[97] وفي التربية تعبير عن درجة السيطرة والضبط التي يمارسها الأب على طفله لمنافعه، بعيداً عن الإذلال والإهانة.[98]

والحزم يكون مترافق بالشدة، عارٍ عن العنف، والدوافع الكامنة وراءه ينبغي أن تمتاز بالنزاهة والتجرّد عن النوازع الشخصية والرغبات الانتقامية، منصوبة لتحقيق مصلحة الطفل، بدافع الحبّ والحرص في الغالب.

مزايا الأسلوب التربوي في التشريع الإسلامي:

يستقى النظام التربوي الإسلامي من تعاليم الشرع الإسلامي القويم، وهو يهدف إلى إعداد الفرد الصالح السوي الذي يسعى إلى الكمال في جوانب حياته كافة، كما يمتاز عن غيره من الأنظمة بعدة مزايا، يمكن إجمالها فيما يأتي:

المربي قدوة: تؤثر القدوة على شخصية الفرد بشكل واضح، ولها دور بارز في تعديل السلوك وفق القيم والفضائل الخلقية، ويعود السبب في ذلك إلى الميل الفطري للطفل إلى تقليد الآخرين، ومحاكاتهم في أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم، وهذا يتطلب من المربّي تمثل الإستقامة في سلوكه، وترجمة قوله إلى فعل حتى يكون أبلغ تأثيراً، وأعمق انطباعاً في النفس، وهذا موضع اتفاق بين علماء التربية المسلمين وغيرهم،[99] والأصل الشرعي للقدوة قوله تعالى: ﴿لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب:٢١ وغالباً ما ينتهي هذا الأسلوب بالممارسة العملية للحياة، والدروس العملية للفضيلة والقيم والأحكام الشرعية فيعتمد الطفل على نفسه، ويستفيد من تجاربه.

الوسطية والإعتدال: يمتاز النظام التربوي في الإسلام بالوسطية والإعتدال، فهو ينبذ

الشدة المفرطة، كما ينافي التساهل المبالغ فيه، وهو يعتمد الحزم في التعامل مع الطفل، ويخاطبه على قدر عقله، كما يتيح الفرصة أمامه لإصلاح الخطأ.[100]

إعتماد الحوار البناء: يحترم الأسلوب التربوي الإسلامي حقوق الجميع، ويتيح الفرصة لكل فرد ليعبر عن رأيه، بعيداً عن الجبر والإكراه، ويعتمد النصح والتوجيه المباشر وغير المباشر، وذلك تبعاً لاختلاف حال النفوس في الإقبال والنفور، والسهولة والعناد.

ومن المعلوم أن نفس الطفل أكثر مرونة، وألين عريكة وأسرع اعتياداً من الكبير، فكان تعاهده بالتربية واجب كل من يتولى أمره.[101]

وتتنوع الوسائل المستخدمة في ذلك، كالحوار والقصة وضرب الأمثال وغيرها، وهذه من الأساليب القرآنية ذات الأثر البالغ في تهذيب النفس وتوجيهها.

سياسة التشجيع والتحفيز للطفل: ترتبط الأوامر والنواهي في التربية الإسلامية بسياسة التشجيع والتنفير، والإنذار والتبشير والترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والإقبال والإحجام.

ولهذا الأسلوب أهميته، لاسيما في مراحل الطفولة الأولى، وهو موافق للفطرة الإنسانية، حيث يرى المربّون المسلمون أن لدى الطفل ميلاً طبيعياً نحو حب الثناء والمديح، والرغبة في كل ما يجلب له اللذة والسرور دون التفكير في العاقبة، وهو أيضاً يبغض اللوم وكلّ ما يجلب له الشعور بالألم[102] وقد تجلّى هذا الأسلوب بشكل واضح في كتاب الله ﷻ من خلال الإستطراد في ذكر الجنة والنار، واعتمده علماء التربية على إطلاقهم كأسلوب ناجع في التحفيز على الفعل والترك ويقتصر هذا الأسلوب على التهديد بالعقوبة وإثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، ففي ذلك تقليل الدافعية إليه.[103]

الثواب والعقاب التربوي: الثواب والعقاب في التربية هو التجسيد المادي لسياسة الترغيب والترهيب، وهو يهدف إلى إصلاح الطفل وتقويم سلوكه، ويتم ذلك وفق ضوابط وشروط حددها الشرع الإسلامي.

ولا خلاف بين علماء التربية المسلمين في اعتماد الثواب كأسلوب أولي في تهذيب السلوك وتوجيهه على المدى البعيد، وذلك من خلال تنمية الحوافز الإيمانية لدى الفرد، وزيادة دوافعه نحو التعلم والعمل الجاد.

والثواب يترافق مع السرور الذي يداخل نفس الطفل عقب فعله فضيلة من الفضائل، أو بعد نجاحه في القيام بعمل أو أداء مهمة ما.[104]

والثواب يفوق العقاب في أثره، باعتباره سلاحاً ذي حدّين، يكون عند الإستحقاق من جهة، ويساهم في تكرار السلوك المرغوب فيه من جهة أخرى، مما جعل منه أسلوباً تربوياً ناجعاً لاسيما في المراحل الأولى من حياة الطفل[105]، وتختلف أساليبه تبعاً لاختلاف العمر والميول والإتجاهات عند الطفل.[106]

أما العقاب التربوي فهو يهدف إلى إيجاد صلة لدى الطفل بين سوء السلوك وألم العقاب، إصلاحاً لأخطائه، وتوجيهاً لما لديه من نوازع وميولٍ سيئة، وتعويداً له على ما حسن من الأخلاق وأنواع السلوك.[107]

واستخدام هذا الأسلوب منوط بحكمة المربّي، وحسن تقديره للظروف، وتقصّيه لتبعات الموقف، وتأكده من استئهال الطفل للإجراء المتخذ تجاهه.

والعقاب التربوي حلٌ أخير، وملاذ اضطراري يلجأ إليه المربيّ عند عجز وسائل الثواب عن تحقيق الهدف المرجو منها في تعديل السلوك أو توجيهه.[108]

إستخدام التقنيات التربوية الحديثة: تهدف التربية في التشريع الإسلامي إلى تنمية المدارك الفكرية والقدرات العقلية لدى الطفل، وتوجيهه نحو اكتساب المعارف الشرعية والعلمية والثقافية والحضارية التي تساهم في تحقيق نضجه الفكري المدعّم بالحكمة والمنطق والسداد في الرأي.[109]

ويترافق ذلك في الغالب باستخدام الوسائل الحديثة والحسية، واعتماد أدوات تربوية متطورة كالكمبيوتر وغيره، وذلك بغية تقريب المعنى وتزويد الفرد بأرضية علمية وثقافية واسعة.[110]

التكامل والشمول: وقد تبين مما سبق أن التربية في التشريع الإسلامي لا تقتصر على جانب محدد من حياة الفرد، وإنما تشمل جانب حياته كافة، العامة والخاصة.

تتوجه التربية بادئ ذي بدء إلى توجيه عقيدة الفرد، وربطه بأصول الإيمان وأركانه، وصولا إلى تطبيقه، وتمثل مبادئ الشريعة، كما تهتم بتنشئة الفرد على المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية، وتنمية قدراته الفرد البدنية ومداركه الفكرية، وتوجيه الأحاسيس الداخلية لديه، وتعمل على ضبط عواطفه وانفعالاته، كما تعرف الطفل على حقوق المجتمع والقوانين والنظم السائدة فيه حتى يتمكن من التعايش مع أفراده

على أسس المحبة والإحترام والأخوة والتعاون، وممارسة الدور الذي يناسبه، ولا تغفل توعيته ومصارحته بالقضايا المتعلقة بالزواج حتى يكون على بينة من الحلال والحرام.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تتم بفضله النعم، والصلاة والسلام على محمد خير العرب والعجم، وبعد:

عرضت في هذا البحث أساليب تربية الطفل في التشريع الإسلامي، وبيّنت منهجيتها، وخَلُصْت يعد العرض إلى بعض النتائج والتوصيات:

التربية في الإسلام هي عملية إعداد الفرد الفعال والمواطن الصالح في جوانب حياته كافة.

لا تقتصر التربية على أسلوب الثواب والعقاب، فالطفل بحاجة إلى التوجيه النظري والعملي، والحوار والممارسة العملية للأمور وغيره.

تفتقر كثير من السياسات التربوية التي يتبعها الآباء مع أبنائهم إلى المصداقية الشرعية.

ضرورة التوعية التربوية للآباء والأمهات، وإحاطتهم بخصائص نمو الأطفال ودوافع السلوك لديهم ومحاولة إيجاد العلاج للمشكلات السلوكية المتوقعة منهم في المواقف المتعددة.

الطفل بحاجة إلى التوجيه النظري والعملي، والحوار والممارسة العملية للأمور وغيره، ولا ينبغي الاقتصار في تنشئته على أسلوب واحد.

التدرج في استخدام الأساليب التربوية مع الحرص على توخي الحكمة في انتقاء الأسلوب المناسب ومراعاة الخصائص النفسية والجسدية لدى الطفل.

إحاطة العقاب البدني بشروط وضوابط تؤكّد على أنّه حالة استثنائية، لا يمال إليها إلاّ إذا تعذّرت غيرها من الأساليب مع وجوب مراعاة ضوابطه الشرعية.

متابعة الطفل، ومراقبته وتوجيهه لاسيما فيما يتعلق بشلة الأقران ووسائل الإعلام، وشغل فراغه بالقراءة والرياضة وبكل ما ينفع الناس ويصلحهم.

والله تعالى أسأل أن يعين الآباء والأمهات على حمل هذه المسؤولية العظيمة، وأن

يحفظ هذه الأمة من المكائد التي تحاك لها، وأن يحفظ أطفال هذه الأمة وشبابها ويوفقهم لنشر دينه وإعلاء كلمته، وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم. والحمد لله في كل حين.

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

- الأبراشي: محمد عطية، التربية الإسلامية وفلاسفتها، ط٣، دار الفكر العربي.
- الاتجاهات الحديثة في التربية، محمد عطية الإبراشي، ط٧(١٣٦٢- ٩٤٣)، دار إحياء الكتب العربية.
- ابن الحاج، محمد بن محمد العبدري، المدخل، دار التراث.
- ابن حزم: أبي علي بن أحمد، الأخلاق والسير، تحقيق: ايفا رياض، ط١(١٤٢١-٢٠٠٠)، دار ابن حزم – بيروت.
- ابن الجزار: سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية – تونس.
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- ابن سينا: تدبير المنزل، نشر ميدياكوم.
- ابن عابدين: محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار، ط١(١٤١٩-١٩٩٨)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- ابن قدامة: المغني، تحقيق: عبد الله التركي - عبد الفتاح الحلو، ط١(١٤١٠-١٩٩٠)، دار هجر- القاهرة.
- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطاب، ط١، مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن منظور: أبي الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، ط١(١٤١٠- ١٩٩٠)، دار الفكر – بيروت.
- ابن همام: محمد بن عبد الواحد، شرح فتح القدير شرح فتح القدير، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أبي السعود: محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أبو سمرة: محمود، الفكر التربوي العربي الإسلامي، عدد من المؤلفين، ط١٩٨٧، المنظمة العربية للتربية – تونس.
- أبو شريخ: شاهر، الفكر التربوي الإسلامي، ط (١٤٢٦- ٢٠٠٥)، دار جرير – عمان.
- تربية الأطفال في الإسلام، ط١(١٤٢٦- ٢٠٠٥)، دار جرير – عمّان.
- أفلاطون جمهورية، ترجمة حنا خباز، دار القلم – بيروت.
- الأنصاري: أبو يحيى زكريا، اللؤلؤ النظيم في روم التعليم والتعلم، مطبعة الموسوعات – مصر.
- الأنصاري: محمد بن أحمد، تفسير القرطبي، تحقيق: محمد بيومي -عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان– مصر.
- الأهواني: أحمد فؤاد، التربية في الإسلام، دار المعارف مصر.
- أوبير: رونيه، التربية العامة، ترجمة عبد الله عبد الدايم، ط١(١٩٦٧) دار العلم للملايين – بيروت.
- البابطين: عبد الرحمن، أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل - ط١(١٤١٦)، دار القاسم – الرياض.
- البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط١(١٤٢٥-٢٠٠٤)، دار صادر – بيروت.
- البقاعي: محمد أبي الدين بركات الشامي، فيض الإله المالك في حل ألفاظ عمدة السالك وعدة الناسك ط (١٣٧٤-١٩٥٥) ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.
- البهوتي: كشاف القناع، منصور البهوتي، تحقيق: محمد الضناوي، ط١(١٤١٧-١٩٩٧) - عالم الكتب – بيروت.

– البيضاوي، تفسير البيضاوي، ط (١٤١١-١٩٩١)، مكتبة تحقيقية – تركيا.
– توماس: فليكس، التربية في العائلة، ط١ (١٤٠٧- ١٩٨٦) دار الحضارة – بيروت.
– حسن: شحاتة، الفكر التربوي العربي الإسلامي.
– حسين: أبو لبانة، التربية في السنة النبوية، دار اللواء – الرياض.
– حسين: عزت، النظرية العامة للعقوبة والتدابير الإحترازية بين الشريعة والقانون، ط (١٩٨٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
– حسين: محمد، التربية في الإسلام، ط٢ (١٤٢٨-٢٠٠٧)، دار الدعوة – مصر.
– الحسيني: أبي بكر بن محمد، كفاية الأخيار، ط١٠ (١٤٢٦-٢٠٠٥)، مؤسسة الرسالة – بيروت.
– الحنفي: محمد، الموسوعة النفسية، الموسوعة النفسية، ط١ (١٩٩ ٥)، مكتبة مدبولي – مصر.
– حوا مده: باسم، تربية الأطفال، تربية الأطفال في الإسلام، ط١ (١٤٢٦-٢٠٠٥) دار جرير – عمّان.
– الخادمي: محمد بن محمد، بريقة محمودية بريقة محمودية، وبهامشه الوسيلة الأحمدية والذريعة السرمدية في شرح الطريقة المحمدية، مطبعة مصطفى البابي - مصر، ط (١٣٤٨).
– الخرشي: محمد بن عبد الله، شرح مختصر خليل، ط١ (١٤٢٧-٢٠٠٦)، المكتبة العصرية – بيروت.
– خليل: محمد رشاد، علم النفس الإسلامي العام والتربوي، ط١(١٤٠٧-١٩٨٧)، دار القلم – الكويت.
– الخولي: عبد البديع، الفكر التربوي العربي الإسلامي.
– داكو: بيير، الطباع الإنسانية والتربية، ترجمة: رغد اسكندر - أركان بيثون، مكتبة التراث الإسلامي – القاهرة.
– الدسوقي: كمال، علم النفس العقابي أصوله وتطبيقاته، دار المعارف – مصر.
– الدسوقي: محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، ط١ (١٤١٩- ١٩٩٨)، دار الفكر – بيروت.
– ديوي: جون، الديمقراطية والتربية، ترجمة: منى العقراوي - زكريا ميخائيل، ط (١٣٦٥-١٩٤٦)، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.
– الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، دار الفيحاء – بيروت.
– رضا: محمد جواد، الفكر التربوي العربي الإسلامي.
– سويد: محمد، منهج التربية النبوية للطفل، ط٢ (١٤٢٢-٢٠٠١)، دار ابن كثير – بيروت.
– روسو: جان جاك، إميل، ترجمة: نظمي لوقا، ط١ (١٩٥٨)، الشركة العربية – القاهرة.
– الزبيدي: محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلالي، ط (١٣٨٦- ١٩٦٦).
– الزحيلي: وهبة، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، ط١ (١٤٢٠-٢٠٠٠)، دار الفكر – دمشق.
– الزيلعي: عثمان بن علي، تبين الحقائق تبين الحقائق في شرح كنز الدقائق، وبهامشه حاشية شهاب الدين أحمد الشلبي ط١(١٣١٥)، المطبعة الكبرى الأميرية – مصر.
– زرزور: عدنان، الأخلاق والنظام الإجتماعي في القرآن، ط (١٤١٧-١٩٩٧)، مطبعة الإتحاد.
– السيد البكري: أبي بكر، حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، ط (١٤١٤-١٩٩٣)، دار الكتب العلمية – بيروت.
– سوكولي، تأديب الأولاد المشاغبين، ترجمة زينة إدريس، ط١ (١٤٢٩-٢٠٠٨)، الدار العربية – بيروت.
– شحيمي: محمد، الإرشاد النفسي التربوي والإجتماعي لدى الأطفال، ط١ (١٩٩٧)، دار الفكر اللبناني - بيروت.
– الشربيني: محمد الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج على متن منهاج الطالبين للنووي -دار الفكر.
– شلبي: أحمد، التربية الإسلامية، نظمها، فلسفتها، تاريخها، ط٧(١٩٨٢)، مكتبة النهضة المصرية.

– الشيباني: عمر، الفكر التربوي بين النظرية والتطبيق، ط١(١٣٩٤- ١٩٨٥)، المنشأة العامة – طرابلس.
– الشيزري: عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني ط٢(١٤٠١ – ١٩٨١)، دار الثقافة – بيروت.
– الشيرازي: أبو إسحاق، المهذب في فقه الإمام الشافعي، ط١(١٤١٤-١٩٩٤)، دار إحياء التراث العربي بيروت.
– الصاوي: أحمد، بلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير، ط ١(١٤١٥- ١٩٩٢)، دار الكتب العلمية – بيروت.
– طاليس: أرسطو، السياسة، ترجمة: أحمد لطفي السيد، دار الكاتب العربي – بيروت.
– الطحان: مصطفى، التربية ودورها في تشكيل السلوك، ط١(١٤٢٧-٢٠٠٦)، دار المعرفة – بيروت.
– طه: حسن جميل، الفكر التربوي المعاصر وجذوره الفلسفية، ط١(١٤٢٨-٢٠٠٧)، دار المسير – عمّان.
– عبد الرحمن: جمال، أطفال المسلمين كيف رباهم النبي ﷺ، ط٧ (١٤٢٥- ٢٠٠٤)، دار طيبة الخضراء – مكة.
– عدس: محمد عبد الرحيم، المعلم الفاعل والتدريس الفعال، ط١ (١٤٢١-٢٠٠٠)، دار الفكر – عمان.
– عز الدين: محمد، تربية الولد عند الغزالي، ط (١٣٨٣-١٩٦٣)، مطبعة الترقي – دمشق.
– علي: سعيد، أصول الفقه التربوي الإسلامي، ط١(١٤٢٣-٢٠٠٢)، دار الفكر العربي – القاهرة /٤٤١.
– العظمة: وفيق، علم النفس الحديث، ط٣ (١٩٥٢)، المطبعة الهاشمية – دمشق.
– علوان: عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، ط ١٩٨٩، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
– علي: سعيد، الفكر التربوي الإسلامي وتحديات المستقبل، ط (١٤٢٧- ٢٠٠٦)، دار السلام – مصر.
– العطاران: محمد، تربية الطفل وفقا لآراء ابن سينا والغزالي والطوسي، ط١(١٤٢٢-٢٠٠١)، الدار الإسلامية – بيروت.
– العمايرة: محمد، المشكلات الصفية، ط١(٢٠٠٢-١٤٢٣)، دار المسيرة – الأردن.
– عمر: عمر أحمد، فلسفة التربية في القرآن الكريم، ط١(١٤٢٠- ٢٠٠٠)، دار المكتبي – سوريا.
– الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط٦(١٤١٩-١٩٩٨)، مؤسسة الرسالة – بيروت.
– الغزالي: أبو حامد، إحياء علوم الدين، ط١(١٩٩٨)، مكتبة مصر.
– فهيم، كلير، الأسرة والمدرسة والمعلم وتحقيق النجاح للأولاد، ط١(١٤٢٥- ٢٠٠٤)، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة.
– فوستير، كونستاين تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال، ترجمة: خليل إبراهيم، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة.
– القائمي، علي، الأسرة وأطفال المدارس.
– القابسي: أبي الحسن، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق: أحمد خالد، ط١(١٩٨٦)، الشركة التونسية – تونس.
– كانت: كتاب التربية، كانت، ترجمة: طنطاوي جوهري، ط (١٣٥٥)، المطبعة السلفية – القاهرة.
– مرسي: محمد، فن تربية الأولاد في الإسلام، ط١(١٩٩٨)، دار الطباعة والنشر – القاهرة.
– المطيعي، تكملة المجموع، مكتبة الإرشاد ـ جدة.
– المقدسي: ابن مفلح الآداب الشرعية، تحقيق: شعيب ارناؤوط - عمر القيام، ط٣ (١٤١٩-١٩٩٩)، مؤسسة الرسالة – بيروت.
– النحلاوي: عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ط٢ (١٤٠٣-١٩٨٣)، دار الفكر – دمشق.

– النجدي: أحمد، هداية الراغب لشرح عمد ة الطالب ـ تحقيق: حنين مخلوف، ط٢ (١٤١٠- ١٩٨٩)، دار البشير- جدة.
– النفراوي، الفواكه الدواني شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، المكتبة الثقافية – بيروت.
– النحوي: عدنان، التربية في الإسلام، التربية في الإسلام، ط١ (١٤٢٠-٢٠٠٠)، دار النحوي.
– النووي: أبي زكريا يحيى بن شرف، المجموع، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد ـ جدة.
– النووي روضة الطالبين، تحقيق: عادل عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت.
– الهيتمي: محمد بن محمد، تحرير المقال في أحكام وآداب وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال، تحقيق: مجد السيد إبراهيم، مكتبة القرآن – القاهرة.
– الهجرسي: فؤاد، رياض المتقين في تربية الناشئين، ط١ (١٤٢١-٢٠٠٠)، دار الكلمة – مصر.
يالجن: مقداد، التربية الأخلاقية الإسلامية، ط١ (١٤١٢-١٩٩٢)، دار عالم الكتب – الرياض.

* * *

الهوامش:

* كلية الشريعة، قسم الفقه وأصوله، جامعة دمشق.

[1] محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٦(١٤١٩-١٩٩٨):١/٧٠، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: محمد بيومي - عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان - مصر: ١/١١١.

[2] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الحب في الله: ١٦/ ر٢٥٦٧ /١٢٣.

[3] ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر - بيروت، ط١(١٤١٠- ١٩٩٠): ٥/٩٤ - محمد الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلالي، ط (١٣٨٦- ١٩٦٦): ٢/٤٥٩ - تفسير القرطبي: ١/١١١.

[4] محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الفيحاء - بيروت /٢٣١ - ابن منظور، لسان العرب: ٥/١٢٨.

[5] محمد بن عبد الله الخرشي، شرح مختصر خليل، المكتبة العصرية - بيروت، ط١(١٤٢٧-٢٠٠٦) :١/٤٣ - البيضاوي، تفسير البيضاوي مكتبة تحقيقية – تركيا، ط (١٤١١-١٩٩١):١/٨ - محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود: ١/١٣- وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، دار الفكر - دمشق، ط١(١٤٢٠-٢٠٠٠) /٢٦.

[6] محمد جواد رضا، الفكر التربوي العربي الإسلامي /١٦٦- سعيد علي، الفكر التربوي الإسلامي، دار السلام - مصر ط (١٤٢٧- ٢٠٠٦) /٤٣ - أحمد القادري، شاهر أبو شريخ، الفكر التربوي الإسلامي، دار جرير – عمان، ط (١٤٢٦- ٢٠٠٥) /١٤.

[7] ابن سينا، تدبير المنزل، نشر ميدياكوم / ٣٥

[8] الغزالي، إحياء علوم الدين: ٢/٨٩، ابن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية - تونس/١٣٥- أرسطو، السياسة، ترجمة: أحمد لطفي السيد، دار الكاتب العربي - بيروت /٢٩٢- جان جاك روسو، إميل، ترجمة: نظمي لوقا، الشركة العربية - القاهرة، ط١(١٩٥٨)/٢٧.

[9] مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، دار عالم الكتب - الرياض، ط١(١٤١٢-١٩٩٢) / ٥٩ - وفيق العظمة، علم النفس الحديث المطبعة الهاشمية - دمشق، ط٣ (١٩٥٢) /٥٠٣.

[10] محمد عطية الأبراشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها، ط٣، دار الفكر العربي /١٠٥ - حسن جميل طه، الفكر التربوي المعاصر وجذوره الفلسفية، دار المسير - عمّان، ط١(١٤٢٨-٢٠٠٧) / ١٢٨ - كانت: كتاب التربية / ٣٢.

[11] محمد الزحيلي، طرق تدريس التربية الإسلامية /١٦٤.

[12] عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، ط١٩٨٩، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية: ١/١٤٧- عدنان زرزور الأخلاق والنظام الاجتماعي في القرآن، مطبعة الإتحاد، والكلام مقتبس من كتاب: كلمات في مبادئ علم الأخلاق، محمد دراز، ط (١٤١٧-١٩٩٧) /٧٧ - كانت: كتاب التربية /٦.

[13] حاشية إعانة الطالبين للسيد البكري: ١/٤٤- قليوبي وعميرة: ١/١٢٢، الفواكه الدواني للنفراوي: ١/٣٠- ٣١.

[14] عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد:١/١٦٧- وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣٠ - عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧ - أسامة شموط، الفكر التربوي العربي الإسلامي /٤٢٢ - أرسطو، السياسة /٢٩٤.

[15] محمود أبو سمرة، الفكر التربوي العربي الإسلامي/٥٣٣، وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٢٨ - الغزالي، إحياء علوم الدين: ٢/٩٠ - فليكس توماس، التربية في العائلة، دار الحضارة - بيروت، ط١(١٤٠٧- ١٩٨٦) /٢٨ - رونيه أوبير، التربية العامة، ترجمة عبد الله عبد الدايم، دار العلم للملايين - بيروت، ط١(١٩٦٧)، ترجمة عبد الله عبد الدايم /٣٩٧- حنا خباز، جمهورية أفلاطون /٩٦- أرسطو، السياسة /٢٩٣ كانت: كتاب التربية /١٣.

[16] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز: ١٦/٣١٥.

[17] وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣٣ - الغزالي، إحياء علوم الدين: ٧٦/٢ - عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن الكريم، دار المكتبي - سوريا، ط١(١٤٢٠- ٢٠٠٠) /١٥١.

[18] محمد الزحيلي، طرق تدريس التربية الإسلامية /١٥١.

[19] محمد حسين، التربية في الإسلام، دار الدعوة - مصر، ط٢(١٤٢٨-٢٠٠٧) /٢٥٠- وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣٣ عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧- فؤاد الهجرسي، رياض المتقين في تربية الناشئين، دار الكلمة - مصر، ط١(١٤٢١-٢٠٠٠) / ٣٢ - حنا خباز، جمهورية أفلاطون /٩٦، كانت: كتاب التربية /١٣.

[20] عبد البديع الخولي، الفكر التربوي العربي الإسلامي /٥٠٣ - وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣٢.

[21] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الولد و تقبيله و معانقته: ٤/ر٥٩٩٧/١٠٧٨.

[22] محمد حسين، تربية الأولاد في الإسلام /٣٥٧ - عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧ - وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣١ - فؤاد الهجرسي، رياض المتقين /٣٤ - رونيه أوبير، التربية العامة /١٠.

[23] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم : ١٤٠/١٦.

[24] أحمد الصاوي، بلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١(١٤١٥- ١٩٩٢):٢٥٤/٢ – أبي الحسن القابسي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق: أحمد خالد، ط١(١٩٨٦)، الشركة التونسية، ط١(١٩٨٦) /٩٤ - محمد أبي الدين بركات الشامي البقاعي، فيض الإله المالك في حل ألفاظ عمدة السالك وعدة الناسك، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط (١٣٧٤-١٩٥٥): ٢٢٣/٢.

[25] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الأرقم بن أبي الأرقم / ٤٢٠- عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧.

[26] جامع أحكام الصغار، محمد الحسين الأسروشنى الحنفي تحقيق: أبي مصعب البدري - محمود عبد المنعم، دار الفضيلة - القاهرة: ١٣٢/١ - مواهب الجليل للحطاب: ٤٩٨/٧ - المغني لابن قدامة: ٤٦/٨-٤٧ - تحرير المقال للهيثمي /٦٦.

[27] عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧، وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٢٩.

[28] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون / ٦٢٤، ابن سينا، كتاب التدبير / ٣٥.

[29] شحاتة حسن، الفكر التربوي العربي الإسلامي /٩٠٦ - عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧ - وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣٤.

[30] عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد: ٤٩٩/١ - عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر - دمشق، ط٢(١٤٠٣-١٩٨٣) /٢٥٦ - محمد عز الدين، تربية الولد عند الغزالي، مطبعة الترقي - دمشق، ط (١٣٨٣-١٩٦٣) /٢٣- كانت: كتاب التربية /١٠٠.

[31] وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٣٢، كانت: كتاب التربية /١٠٠.

[32] الغزالي، إحياء علوم الدين: ٩٣/٢ - عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها /٢٥٦ - جون ديوي، الديمقراطية والتربية /١٩، كانت: كتاب التربية /٦١ - فليكس توماس، التربية في العائلة /٣٧.

[33] الغزالي، إحياء علوم الدين: ٩٣/٢ - عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها /٢٥٦ - جون ديوي، الديمقراطية والتربية /١٩، كانت: كتاب التربية /٦١ - فليكس توماس، التربية في العائلة /٣٧.

[34] الغزالي، إحياء علوم الدين: ٩٣/٢ - باسم حوا مده، تربية الأطفال في الإسلام دار جرير - عمّان، ط١ (١٤٢٦-٢٠٠٥) /١٠٣ - كانت: كتاب التربية /٦١.

[35] ابن سينا، كتاب التدبير /٣١.

[36] صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة: ١٦٣/١٧.

[37] الزبيدي، تاج العروس: ٤٤٣/٨ - أبو يحيى زكريا الأنصاري، اللؤلؤ النظيم في روم التعليم والتعلم، مطبعة

الموسوعات – مصر / ٢٢.

[38] ابن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان /١٣٤، ١٣٥، ١٣٦– الغزالي، إحياء علوم الدين: ٨٩/٢ – جون ديوي، الديمقراطية والتربية /٤٩ روسو، إميل /٢٧ – أرسطو، السياسة /٢٩٢ – برسيس، تدبير الرجل منزله /١٩

[39] أخرجه الترمذي، كتاب الصلاة، باب: متى يؤمر الصبي بالصلاة: ٢/ر١٢٦/٤٠٧، وقال: حديث حسن صحيح.

[40] جون ديوي، الديمقراطية والتربية / ١٣٣.

[41] سعيد علي، أصول الفقه التربوي الإسلامي، دار الفكر العربي – القاهرة، ط١(١٤٢٣-٢٠٠٢) /٤٤١، محمد العطاران، تربية الطفل وفقا لآراء ابن سينا والغزالي والطوسي، الدار الإسلامية – بيروت، ط١(١٤٢٢-٢٠٠١)/ ٧٥.

[42] الأبراشي، التربية الإسلامية /١١٠ – محمد عطية الإبراشي، لاتجاهات الحديثة في التربية، دار إحياء الكتب العربية، ط٧(١٣٦٢– ٩٤٣) /٣٦٢ – ابن سينا، كتاب التدبير / ٣٥ – كانت: كتاب التربية /١١.

[43] التدبير، ابن سينا / ٣٥ – التربية، كانت /١١.

[44] عبد الرحمن البابطين، أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، دار القاسم – الرياض – ط١(١٤١٦) /٣٥

[45] المقدسي، الآداب الشرعية، تحقيق: شعيب ارناؤوط – عمر القيام، مؤسسة الرسالة – بيروت:، ط٣(١٤١٩-١٩٩٩) ١٧٦/٢– القابسي، الرسالة المفصلة /١٣٣– ابن مسكويه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطاب، مكتبة الثقافة الدينية، ط١/٦٩ – أحمد شلبي، التربية الإسلامية، نظمها، فلسفتها، تاريخها، مكتبة النهضة المصرية، ط٧(١٩٨٢) /٢٧٤.

[46] محمد سويد، منهج التربية النبوية للطفل: ١٤٦/١.

[47] صحيح البخاري: كتاب الدعوات، باب: دعوة النبي ﷺ لخادمه: ٤/ر٦٣٤٤/١١٣١.

[48] ابن سينا، كتاب التدبير /٢٧ – القابسي، الرسالة المفصلة /١٢٩ – محمد بن محمد الخادمي بريقة محمودية، وبهامشه الوسيلة الأحمدية والذريعة السرمدية في شرح الطريقة المحمدية، مطبعة مصطفى البابي – مصر، ط (١٣٤٨): ١٥١/٤– ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق /٦٩ عزت حسين النظرية العامة للعقوبة والتدابير الاحترازية بين الشريعة والقانون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط (١٩٨٨) /١٣٥.

[49] بلغة السالك للصاوي: ٢٥٤/٢ – الرسالة المفصلة للقابسي / ١٢٩– المجموع للنووي: ٤٢٤/٨ – التربية في السيرة النبوية، أبو لبابه حسين /٦٢– الإرشاد النفسي، محمد شحيمي /٢٠٥.

[50] أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن: ٤/ر٦٠٤٦ /١٠٨٤.

[51] أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب: حديث جابر الطويل: ١٣٩/١٨.

[52] المدخل لابن الحاج: ٢٩٧/٤ – بريقة محمودية للخادمي: ١١٥/٤ – تهذيب الأخلاق لمسكويه /١٥٩ – إحياء علوم الدين للغزالي: ٩٠/٢ – الأخلاق والسير لابن حزم /٤٦.

[53] توجيه المعلم، مقداد يالجن /٨٨، وينظر: الرسالة المفصلة للقابسي /٤٤ – أصول الفقه التربوي الإسلامي، سعيد علي /٤٣٢ – التربية في الإسلام، عدنان علي النحوي، دار النحوي، ط١(١٤٢٠-٢٠٠٠) /٢٢٦– التربية ودورها في تشكيل السلوك، مصطفى الطحان، دار المعرفة – بيروت، ط١(١٤٢٧-٢٠٠٦) /٢٦٨ – الموسوعة النفسية، محمد الحنفي، مكتبة مدبولي – مصر، ط١(١٩٩٥) /١٧٣.

[54] النظام الداخلي /١١ – الموسوعة النفسية، محمد الحنفي / ١٧١.

[55] محمد العمايرة، المشكلات الصفية/٢٣– علم النفس العقابي، كمال الدسوقي/١٣٠– التربية الإسلامية، أحمد شلبي /٢٧٤.

[56] الأسرة والمدرسة والمعلم، كلير فهيم، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط١(١٤٢٥– ٢٠٠٤) /١٠

[57] تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال، كونستاين فوستر، ترجمة: خليل إبراهيم، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة /٦٩.

[58] اتجاهات حديثة في التربية للإبراشي /٣١٥.

[59] أساليب التربية، عبد الرحمن البابطين /٦٤، وينظر: سياسة الصبيان لابن الجزار /١٣٨، التدبير ابن سينا /٣٥.

[60] شرح فتح القدير لابن همام، دار إحياء التراث العربي - بيروت: ٩٩/٤- تبين الحقائق للزيلعي، المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، ط١(١٣١٥) : ١٧٥/٣- المشكلات الصفية، محمد العمايرة /٣٦.

[61] النووي، المجموع: ١٣٨/١٨- وينظر: أحمد الصاوي، بلغة السالك: ٤٠٧/١ – ابن عابدين، رد المحتار: ٥/ ٣٦٣ - الهيتمي، تحرير المقال /٧٣ – ابن قدامة، المغني: ٧٤٤/٩.

[62] ابن عرفة، حاشية الدسوقي: ٣٥٤/٤ – ابن عابدين، رد المحتار: ٣٦٣/٥ – أبي اسحق الشيرازي، المهذب في فقه الإمام الشافعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١(١٤١٤-١٩٩٤): ٨٩/٢ - كشاف القناع للبهوتي: ١٨٤/٤ - شرح النووي بصحيح مسلم: ١٦٥/١٦ - تحرير المقال للهيتمي /٧٣ - الرسالة المفصلة للقابسي /١٧٠، ١٧١ - عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة - بيروت، ط٢(١٤٠١ – ١٩٨١) /١٠٤ - أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، دار المعارف - مصر: ٣٢١/١.

[63] الرسالة المفصلة للقابسي /١٧٠، ١٧١ - كشاف القناع للبهوتي:١٨٥/٤ - تحرير المقال للهيتمي / ٧٣ - نهاية الرتبة للشيزري، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة - بيروت، ط٢(١٤٠١ – ١٩٨١) /١٠٤ - التربية في الإسلام، احمد فؤاد الأهواني، دار المعارف – مصر: ٣٢١/١ - التربية الإسلامية وتحديات العصر /٥٠٩.

[64] القابسي، الرسالة المفصلة: ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠ - الهيتمي، تحرير المقال /٧٦.

[65] تحرير المقال للهيتمي /٧٢ - الرسالة المفصلة للقابسي /١٢٨- علم النفس العقابي، كمال الدسوقي /٥٠- تربية الطفل، محمد العطاران /٩٦ - فن تربية الأولاد، محمد مرسي /١١.

[66] تحرير المقال للهيتمي /٧٢ - فن تربية الأولاد، محمد مرسي /١١٣- الرسالة المفصلة للقابسي /٣٥.

[67] بلغة السالك للصاوي:٤٠٧/١ - حاشية إعانة الطالبين للسيد البكري: ٤٢٨/٣ - مغني المحتاج للشربيني: ٢٦٠/٣ - تحرير المقال للهيتمي /٧٢ - علم النفس العقابي، كمال الدسوقي /١٠٥- التربية الإسلامية، الأبراشي/١٤٢- فن تربية الأولاد، محمد مرسي /١١٤.

[68] المجموع للنووي: ١٣٨/١٨- كفاية الأخيار للحسيني /٣٥٣ - المغني لابن قدامة: ٧٤٤/٩- الرسالة المفصلة للقابسي /٣٥ - أطفال المسلمين، جمال عبد الرحمن، دار طيبة الخضراء - مكة، ط٧(١٤٢٥- ٢٠٠٤) /٩٥ - التربية الإسلامية وفلاسفتها /١٤٦.

[69] الرسالة المفصلة للقابسي /٣٣ - أطفال المسلمين، جمال عبد الرحمن /٩٩ - التربية في السنة النبوية، أبو لبانة حسين / ٦٣- فن تربية الأولاد، محمد مرسي /١١٤.

[70] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول النبي ﷺ "يسّروا ولا تعسروا": ٤/ر٦١٢٦/١٠٩٦.

[71] نجاح محرز، أساليب المعاملة الوالدية /٢٦

[72] جمال عبد الرحمن، أطفال المسلمين /١٠٠.

[73] نجاح محرز، أساليب المعاملة الوالدية /٩٥.

[74] الأبراشي، التربية الإسلامية /٢٥٨.

[75] مقدمة ابن خلدون: ٣٥٦/٢، تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال، كونستاين فوستير، ترجمة: خليل إبراهيم، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة /٦٦،٧٠- الديمقراطية والتربية، جون ديوي، ترجمة: منى العقراوي - زكريا ميخائيل، ط (١٣٦٥-١٩٤٦)، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة /٥٤.

[76] جمال عبد الرحمن، أطفال المسلمين /١٠٠.

[77] غادة مراد، الطفل السوري والقانون / ١٤، ٢٥.

[78] جمال عبد الرحمن، أطفال المسلمين /٩٥ – كمال دسوقي، علم النفس العقابي/ ١٢٦ - مقداد يالجن، توجيه

المعلم / ٨٧ -حسام خزعل، أثر أساليب التنشئة الاجتماعية الأسرية لطلاب المرحلة الإعدادية في تحصيلهم الدراسي /٤٨.

[79] إجلال حلمي، العنف الأسري، دار قباء، ط (١٩٩٩)/٧ - إيلي بيوبرغر، إساءة معاملة الأطفال، ترجمة أحمد رمو، وزارة الثقافة دمشق، ط (١٩٩٧)/ ٢٠٦، مالا برهوم، الأخلاق وإشكاليتا الديمقراطية والعدالة الاجتماعية في الفكر العربي المعاصر، دمشق، ط (٢٠٠٢)/١٤٠.

[80] سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة الصبيان: ٤/ر٣٢١/١٩١٩، وقال: حديث غريب - أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة: ٥/ر١٤٧/٤٩٤٣.

[81] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الولد و تقبيله و معانقته: ٤/ر١٠٧٨/٥٩٩٧.

[82] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب: فضل الرفق: ١٤٦/١٦.

[83] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في الرفق: ٤/ر٣٦٧/٢٠١٣، وقال: حديث حسن صحيح - وأخرج نحوه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب: فضل الرفق: ١٤٦/١٦.

[84] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب: فضل الرفق: ١٤٦/١٦.

[85] حياء علوم الدين للغزالي: ٢٣٤/٣، وينظر: بريقة محمودية للخادمي: ٣/ ٢٥٣، الفواكه الدواني للنفراوي:٣٥/١.

[86] إحياء علوم الدين للغزالي:٢٠٩/٣-٢١٠-٢١٣-٢٢٧ -٢٣٢، وينظر: اللؤلؤ النظيم في روم التعليم والتعلم أبو يحيى زكريا الأنصاري /٢٣، بدائع السلك لابن الأزرق:٤٦١/١ - العنف ضد الزوجة، أمل العواودة /٢٣

[87] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب: ١٠٩٤/٦١١٤/٤.

[88] الإبراشي، اتجاهات حديثة في التربية /٣١٥.

[89] أخرجه مسلم، كتاب الهبات، باب: كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة: ٦٥/١١.

[90] أخرجه مسلم، كتاب الهبات، باب: كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة: ٦٧/١١.

[91] النووي، شرح صحيح مسلم: ٦٧/١١.

[92] بلغة السالك للصاوي: ٢٥٤/٢ - الرسالة المفصلة للقابسي / ١٢٩- المجموع للنووي: ٤٢٤/٨ - التربية في السيرة النبوية، أبو لبابه حسين، دار اللواء - الرياض /٦٢- الإرشاد النفسي، محمد شحيمي /٢٠٥.

[93] تهذيب الأخلاق لمسكويه /٦٩ - التربية في العائلة، فيلكس توماس /٦٤.

[94] أخرجه البخاري في كتاب الأدب.

[95] تربية الأولاد والناشئة في زمننا المعاصر، يوسف بديوي، ط١ (١٤٢٢- ٢٠٠١)، دار الفجر- دمشق/٧٦.

[96] نجاح محرز، أساليب المعاملة الوالدية /١٤٢ – أحمد بديوي، الثواب والعقاب واشره في تربية الأولاد /٥٤.

[97] بدائع السلك في طبائع الملك، لأبي عبد الله بن الأزرق، تحقيق: علي النشار، ط١(١٤٢٧-٢٠٠٦)، الدار العربية للموسوعات - لبنان: ١٢٥/١، وينظر: الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، محي الدين ابن عربي، ط١(١٤١٨-١٩٩٨)، دار إحياء التراث العربي - بيروت:١/ ٨٨٢.

[98] الإساءة للطفل، ديفيد وولف، ترجمة جمعة يوسف، ط١(٢٠٠٥)، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة /٥٦ كتاب التربية، كانت /٣٩.

[99] الغزالي، إحياء علوم الدين: ٩٣/٢ - عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها /٢٥٦.

[100] جمال عبد الرحمن، أطفال المسلمين كيف رباهم النبي ﷺ، دار طيبة الخضراء - مكة، ط٧(١٤٢٥- ٢٠٠٤) /٦٧.

[101] ابن سينا، كتاب التدبير /٣٥- ابن الجزار، سياسة الصبيان /١٣٨- سعيد علي، أصول الفقه التربوي الإسلامي /٤٣٢ - عبد الرحمن البابطين، أساليب التربية /٤٠- محمد حسين، تربية الأولاد /٧١.

[102] الغزالي، إحياء علوم الدين: ٩٣/٢، كانت: كتاب التربية /٦١ - باسم حوا مده، تربية الأطفال في الإسلام دار

جرير – عمّان، ط١(١٤٢٦-٢٠٠٥) /١٠٣.

[103] عبد الرحمن البابطين، أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، دار القاسم – الرياض – ط١(١٤١٦) /٣٥

[104] القابسي، الرسالة المفصلة /٤٤ – سعيد علي، أصول الفقه التربوي الإسلامي/٤٣٢ – محمد حسين، تربية الأولاد في الإسلام /٧٥ – عدنان علي النحوي، التربية في الإسلام، دار النحوي، ط١(١٤٢٠-٢٠٠٠) /٢٢٦- مصطفى الطحان، التربية ودورها في تشكيل السلوك، دار المعرفة – بيروت، ط١(١٤٢٧-٢٠٠٦) /٢٦٨ – محمد الحنفي، الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولي – مصر، ط١(١٩٩٥) /١٧٣ – سوكولي، تأديب الأولاد المشاغبين، ترجمة زينة إدريس، الدار العربية – بيروت، ط١(١٤٢٩-٢٠٠٨)/٩٤.

[105] كمال الدسوقي، علم النفس العقابي أصوله وتطبيقاته، دار المعارف – مصر /١٢٦- محمد العمايرة، المشكلات الصفية، دار المسيرة – الأردن، ط١(٢٠٠٢-١٤٢٣) /٢٢ – عدنان علي النحوي، التربية في الإسلام /٢٢٦.

[106] محمد رشاد خليل، علم النفس الإسلامي العام والتربوي، دار القلم – الكويت، ط١(١٤٠٧-١٩٨٧) /١٨٢ – محمد عبد الرحيم عدس المعلم الفاعل والتدريس الفعال، دار الفكر – عمان، ط١(١٤٢١-٢٠٠٠) /٢٤٩

[107] كونستاين فوستر، تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال، ترجمة: خليل إبراهيم، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة /٦٩.

[108] النووي، المجموع: ١٣٨/١٨- وينظر: أحمد الصاوي، بلغة السالك: ٤٠٧/١ – ابن عابدين، رد المحتار: ٥/ ٣٦٣ – الهيتمي، تحرير المقال /٧٣ – ابن قدامة، المغني: ٧٤٤/٩.

[109] سعيد علي، أصول الفقه التربوي الإسلامي، دار الفكر العربي – القاهرة، ط١(١٤٢٣-٢٠٠٢) /٤٤١، محمد العطاران، تربية الطفل وفقا لآراء ابن سينا والغزالي والطوسي، الدار الإسلامية – بيروت، ط١(١٤٢٢-٢٠٠١) / ٧٥.

[110] عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، ط١٩٨٩، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية: ١٤٧/١- وهبة الزحيلي، الأسرة المسلمة /٢٧ – عدنان زرزور، الأخلاق /٧٧.

ملف العدد

القرآن العظيم مصدراً للتربية السلوكية عند بديع الزمان النورسي

أ.د. فريد الأنصاري*

[وفاء لمن نذر حياته لخدمة الدين والأمة، الرجل الذي كان فريدا في بذله وعطائه ونصحه وحرقته على حاضر الأمة ومستقبلها، ننشر دراسته التي شاركنا بها في مؤتمر علمي عقد بالمغرب وبالتحديد في أكادير، وقد غادرنا الأستاذ الشيخ فريد الأنصاري إلى عالم الخلد رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه بتاريخ ١٧ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ الموافق لـ ٥ من نوفمبر ٢٠٠٩م.]

١ - مفهوم القرآن في اللغة:

تكاد تجمع معاجم اللغة على أن الأصل الدلالي لمادتي: ''قرأ'' و ''قري'' إنما هو معنى الجمع والإجتماع، وما تفرع عنه. سواء همزت آخره أم لم تهمزه، فهو في ذلك سواء. ومنه سمي ''القرآن'' قرآنا؛ لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص والعبر، أو لاجتماع آيه وسوره وتألفها. قال ابن فارس: ''القاف والراء والحرف المعتل: أصل صحيح يدل على جمع واجتماع. من ذلك القرية؛ سميت قرية لاجتماع الناس فيها. ويقولون: قَرَيْتُ الماءَ في المقراة: جمعته (...) وإذا هُمِز هذا الباب كان هو والأول سواء (...) قالوا: ومنه القرآن، كأنه سمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.''[1]

وقال صاحب مختار الصحاح: ''قرأ الكتابَ قراءة وقُرآنا بالضم. وقرأ الشيء قُرآنا بالضم أيضا: جمعه وضمه. ومنه سمي 'القرآنُ'؛ لأنه يجمع السور ويضمها.''[2]

وذلك ما نجده لدى ابن منظور، رغم ما أورده من كثرة الإستعمالات للمادة اللغوية، ودلالاتها. قال رحمه الله: ''قَرَأَهُ يَقْرَؤُه ويَقْرُؤُه (...) قَرْءاً وقِراءَةً وقُرْآنا (...) يسمى كلام الله تعالى الذي أنزل على نبيه ﷺ كتابا وقرآنا وفرقانا. ومعنى القرآن: معنى الجمع. وسمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾القيامة:١٧ أي جمعه وقراءته. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾القيامة:١٨ أي قراءته (...) وقال بعضهم: قرأتُ: تفقهتُ. ويقال: أَقْرَتُ في الشعر، وهذا الشعر على قَرْء هذا الشعر: أي على طريقته ومثاله (...) والقَرْءُ: الوقت. قال الشاعر:

إذا ما السماء لم تَغِمْ ثم أخْلَفَتْ قُروءَ الثُّريَّا أنْ يكون لها قَطْرُ.''

يريد وقت نوئها الذي يمطر فيه الناس.

''... والقَرْء والقُرْء: الحيض، والطهر ضد. وذلك أن القرء الوقت، فقد يكون للحيض والطهر.''[3]

وربما كان الأصل -من حيث الوضع اللغوي- لمادة ''قرأ'' دالا على الجمع، فكانت ''القراءة'' -بمعنى: تلاوة الحروف- من فروعه، من حيث إن القارئ يجمع الحروف ويضم بعضها إلى بعض عند التلاوة؛ إلا أن الإشكال هنا هو: هل إسم ''القرآن'' من الجمع بمعنى الوضع الأول، أم بمعنى القراءة والتلاوة التي هي فرع إستعمالي؟

فرغم أن أغلب كتب اللغة -كما رأيت- مالت إلى ترجيح الأول فإن أبا جعفر الطبري (المتوفى سنة: ٣١٠ هـ) مال في تفسيره -وهو من الأصول اللغوية أيضا- إلى ترجيح الثاني. أي إن ''القرآن'' -عنده- إنما سمي كذلك؛ لأنه يقرأ بمعنى: يتلى، وليس بمعنى يُجمع. قال رحمه الله: ''فأما القرآن: فإن المفسرين اختلفوا في تأويله. والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس، من التلاوة والقراءة. وأن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت القرآن، كقولك الخسران من خسرت، والغفران من غفر الله لك (...) وأما على قول قتادة، فإن الواجب أن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض. كقولك ما قرأت هذه الناقة سلاً قط: تريد بذلك أنها لم تضم رحما على ولد (...)

ولكلا القولين، أعني قول ابن عباس وقول قتادة اللذين حكيناهما وجه صحيح في كلام العرب. غير أن أولى قوليهما بتأويل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا

قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾القيامة:١٧-١٨ قول ابن عباس؛ لأن الله جل ثناؤه أمر نبيه في غير آية من تنزيله باتباع ما أوحي إليه، ولم يرخص له في ترك اتباع شيء من أمره إلى وقت تأليفه القرآن!''[4]

والراجح -والله تعالى أعلم- أن يكون المعنيان معا مقصودين في دلالته اللغوية؛ وذلك بغض النظر عن خصوص دلالة آية سورة القيامة، مما أورده أبو جعفر رحمه الله، فلا يمنع ورود المعنى الجزئي أن يكون الكلي -وهو أشمل منه طبعا- مقصودا أيضا. فيكون ''القرآن'' قد سمي بذلك؛ لجمعه المعاني كلها. وهو معنى وجيه جدا. قال ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾الأنعام:٣٨ ولأنه مؤلف مجموع متناسق، ثم لأنه إنما أنزل ليقرأ ويتلى. وكل ذلك حسن جدا في معنى ''القرآن'' لغة. فلا تزاحم بين هذه المعاني جميعها، ولا تعارض.

وهذا ما يفهم أيضا مما أورده الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ) -من قبل- في كتابه القيم ''المفردات في غريب القرآن''. قال رحمه الله: القراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل (...) قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله: لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم! كما أشار إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ﴾يوسف:١١١ وقوله: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.النحل:٨٩'' [5]

ولعل هذا المسلك التوفيقي بين الدلالتين اللغويتين، هو الأقرب إلى تفسير بديع الزمان النورسي لمفهوم القرآن الكريم، من حيث هو اصطلاح، كما سترى بحول الله.

٢- مفهوم القرآن في الإصطلاح التربوي عند بديع الزمان النورسي:

هذا، وأما تعريف ''القرآن'' عند النورسي من حيث هو مصطلح، وُضِع للدلالة العَلَمية على ''كلام الله رب العالمين، المنزل على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر'' على حد تعبير علماء القرآن؛ فقد كانت له فيه صياغة لطيفة خاصة. إلا أنها كانت من مخاض المعاناة الوجدانية، والتجربة التفكرية.

فالنورسي رحمه الله ملمّ طبعا بتعريفات المفسرين وعلماء القرآن، لكنه لم يكن يقصد في بيان ''مفهوم القرآن''؛ إلى صياغة تعريف رسمي أو حدّي -على طريقة المناطقة- غايته حصر العقول في معنى ''القرآن'' من حيث هو ''مصحف مكتوب''، بما لا يدع مجالا للخلط بينه وبين غيره، أو تحريفه بالزيادة والنقصان، فتلك غاية

تكفل الله بها سبحانه، إذ قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.﴾الحجر:٩ وعلماء القرآن والمفسرون ثم حفاظ الأمة من ورائهم، هم الذين سخرهم الله ﷻ؛ لتنفيذ هذه المهمة العظيمة. إلا أن بديع الزمان ما كان يسعى إلى هذا، بقدر ما كان يسعى إلى محاولة تعريف ''القرآن'' من حيث هو ''كلام رب العالمين'' المتوجه برسالته إلى الإنسان حامل الأمانة! فكأنه رحمه الله كان يروم تعريف ''القرآن'' من حيث هو مضمون، ومقاصد، لا أحرف ورسوم. بمعنى أنه كان يحاول تعريف القرآن من حيث هو رسالة ربانية، تحدد غاية الوجود البشري في الكون، وتلخص قصة التكوين، وترسم للإنسان مدار فلكه الذي ينبغي له أن يسلكه إلى ربه.

وهنا مكمن الصعوبة، أو قل المغامرة؛ وذلك راجع إلى الطبيعة ''المطلقة'' لهذا المصطلح من جهة، فهو كلام الله ﷻ؛ وإلى كون الأستاذ إنما حاول تعريف ''القرآن'' عبر ''المشاهدة'' و ''التفكر الوجداني''. وهو مما يصعب -إن لم يستحل- نقل معانيه عن طريق اللغة الواصفة!

لقد تحاشى بديع الزمان -في تعريفه للقرآن- التعريف المنطقي التقليدي للمصطلحات والمفاهيم، من ''حدود'' و ''رسوم''، وجاء بتعريف ''ذوقي''، لا يطمع إلى الإحاطة بالمفهوم، إذ كلمات الله لا يحيط بها أحد، وإنما حاول خلاله ''تذويق'' المتذوقين: ''ما القرآن؟'' و ''الذوق'' لا يقع في العادة إلا على جزء. لكنه إذا كان ذوقا صحيحا أنبأك عن طبيعة الباقي على الجملة، وصور لك مخايل المعنى الكلي غيبا، وغمرك شوقا إلى تذوق الباقي. ومن هنا سمى النورسي ما صاغه من تعريف لمصطلح القرآن: ''لمعة من تعريف القرآن.''[6]

وبالرغم من أنه سماه ''لمعة''؛ إلا أنه لم يرد في جملة واحدة، أو جمل قصيرة على غرار التعريفات المنطقية القائمة على تحديد الفصول والخصائص. بل جاء في فقرات من البيانات الإشارية، والعبارات الذوقية؛ لأن النورسي رحمه الله كان يعلم، بل كان يشعر ''ويجد'' أنه بإزاء الحديث عن ''كلام الله!'' وكفى بذلك عظمة أن لا يحدث عنه الإنسان إلا رمزا! وأي عبارة في اللغة بإمكانها أن تحيط بحرارة الشوق، وأنوار المشاهدة، التي تتدفق على قلب المشاهد لجمال القرآن وجلاله؟ والنورسي شاعر بذلك، ومعتبر له في تعريفه. قال رحمه الله: ''إن الكلام الإلهي سبحانه لا نهاية له، وذلك بسر الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ اَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا.﴾الكهف:١٠٩'' [7]

ونحن هنا بحول الله نورد تعريفه أولا، ثم ندرسه؛ لبيان المقاصد التذويقية التربوية التي تضمنها، والفضاءات الوجدانية التي سبح فيها، وآثار ذلك كله على المتلقي مما هدف إليه النورسي وقصده في هذا التعريف.

قال رحمه الله:

"فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم... وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والإلتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة الرسائل."[8]

يتضمن هذا التعريف الهام ثلاثة مقاطع معنوية كبرى، كل مقطع منها مؤلف من إشارات تعريفية مختلفة، بيد أنها تشكل بمجموعها -ضمن كل مقطع- وحدة موضوعية متكاملة. وهذه الوحدات الثلاث، هي:

أولا: كونية القرآن الكريم. وتبتدئ من قوله في البداية: "هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات" إلى قوله: "وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه."

ثانيا: رسالية القرآن الكريم وغايته التعبدية. وتبتدئ من قوله بعد: ''وكذا هو مرب للعالم الإنساني'' إلى قوله: ''كذلك هو كتاب فكر.''

ثالثا: عرضه الكثرة من عين الوحدة. وتبتدئ من قوله ''وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة'' إلى قوله في نهاية التعريف: ''حتى كأنه مجموعة الرسائل.''

إلا أن هذه الوحدات الثلاث ناطقة جميعها بجملة واحدة، هي جوهر التعريف. وعنها صدر كل هذا التوصيف للقرآن الكريم. هذه الجملة هي: أن ''القرآن كلام الله رب العالمين.'' فهذه الجملة المعنوية الكبرى هي أم الوحدات الثلاث المذكورة. وإنما قال النورسي ما قاله فيها من عبارات تعريفية ذوقية؛ انبهارا بهذه الحقيقة الوجودية العظمى: ''كلام الله!'' وهو ما صرح به النورسي رحمه الله في مواطن عديدة من رسائل النور، كما سترى بحول الله.

فانضاف إلى الوحدات الثلاث المذكورة إذن؛ وحدة رابعة هي جماع المفهوم، وفص المصطلح المكنون بين جواهره ولآلئه. فلنتحدث عن كل ذلك، كما ورد في كلمات بديع الزمان ومواجيده الحَرى:

٢-١ القرآن كلام الله:

إن ما بهر النورسي من ذلك، وأفاض مشاعره؛ هو أن القضية هنا هي من العظمة والرهبة؛ بحيث يستحيل على القلب البشري تحمل مواجيدها! بدءا بالتفكر في هذا الكون الشاسع، الممتد في فضاءات لا يحدها بصر ولا تصور ولا خيال! وما يسبح في من نجوم وكواكب ومجرات وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية، وما يحيطها من سماوات بعضها فوق بعض، وما يعمرها من خلائق نورانية، مما لا يدرك له كنه، ولا صورة، إلى ما بين هذا وذاك، من طبقات الزمان المختلفة؛ عدا، وتقديرا، ونسبة، من الأيام والسنوات، قد يختزل اليوم الواحد منها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة:٥] إلى ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾![المعارج:٤] ورب هذه العوالم جميعها، الخالق لها، والمحيط بأزمنتها وأمكنتها كلها، المدبر شؤون حياتها ومماتها وأرزاقها، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد، المالك زمام أحوالها بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، سبحانه وتعالى! هذا الرب الرحمن الرحيم، والملك العظيم، المتنزه في مطلق علوه، وسموه، وجلاله، وكبريائه؛ يقَدّر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان، هذا المخلوق الضعيف الضئيل، القابع في الأرض هذا الكوكب الضئيل السابح في بحر عظيم زاخر بأمواج

السدم والمجرات، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم؛ أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم: القرآن الكريم!

فكيف للنسبي الفاني أن تتحمل مواجيده كلام المطلق الباقي؟ كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان، أن تستوعب خفقاته المعدودة، وأنفاسه المحدودة؛ وقع الكلام الخارق للزمان والمكان؟

تلك هي القضية المزلزلة للكيان الإنساني، في قلب الأستاذ الذواقة، بديع الزمان سعيد النورسي، والمفجرة لكل طاقاته الوجدانية، التي سطرها ألحانا وأنغاما في رسائل النور. فمن ذا قدير إذن؛ على وضع حد معرف، أو رسم شارح لـ ''مفهوم القرآن الكريم''؟ وما زعم النورسي أنه يعرف القرآن على سبيل ''الحد الجامع المانع'' بتعبير المناطقة، وما قدمه من تعريف؛ إنما هو فيض من أنوار قلبه، وما قلبه إلا قمر من الأقمار السيارة، العاكسة لأشعة الأسماء الحسنى! فأكرم بذلك مقاما للعارفين الصديقين! وأما كتاب الله فلا تحيط به حدود، ولا ترسمه تعريفات! وإنما غاية الأقمار السالكة في فلكه أن تقتبس منه ''لمعة من تعريف'' كما عبر النورسي من قبل.

قال رحمه الله في تعريف ملخص للتعريف السابق، وشارح له في الآن نفسه، ومبينا كيف أن مصدرية القرآن العليا، من حيث هو ''كلام الله''؛ قد رفعته فوق كل الحدود والرسوم: ''إن مَنْحَ القرآن الكريم أعلى مقام من بين الكلمات جميعا -تلك الكلمات التي لا تحدها حدود- مرده أن القرآن قد نزل من الإسم الأعظم، ومن أعظم مرتبة من مراتب كل إسم من الأسماء الحسنى. فهو كلام الله بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السماوات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجل الإلتفات والتكريم الرحماني، نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية (...) وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة. ولأجل هذه الأسرار أطلق على القرآن الكريم بما هو أهله ولائق به؛ إسم: 'كلام الله'!''[9]

إن حقيقة كون القرآن الكريم ''كلام الله رب العالمين'' تجعل المؤمن -إذ يقرؤه ويرتله أو يتدبره ويتدارسه- يَنشَدّ إلى أشعة الأسماء الحسنى، ويتعلق بأنوار الربوبية. وذلك من أعظم ما غمر قلب بديع الزمان، وصاغ معماره المنقوش بالمحبة المتوقدة!

ولذلك قلنا: إنه إنما انبهر بالقرآن من حيث هو خطاب رباني، وما فاض عنه من مواجيد مفهومية أو تفسيرية؛ إنما فاض من حيث تدبره لهذه الحقيقة العظمى التي لا تطاق! وذلك ما أشار إليه في النص السالف، وهو ما فتئ يكرره ويعيده، تماما كما يكرر المحب اسم محبوبه، بغير إرادة منه ولا اختيار. وذلك نحو قوله الذي يشبه نوعا من الإنجذاب: ''القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين.''[10] ربما يقول قائل: إن هذا الكلام بدهي! أي إن ''القرآن هو كلام رب العالمين''؛ كلا! إن النورسي لم يتكلم بعبارات وإنما تكلم بدلالات ومعان! وهي بكل تأكيد من غرائب الحقائق. فقوله هذا رحمه الله: ''القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين'' فيه دلالة واضحة على أنه ينبه إلى أمرين:

الأول: غفلة الناس عما بين أيديهم! فهذا القرآن مكتوب في المصاحف المنتشرة في كل مكان، وبين أيدي كل الناس. ولكن المشكلة أن آفة التعود قتلت حاسة التدبر والتفكر في الإنسان. فعميت البصائر أن ترى حقيقة القرآن الكريم الكونية، ومفهومه الرباني، رغم أنه بين أيديها!

الثاني: إثارة الإنتباه بهذا التعريف إلى أن الذي يجب أن نشهده في القرآن -بالقصد الأول- إنما هو الله رب العالمين، من حيث إنه هو سبحانه المتكلم به! وهذا أيضا مما طمسه التعود والجهل لدى الناس. فالنورسي في هذا الأمر هو أشبه برجل رأى آخر عثر على حجر من ذهب وهو لا يدري أنه من ذهب، فجعل هذا يستعمل الحجر لأمر وضيع، غير لائق بالذهب؛ بينما جعل العارف بالذهب يتأسف ويتحرق؛ أسى على تضييع ذلك الجاهل لما بين يديه من مال عظيم! ومن هنا صيحة النورسي وتنبيهه إلى عظمة ما بين أيدينا: ''إن القرآن الذي بين أيدينا...''

إن الوجدان الذي صدر عنه تعريف القرآن لدى النورسي هو وجدان منبهر بالربوبية العظمى! إن كل المسلمين يعرفون أو يقولون: ''إن القرآن هو كلام الله.'' ولكن قليلا منهم يستحضر في قوله هذا؛ أن الله ﷻ قد تكلم بهذا القرآن؛ من حيث هو ''رب العالمين''. إن ذلك يعني أن آفة التعود -كما ذكرنا- قد قتلت حاسة التدبر في الإنسان؛ ففقدت القلوب بذلك إحساسها بالقرآن العظيم، الذي لم تطقه حتى الجبال الشامخات، كما في قوله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ.﴾ الحشر:٢١

إن ههنا لدينا حقيقة مهمة في فهم خصوص مقصد بديع الزمان التعريفي هنا؛ وهي أن الهدف الأساس من تعريف الناس بالقرآن إنما هو تعريفهم بالله؛ ولذلك سلك إليه من باب الربوبية. وللربوبية ذوق خاص لديه رحمه الله، فهي تشير عنده إلى تجلى الأسماء الحسنى على الكون كله من حيث الخلق والقيومية، وما تعلق بهما من أسماء وصفات ربانية. فكل جزئية في الكون، وكل ذرة؛ من كل شيء إنما هي متعلقة بهذا الرب: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.﴾[الأنعام:١٠٢] وذلك بتعلقها باسمه الأعظم سبحانه، وأسمائه الحسنى، الناطقة بجلال ملكه، وشمول سلطانه. إن القرآن الكريم كمفهوم تعريفي لدى النورسي يقود إلى هذه الحقيقة الكبرى: معرفة الله تبارك وتعالى رب العالمين! وذلك عين الحقيقة الإصلاحية التي قام عليها مشروع النورسي الإصلاحي التجديدي، ومن أجلها، مشروع إنقاذ الإيمان وتجديده في المجتمع الإنساني، هذا المشروع الذي اعتمد فيه خاصة على تجديد الوعي ''بالقرآن'' بما ذكرنا من مواصفات مقاصدية، وهو أمر يصرح به النورسي بكل وضوح، وذلك قوله: ''الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.''[11] من هنا إذن كان اهتمامه بكتاب الله، ومن هنا أيضا كان منطلق تعريفه إياه.

يقول رحمه الله في تعريف آخر للقرآن الكريم، أوضح في الدلالة على خصوص انبهاره بجمال الربوبية وجلالها: ''إن القرآن كلام الله باعتبار أنه رب العالمين، وبعنوان إله العالمين، وباسم رب السماوات والأرضين، ومن جهة الربوبية المطلقة، ومن جهة السلطنة العامة، ومن جانب الرحمة الواسعة، ومن حيثية حشمة عظمة الألوهية، ومن محيط إسمه الأعظم إلى محاط عرشه الأعظم.''[12] ويتحدث عن ''مفهوم القرآن'' في سياق تجديد الوعي بمصدره الرباني. يقول: ''إن القرآن قد نزل من الإسم الأعظم، ومن أعظم مرتبة من مراتب كل إسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله، بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابُه بوصفه خالق السموات والأرض، وهو مكالمةٌ سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابُه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجلُ الالتفات والتكريم الرحماني، نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية، إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات. وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة. ولأجل هذه الأسرار أُطلق على القرآن الكريم ما هو أهله ولائق به؛ إسم: 'كلام الله!'.''[13]

إن هذا النص الفريد لدى النورسي ليؤكد أن الرجل كان أديبا! حقا بل شاعرا على طريقته النثرية المتدفقة... لقد كان ينصت إلى القرآن الكريم إنصات من يستحضر منازله العليا، وحركة الوحي وهي تعبر الكون العظيم، فتطوي طبقات السماوات طيا! لتغمر المكان والزمان بأنوارها! وتنشئ بعد ذلك حركة مباركة، تمتد في التاريخ البشري؛ عمرانا حضاريا، لا يفتأ يتجدد أبدا، ما دام لهذا القرآن مرتلون ومتدبرون!

إن ''مفهوم القرآن'' بهذا المعنى؛ يمتد عبر الكون كله؛ إنطلاقا من نور الإسم الأعظم؛ إلى صناعة التاريخ الإنساني في الأرض! ومن التكوين الأول إلى التكوين الثاني، أو من الدنيا إلى الآخرة! من هنا إذن؛ ما كان لبشر أن يحد القرآن، من حيث هو ''كلام رب العالمين''؛ إلا أن يجد ''لمعة من تعريف القرآن''. وإلا فإنه لا حد له إلا أن تقول: ''القرآن هو: القرآن''!

ومن هنا رفض الأستاذ النورسي أن يقبل بحث القرآن بحثا ''محايدا''، على طريقة المتغربين المخدوعين! إذ جزم أنه ''مفهوم'' عال علوا مطلقا، بحيث لا يقارن بغيره، ولا يصح افتراض أي وسط بينه وبين ما سواه. وأي محاولة لذلك تعتبر -عنده رحمه الله- خروجا عن منهج العلم الحق!

ومن أطرف ما ورد في ذلك من كلامه وأعجبه؛ قصة هي عبارة عن محاورة نفسانية، دارت على شكل مناظرة خفية، داخل خواطره؛ كان التناظر فيها دائرا بينه وبين الشيطان لعنه الله! ذلك أن إبليس اللعين حاول إقناعه باعتماد منهج ''حيادي'' في دراسة القرآن الكريم، أو على الأقل: منهج ''وسط''. فردّ النورسي ذلك كله بأدلته وحججه التي أثبتت أنه، لا يمكن تدبر القرآن إلا لمؤمن به، كما أنه لا وسط بينه وبين غيره، كما لا وسط بين الخالق والمخلوق، إذ الوجود: إما خالق أو مخلوق. ولا ثالث لهذين الاحتمالين!

ولقيمة القصة في توضيح ما نحن فيه، من دراسة مصطلحية، نوردها؛ لزيادة توضيح ''مفهوم القرآن''، أو ''ما القرآن؟'' لدى بديع الزمان. قال رحمه الله:

''كنت أنصت يوما إلى القرآن الكريم من حفاظ كرام في جامع بايزيد بإسطنبول، وذلك في أيام شهر رمضان المبارك، وإذا بي أسمع كأن صوتا معنويا صرف ذهني إليه، دون أن أرى شخصه بالذات، فأعرت له السمع خيالا، ووجدته يقول:

- إنك ترى القرآن ساميا جدا ولامعا جدا، فهلا نظرت إليه نظرة حيادية؟ ووازنته

بميزان محاكمة عقلية حيادية؟ أعني: إفرض القرآن قول بشر! ثم انظر إليه بعد هذا الفرض هل تجد فيه تلك المزايا والمحاسن؟

اغتررت به في الحقيقة، فافترضت القرآن قول بشر، ونظرت إليه من تلك الزاوية، وإذا بي أرى نفسي في ظلام دامس! فقد انطفأت أضواء القرآن الساطعة! وعم الظلام الأرجاء، كما يعم الجامع كله؛ إذا مس أحدهم مفتاح الكهرباء. فعلمت عندها أن المتكلم معي هو شيطان، يريد أن يوقعني في هاوية. فاستعصمت بالقرآن نفسه، وإذا بنور يقذفه الله في قلبي، أجد نفسي به قويا قادرا على الدفاع. وحينها بدأت المناظرة مع الشيطان على النحو الآتي:

قلت: أيها الشيطان! إن المحاكمة الحيادية، دون انحياز إلى أحد الطرفين: هي التزام موضع وسط بينهما، بيد أن المحاكمة الحيادية، التي تدعو إليها أنت وتلاميذك من الإنس؛ إنما هي التزام الطرف المخالف! فهي ليست حيادية، بل خروج عن الدين مؤقتا! ذلك لأن النظر إلى القرآن أنه كلام بشر، وإجراء محاكمة عقلية، في ضوء هذا الفرض؛ ما هو إلا اتخاذ الطرف المخالف أساسا، والتزام للباطل أصلا. وليس أمرا حياديا، بل هو انحياز للباطل وموالاة له.

فقال الشيطان: إفرضه كلاما وسطا، لا تقل إنه كلام الله، ولا كلام بشر!

قلت: وهذا أيضا لا يمكن أن يكون قطعا (...) فالقرآن الكريم متاع ثمين، وبضاعة سامية، ومال رفيع لله. والبعد بين الطرفين بعد مطلق، لا يحده حد! إذ هو البعد ما بين كلام رب العالمين وكلام البشر (...) لا وسط بينهم إطلاقا! لأنهما كالوجود والعدم، فلا وسط بينهما! ولهذا ينبغي أن يقبل الأمر هكذا، وسوق الأدلة في ضوئها أي أنه بيده سبحانه. إلا إذا استطاع الطرف الآخر دحض جميع البراهين المشيرة إلى أنه كلام الله، وتفنيدها الواحد تلو الآخر؛ عندئذ يمكنه أن يمد يده إليه، وإلا فلا!''[14]

إن قول بديع الزمان في هذا النص: ''فافترضت القرآن قول بشر، ونظرت إليه من تلك الزاوية، وإذا بي أرى نفسي في ظلام دامس! فقد انطفأت أضواء القرآن الساطعة! وعم الظلام الأرجاء، كما يعم الجامع كله؛ إذا مس أحدهم مفتاح الكهرباء'' هو كلام دال على أن المفهوم الحقيقي للقرآن قائم على معنى ''الإيمان''، والإيمان لا يصح وقوعه إلا بما هو غيب. فالمحسوسات تدرك بالحس والتجريب، والمعقولات تدرك بالعقل والإستدلال، بينما الغيبيات لا تدرك إلا بـ ''الإيمان'' القائم على الإذعان

والتسليم القلبي. وليس معنى هذا أن القرآن غير قابل للإثبات العقلي، كلا! وإنما المقصود أن له قوة جبارة، وإسنادا عظيما، ونورا خارقا، لكن لمن ''انتسب'' إليه، بالمعنى الاصطلاحي الخاص لمفهوم ''الإنتساب''. إن العبد ''المنتسب'' إلى القرآن المؤمن به هو ذو ''عقل مسدد''؛ ولذلك فهو يرى ما لا يراه صاحب ''العقل المجرد''! ومن هنا فإثبات المفهوم الرباني للقرآن سهل جدا على المؤمن؛ لما لديه من تسديد وتأييد، إذا استند إلى النور الكاشف عن الحقائق، التي تغيب عمن حبس بصره على المحسوسات القريبة، والمعقولات البسيطة!

ومن هنا أمكن للعبد المنتسب أن يحاجج، ويجادل، ويناظر؛ بقوة عشرات العقول! بينما لو افترض أنه لا يؤمن بهذا الكتاب، ولا بمصدريته الربانية؛ لخرج قلبه عن مداره الفلكي، حول نور الحق العظيم، ولفقد زاده الدائم من نور شمس الهداية؛ ولعكست مرآته ساعتها ظلمات الضلال! فكيف له إذن بإبصار الدليل؟

إن مفهوم القرآن مفهوم غيبي. والغيب قاض على عالم الشهادة، ومحيط به! وما كان للمحاط أن يكون أقوى من المحيط! ولذا فإن النورسي كان واضحا في اشتراط ''سلامة القلب'' على من قصد مشاهدة جمال القرآن. قال: ''لقد شاهدت أن مشاهدة جمال القرآن تابعة لدرجة سلامة القلب وصحته. فمريض القلب لا يشاهد إلا ما يشوه له مرضه! فأسلوب القرآن والقلب كلاهما مرآتان ينعكس كل واحد في الآخر.''[15]

هذا، وأما الوحدة الثانية من وحدات التعريف، المعتمد لديه لمفهوم ''القرآن'' فهي:

٢-٢: كونية القرآن الكريم:

وقد سبق القول: إنها تبتدئ من قوله في البداية: ''هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات'' إلى قوله: ''وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.''

إن معنى ''الكونية'' هو من لوازم الوحدة الأولى، أي كون القرآن ''كلام الله باعتباره رب العالمين''. فالربوبية قاضية على كل معاني الشمول والإمتلاك والسلطنة! ذلك أن ''القرآن'' من حيث هو كلام رب العالمين، متضمن لمعنى الربوبية، الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهرا. كما أن الكائنات -من خلاله- تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقها، منجذبة إلى نوره تعالى. ومن هنا كان القرآن وهو -خطاب إلى الإنسان- خطابا كونيا أيضا، لاسيما وأن ''الله سبحانه خلق الإنسان،

وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم.''[16] ثم إن القرآن فيه ''كل شيء'' ويتحدث عن ''كل شيء''!

ويمكن تفصيل ''كونية القرآن'' -من حيث هو مفهوم- فيما يلي:

أ - القرآن قراءة لكتاب الكون، وكشف لأسراره:

يقول النورسي: ''فكأن القرآن المنزل عليه ﷺ قراءة لآيات الكائنات.''[17] ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة. فهو يقدم الصعب المعقد تقديما سهلا ميسرا؛ ولذلك سهل على العامة؛ بل حتى على الأميين؛ (قراءة) مقاصده من خلال أبعاده الكونية؛ إذ يلفت الإنتباه إلى مظاهر الكون التي يبصرها كل ذي عينين؛ ليتفكر في خلق السماوات والأرض. كل على حسب طاقته، وسعة إدراكه، فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطابا لجميع الناس، بجميع مستوياتهم الثقافية، واختلافاتهم اللغوية والعرقية. وهو ضرب من ضروب الإعجاز. يقول بديع الزمان: ''أنظر إلى درجة رحمة القرآن الواسعة، وشفقته العظيمة على جمهور العوام، ومراعاته لبساطة أفكارهم، ونظرهم غير الثاقب إلى أمور دقيقة! أنظر كيف يكرر ويكثر الآيات الواضحة، المسطورة في جباه السماوات والأرض! فيقرئهم الحروف الكبيرة التي تُقرأ بكمال السهولة، كخلق السماوات والأرض، وأمثالها من الآيات، ولا يوجه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلا نادرا، كيلا يصعب الأمر عليهم. ثم أنظر إلى جزالة بيان القرآن وسلاسة أسلوبه وفطريته، كيف يتلو على الإنسان ما كتبته القدرة الإلهية، في صحائف الكائنات؛ من آيات؛ حتى كأن القرآن قراءة لما في كتاب الكائنات وأنظمتها، وتلاوة لشؤون بارئها المصور، وأفعاله الحكيمة. فإن شئت استمع بقلب شهيد لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾النبأ:١ و ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾آل عمران:٢٦ وأمثالهما من الآيات الكريمة.''[18]

ومن هنا كان القرآن بحق -كما قال النورسي- ''مفسر كتاب العالم، وحجة الله على الأنام.''[19] كل الأنام، عالمهم وجاهلهم، عربهم وعجمهم؛ لأن اللغة العربية ليست شرطا في قراءة الكون! فيكفي أن تفهم المعنى من القرآن الكريم أو بالأحرى بعضه، ولو مترجما لينطلق الفكر في ''القراءة'' للأحرف الكبيرة فما العالم كله إلا كتاب كبير.

ب - القرآن روح لحياة الكون:

ومعنى ذلك أنه ما دام المتكلم به هو الله رب العالمين -بالمعنى الذي ذكرنا- أي "خالق كل شيء" سبحانه؛ فإنه لا شيء إلا وهو راجع -في حقيقة وجوده- إلى حقائق القرآن الكريم الكونية. وإنما القرآن نور صادر من الرب العظيم الذي هو ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾النور:٣٥ وإذن؛ فلا شيء بعد نوره إلا الظلام، ولا شيء بعد وجوده إلا العدم! وإنما حقيقة المخلوقات أنها موجودة باسمه تعالى، أي: "بسم الله الرحمن الرحيم". فوجودها رهين بوجوده تعالى، وتجليها رهين بتجلي نوره سبحانه. فكان الكون بذاته دالا على "وجوب وجود" رب الكون العظيم.

وما علمنا ذلك كله إلا من خلال القرآن الكريم الذي هو كلام رب العالمين الخالق لكل شيء؛ إذن فالقرآن يمثل -من حيث حقائقه- حقائق الكون كله، بدءا بقصة الخلق إلى غاية الإعادة من يوم القيامة: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾الأنبياء:١٠٤ ثم البعث والنشور، فالمصير. فلو تصور عدم حقائق القرآن -وهو فرض محال- لاستحال تصور وجود العالم الكوني كله! ثم إن حقائق القرآن التي هي التفسير السليم لنظام الكون؛ هي وحدها القادرة على الحفاظ على ذلك النظام الكوني في العقل. ولو افترضنا تفسيرا غيرها؛ لعمت الفوضى تصورات العقول، ولاختل التوازن في الفكر، بتصورات لا يمكن إلا أن تؤدي في النهاية إلى افتراضات تفضي في المنطق العقلي إلى اختلال الكون كله في التصور. وهو محال. وبهذا المعنى كان القرآن عند النورسي "روح حياة الكون".

يقول بديع الزمان: "ما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة، وأن الحياة هي أعظم تجل، وأكمل نقش، وأجمل صنعة، 'للحي القيوم' ﷻ، وما دامت الحياة السرمدية الخالدة، تظهر وتكشف عن نفسها، بإرسال الرسل وإنزال الكتب (...) فلا بد أن الحياة التي في الكون كما أنها تدل -بصورة قاطعة- على 'الحي الأزلي' سبحانه وتعالى، وعلى وجوب وجوده؛ تدل كذلك على شعاعات تلك الحياة الأزلية وتجلياتها -مما له ارتباط وعلاقات معها- من أركان الإيمان، مثل 'إرسال الرسل' و 'إنزال الكتب'، وتثبتهما رمزا. ولا سيما 'الرسالة المحمدية' و 'الوحي القرآني'. إذ يصح القول: إنهما ثابتان قطعيان كقطعية ثبوت تلك الحياة، حيث إنهما بمثابة روح الحياة وعقلها (...) والوحي القرآني -بشهادة حقائقه الحيوية- روح لحياة الكون وعقل لشعوره.

أجل... أجل... أجل! فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره مات

الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون؛ جن جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزال عقلها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة!''[20] فقوله: ''إذا ما غاب القرآن وفارق الكون'' يعني: ''غابت حقائقه'' التي هي في الواقع ''حقائق الكون'' نفسه. إذ ثبت أنما القرآن قراءة لكتاب العالم، كما بيناه آنفا.

ج - القرآن محيط بمفهوم الزمان الكوني:

إذا كان القرآن كلام الله رب العالمين، فإنه صفة له سبحانه؛ لأن الكلام صفة للمتكلم. وقد علم أن الله ﷻ محيط بالزمان والمكان. تعالى الله أن يحكمه زمان أو مكان، بل هو الحاكم على الزمان والمكان. فهو فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، لأنه تعالى ''خالق كل شيء''. من هنا إذن كان القرآن محيطا بالزمان الكوني: الماضي والحاضر والمستقبل، ثم الزمان الأرضي، وهو الزمان بالتقدير البشري الدنيوي مما نعد به التاريخ والأعمار، والزمان المعراجي وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾،السجدة:٥ ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾المعارج:٤ والزمان العِنْدِيّ وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾الحج:٤٥ ثم الزمان الأخروي وهو الزمان الخالد الذي لا ينتهي، مما يكون بعد إعادة الخلق، حيث قيام يوم الدين، من بعث، وحشر، وحساب، وجنة ونار. فحديث القرآن عن ذلك كله حديث واحد، كأنه زمان واحد. ومن هنا كان محيطا بكل الزمان، مما ينتسب إلى عالم الغيب أو إلى عالم الشهادة. كل ذلك عنده سواء. ولذلك قال النورسي: ''فالقرآن إذاً كلام من ينظر إلى كل الأزمنة بما فيها من الأمور والأشياء في آن واحد.''[21] فإذا كان ذلك كله كما علمت، وكان القرآن -كما تبين- قراءة في كتاب الكون، فإن هذا الكون نفسه دال باللزوم على الآخرة.

قال بديع الزمان: ''فاعلم من هذا أن 'العدالة والإقتصاد والطهر' التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الإجتماعية، وما أشدها عراقة وأصالة. وأدركْ من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدت جذورا عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرى وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن فساد تلك الحقائق ممتنع كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به، وتشويه صورته.

ومثلما تستلزم هذه الحقائق المحيطة بالكون (...) فهناك حقائق محيطة معها، كالرحمة والعناية والرقابة، وأمثالها مئات من الحقائق المحيطة والأنوار العظيمة، تستلزم الحشر، وتقتضي الحياة الآخرة!''[22]

٢-٣: رسالية القرآن الكريم وغايته التعبدية:

وهي الوحدة الثالثة من وحدات التعريف المدروس. وقد سبق القول: إنها تبتدئ من قوله: ''وكذا هو مرب للعالم الإنساني'' إلى قوله: ''كذلك هو كتاب فكر''.

إن القرآن الكريم رسالة إلى العالم البشري من رب الكون.

وهذه الجملة كافية لبيان الدلالة المفهومية العظيمة للقرآن. ذلك أن الله تبارك وتعالى لم يكن يتكلم بالقرآن وكفى. ولكنه كان يخاطب به مخاطبا ما. ذلك المخاطب هو الإنسان. وهذه حقيقة من أعظم الحقائق التي قتلها (التعود) البشري الذي يطمس كثيرا من الحقائق العظيمة في هذا العالم. ولعل النورسي بتفكره وتدبره قد اهتز وجدانه لهذه الحقيقة الكبرى. فكان أن وجد نفسه منجرفا بشكل وجداني لخدمة هذا القرآن. ومن هنا انبنى مشروعه كله على هذا الهدف غاية ووسيلة. أي إنه جعل القرآن غايته وهو في الآن نفسه وسيلته. ومن هنا جاء في تعريف القرآن لديه، مما سبق ذكره: ''وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خُلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.''

فأنت ترى أن النورسي لم ينظر إلى القرآن - في جانبه التشريعي - على أنه مجرد مصدر من مصادر التشريع، أو المصدر الأول للتشريع وكفى! كما هو منصوص عليه في البحوث الأصولية والفقهية. بل لقد نظر إلى هذه الشريعة القرآنية على أنها تربية للعالم الإنساني، ونور له في عالم الظلمات، تهديه إلى منابع الخير والجمال، لتنتهي به إلى غاية الغايات: ألا وهي الوصول إلى الله. ومن هنا كان القرآن عنده ''معراجا'' للمؤمنين.

لقد كان انتباه النورسي إلى المعنى الرسالي للقرآن بابا فتح عليه من معاني النور مواجيد لا تنتهي لذاذاتها أبدا. وبهذا المنظار نظر إلى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ:

إنه رسول جاء بالقرآن! فأعظم به من رسول إذن! جاء يحمل هذا الكتاب الكوني العظيم إلى البشرية على أنه رسالة من رب الكون إليهم. قال بديع الزمان واصفا إياه بأنه: ''أعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم، وأداها أفضل أداء في أسمى مرتبة، وأبلغ صورة، وأحسن طراز، فلبى إرادة رب العالمين في صرف وجه هذا الإنسان من الكثرة إلى الوحدة، ومن الفاني إلى الباقي.''[23]

إن قيمة الرسالة -أي رسالة- تتحدد أولا وقبل أي شيء بقيمة مصدرها: أي معرفة من أرسلها؟ ومن هنا كان من فطرة الإنسان أن يبادر كلما تسلم رسالة بشرية إلى النظر في الغلاف؛ لمعرفة الجهة أو الشخص الذي أرسل إليه تلك الرسالة. وهناك يتحدد عنده الاهتمام أو عدمه، إذ يعرف ''مَن؟'' فيكترث ويهتم بقدر قيمة المرسل عنده. لقد انبهر بديع الزمان بالقرآن الكريم أشد انبهار. إذ وجد أن المرسِل هو الله رب العالمين! ولذا كان لا يفتأ يذكر هذا المعنى العظيم في كل مبحث من مباحث رسائل النور، لا يكاد يسكت عن ذلك، ولا قليلا!

فإذا تمت لديه عناصر ''الإرسالية'' عظم الشأن عنده أكثر، ووصل الإنبهار إلى غايته: وهي الإنخراط في سلك الخدمة والسير إلى الله على سبيل الإصلاح والتجديد، وإيقاظ همم الناس: كأنه انتفض ليقول لهم: أيها الناس إن هذا القرآن هو رسالة رب العالمين إليكم!

لقد أدرك بديع الزمان ''عناصر الإرسالية''. ذلك أن عناصر الإرسالية الأربعة تتحد بوجود المرسل، والمرسل إليه، والمضمون المرسل به، أو القصد، ثم المقام الشامل لظروف الرسالة. فالقرآن كلام رب العالمين هو، بذاته سبحانه المتكلم به؛ رسالة إلى الناس الحيارى -بدونه- في هذه الأرض. فهم إذن المخاطبون به. ولذلك جاء فيه أن هذا سبيل النجاة لكم أيها الحيارى! هذا كشف اللغز الكوني الرهيب! هذا بلسم الحيرة والقلق المحيط بالإنسان؛ من توقع الفناء والعدم. هذا بيان البدء والنشأة والمصير. هذه قصة الخلق كاملة ملخصة، بما لا يدع مجالا للشك، أو الحيرة، والتردد في الانطلاق سيرا إلى هذا الرب الرحمن الرحيم، الذي خلق ثم هدى! ذلك مضمون الرسالة. وأما مقامها فهذه الظروف البشرية الحياتية في الكرة الأرضية، وهذا السير البشري المتدفق في كل الإتجاهات؛ بحثا عن مخرج ما من ظلام لغز الحياة، وطلسم وجود الكائنات، وتناقض المذاهب والفلسفات!

في خضم كل ذلك جاء القرآن يحمل رسالة الهداية إلى الناس. إن بديع الزمان تحدث عن سر إعجاز القرآن فقال بكلمة موجزة، لكنها دالة حكيمة. قال رحمه الله: ''إعلم أن منابع علو طبقة الكلام، وقوته، وحسنه، وجماله؛ أربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط كما ضل فيه الأدباء! فانظر إلى من قال؟ ولمن قال؟ ولما قال؟ وفيما قال؟ فالكلام إن كان أمرا ونهيا فقد يتضمن الإرادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علويته وقوته!''[24]

إن المفهوم الرسالي للقرآن الكريم قائم أساسا على تبليغ مضمون ما للناس. ذلك المضمون هو الذي سماه بديع الزمان -في عدة مواطن من رسائل النور- بـ ''مقاصد القرآن الأربعة'' وهي: ''التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة''. قد تختلف عباراتها من نص إلى آخر، وقد تتفق، ولكن المضمون واحد. قال رحمه الله: ''إن المقاصد الأساسية من القرآن، وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة.''[25] وقال أيضا: ''فاعلم أن المقصد الأصلي في القرآن الكريم هو إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوة والحشر، والعدالة.''[26] ونحو هذا كثير.

إن الرسالة القرآنية قائمة على إثبات هذه المقاصد؛ لتكون هي أساس ''الوظيفة'' التي نزل القرآن الكريم من أجلها. أعني الهدف الأسمى الذي يمثل المفهوم الرسالي للقرآن الكريم. ذلك أن إثبات المقاصد الأربعة لم يكن من أجل إثباتها لذاتها؛ لأنها ثابتة بالأصالة عند الله ﷻ، وإنما كان الإثبات مقصودا من أجل أن يقوم الإنسان بوظيفة العبودية لله الواحد القهار، ويؤدي خدمته التي أنيطت به في هذا الكون، ألا وهي التعلق بأنوار الأسماء الحسنى، والإنتساب إلى دائرة الربوبية من خلال دائرة العبودية؛ ومن هنا كانت ''رسالة القرآن'' هي تعليم الناس شؤون الدائرتين. يقول بديع الزمان: ''الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.''[27] وبهذا المعنى كان القرآن الكريم هو ''المعراج'' التعبدي للعبد السائر إلى الله. ذلك أن الدخول إلى ''الحقيقة'' من باب خدمة القرآن والإشتغال به؛ هو ''المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الإستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!''[28]

٢-٤: عرضه الكثرة من عين الوحدة:

إن القرآن الكريم بمفهومه الكوني قائم على مبدأ التوحيد، الذي يقوم بدوره على تفسير الكثرة القائمة في الكون بإرجاعها إلى الوحدة. فما دام الله رب العالمين هو سبحانه وتعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٤١] فإن ''كل شيء'' خاضع له ﷻ -طوعا أو كرها- وشاهد له بالوحدانية. إذ لا حياة، ولا بقاء، ولا كينونة؛ لأي شيء؛ إلا بمقدار ما يعكس من أنوار الأسماء الحسنى.

ومن مقتضيات هذا المفهوم أيضا: أن الرسائل السماوية جميعها، والأنبياء كلهم؛ إنما هم لوظيفة واحدة، ورسالة واحدة، لخصها القرآن جميعها في أسلوب واحد!

وقد سبق قول النورسي في تعريفه المذكور للقرآن: ''كما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة الرسائل.''

وهو دال بذلك على أن القرآن الكريم قد يحتوي على كل فضائل الكتب السماوية السابقة ويزيد عليها. فهو جامع لها جميعا، ومضيف إليها فوائد مما لم يرد بها؛ حتى لكأنه مجموعة من الكتب لا كتاب واحد! وذلك من نعم الله الكريم على هذه الأمة؛ حتى يتسنى لكل إنسان أن يسلك إلى ربه، حسب مؤهلاته الفطرية، ومواهبه الجبلية. فرب شخص تميل به فطرته إلى الزهد والتقلل، ورب آخر يميل إلى الإستدلال العقلي، وآخر إلى التفكر والتدبر، وآخر إلى التفقه والتعلم، والبحث في دلائل الإعجاز... إلخ. وكلها طرق موصلة عبر القرآن الكريم إلى الله. ولذلك كان جامعا لها جميعا من حيث الإمكانات التي يتيحها للإنسان في سيره إلى الله. ومن ألطف ما ورد لدى النورسي من التعبير عن ذلك قوله:

''إن الجهات الست للقرآن الكريم منورة وضاءة، لا تدنو منها الشبهات والأوهام؛ لأن:

من ورائه العرش الأعظم يستند إليه، فهناك نور الوحي.

وبين يديه سعادة الدارين، يستهدفها، فقد امتدت ارتباطاته وعلاقاته بالأبد والآخرة. فهناك نور الجنة ونور السعادة.

ومن فوقه تتلألأ آية الإعجاز وتسطع طغراؤه.

ومن تحته أعمدة البراهين الرصينة والدلائل الدامغة، ففيها الهداية المحضة.

وعن يمينه يقف استنطاق العقول وتصديقها، لكثرة ما فيه ﴿أفلا يعقلون﴾.

وعن يساره استشهاد الوجدان؛ حتى ينطق من إعجابه: 'تبارك الله' بما ينفخ من نفحات روحية للقلب.''[29]

ولذلك قال في موطن آخر: ''للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة وعديدة. ومورد جميع الطرق الحقة، ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم.''[30]

وقد ثبت في القرآن نفسه أنه جامع للكتب السماوية السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[الأعلى:١٨-١٩] وكما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[النمل:٧٦-٧٧] وقد فصل هذا المعنى العجيب حديثٌ نبوي شريف، تشد إليه الرحال! قال ﷺ: ''أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصل!''[31]

ومن هنا اعتبار النورسي القرآن أنه ملخص للكتب السابقة. قال في أحد ابتهالاته: ''لا آية من آيات التوحيد القاطعة للقرآن، المعجز البيان، الذي يلخص جميع الكتب المقدسة الحقة، ولا مسألة من مسائله القدسية؛ إلا وتشهد شهادة، وتملك دلالة، وتعرض إشارة؛ على وجوب وجودك، وعلى صفاتك المقدسة!''[32]

ثم إن عرض الكثرة من خلال الوحدة بعد ذلك؛ لا يتجلى في كون القرآن -وهو كتاب واحد- يتضمن عدة كتب ورسائل فحسب؛ كلا بل يتعداه إلى عرض الكثرة الكونية من خلال الوحدة الخَلْقية، كما أشرنا قبل. ومن هنا كان مفهوم القرآن واحدا وهو كثير! أو كان كثيرا وهو واحد! وبيان ذلك أن الناظر في الكثرة التي تطبع الكون والتنوع الذي يميز عناصره المختلفة، قد يتيه في تتبع ذلك، وقد يضل عن تبين الحقيقة، إذ يغرق في الكثرة ولا يجد منها سبيلا إلى الحقيقة الواحدة غير المتعددة. فربما أشرك وألّه الأشياء، وربما جحد وألحد في آيات الله. بينما المؤمن إذ يقرأ القرآن إنما يقرأ بذلك آيات الله في الكون، فأحرف القرآن الصغيرة قراءة لأحرف الكون الكبيرة، كما سبق قول بديع الزمان. والقرآن هادي العباد إلى ''نقطة الإستناد'' الوحيدة في هذا العالم. ألا وهي تفرد الخالق ﷻ بطغراء واحدة، مسكوكة على سائر مخلوقاته،

لا يدركها حق الإدارك إلا من سلك طريق القرآن، الذي يعرض هذه الكثرة من خلال هذه الطغراء الواحدة.

يقول بديع الزمان: ''إن القرآن الكريم يفوض أمر المخلوقات غير المحدودة إلى الصانع الواحد، ويسند إليه كل شيء مباشرة، فيسلك طريقا سهلا بدرجة الوجوب، ويدعو إليها، وكذلك يفعل المؤمنون.''[33] وذلك يكون بالجمع بين مفهومين عظيمين من مفاهيم التوحيد لدى النورسي، ألا وهما: ''الواحدية'' و ''الأحدية''.

إن القرآن الكريم إذ يجمع بين مفهومي ''الواحدية'' و ''الأحدية'' يقود الإنسان من خلال الكثرة إلى الوحدة، وإلى مشاهدة الخالق جل وعلا في جمال صنعه، وكمال إبداعه. وقد بينا في دراسة مصطلح ''التوحيد'' لدى النورسي؛ أن الفرق بين الواحدية والأحدية راجع إلى كون ''الواحدية: هي صفة الله تعالى في وحدانيته، وتفرده في ذاته، بغض النظر عن شهادة خلقه له. وهذا المعنى راجع إلى التصور الذهني للتوحيد.

أما 'الأحدية': فهي مشاهدة ذلك في خلقه. أي دلالة الخلق عليه سبحانه، من خلال ما سماه من قبلُ 'بخاتم التوحيد'، أو 'سكة التوحيد'، أو 'طغرائه'. فإذا كانت 'الواحدية' تُدْرَك بالإعتقاد، فإن 'الأحدية' لا تدرك إلا بالمشاهدة.'' وهذا بالذات معنى كون ''القرآن يعرض الكثرة من عين الوحدة'' على المستوى الكوني.

وللنورسي كلام جميل جدا في التمثيل لذلك في الواقع المشاهد. قال: ''إن تجلي الواحدية في مخلوقات لا حد لها، لا يحيط به كل من يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حيث يتشتت الفكر ويتيه في تلك الكثرة، إذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد من خلال مجموع المخلوقات لدى خطاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وجود قلب واسع يسع الأرض كلها! فبناء على هذا السر الدقيق؛ فإن الله سبحانه يبين بجلاء طابع الأحدية في كل جزء، مثلما يظهره في كل نوع؛ وذلك لتشد الأنظار إلى ذات الله الأحد، وليتمكن كل شخص -مهما بلغت مرتبته- من التوجه المباشر في خطابه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى ذات الله الأقدس سبحانه، من دون تكلف أو صعوبة.

فتبيانا لهذا السر العظيم؛ فإن القرآن الكريم عندما يبحث في آيات الله في أجواء الآفاق، وفي أوسع الدوائر، إذا به يذكر أصغر دائرة من دوائر المخلوقات، وأدق جزئية من جزئياتها؛ إظهارا لطابع الأحدية بوضوح في كل شيء. مثال ذلك: عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض؛ يعقبها بآيات خلق الإنسان، وبيان دقائق

النعمة، في صوته، وبدائع الحكمة في ملامحه، كي لا يتشتت الفكر في آفاق شاسعة، ولا يغرق القلب في كثرة غير متناهية، ولتبلغ الروح معبودها الحق دون وساطة. فالآية الكريمة الآتية تبين الحقيقة السابقة بيانا معجزا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾. الروم:٢٢،، 34

وهذا التفات عظيم إلى أدق المعاني الإشارية للقرآن الكريم، إذ بين النورسي رحمه الله، أن الله تعالى قرن بين الدلائل العظيمة، ذات الإمتداد البعيد عن الإدارك البشري الشامل: السماوات والأرض، والدلائل الدقيقة، الداخلة في صميم الإجتماع البشري: كالتعدد اللغوي والجنسي. لأن الذي خلق ذلك الإمتداد؛ هو نفسه الذي خلق هذه الذرات الدقيقة من جسم الإنسان وجلده. هذا الإنسان الذي ليس إلا فهرسا لذلك الإمتداد! كما بيناه قبل من قول بديع الزمان. فيظهر بذلك خاتم التوحيد على كل شيء، ويجد المؤمن طريقا إلى الله من كل شيء.

إنه مفهوم يدل حقا على أن القرآن الكريم قد جمع الكثرة الكونية، فصاغها في طابع واحد، هو خاتم الخالقية العظمى، الذي يفتح الباب لقلب المؤمن؛ من أجل مشاهدة جمال الله وجلاله، وبذلك يتحقق هدف القرآن الأسمى: توظيف كل شيء في توحيد الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد. فمن خلال القرآن تجد كل شيء -ككل شيء- يدل على من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾الشورى:١١ فإذن؛ كل الطرق المشاهدة بمنظار القرآن تؤدي إلى الله. وبهذا كان القرآن أضمن سبيل، وأسلم طريق. قال رحمه الله: ''القرآن الكريم يعفي الكائنات بكل وضوح عن الإعدام، ويطلق سراحها من السجن. فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل، وخادمة في سبيله. وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى. كأنها مرايا تعكس تلك التجليات، أي إنه يستخدمها بالمعنى الحرفي، ويعزلها عن المعنى الإسمي، من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم، فيجد إلى الحق سبحانه طريقا من كل شيء.''[35]

خاتمة:

إذا تبين المفهوم التربوي للقرآن العظيم لدى النورسي، وتبين معنى مصدريته التربوية؛ تبينت بذلك وظيفة القرآن عنده، التي هي على حد تعبيره: ''تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.'' وذلك في قوله:

''الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.''[36]

ومعنى ذلك أن معرفة الله ﷻ إنما هي معرفته من حيث هو ''رب العالمين'' ومن حيث هو ''خالق كل شيء'' أي معرفته تعالى من خلال البعد الكوني؛ لتوحيده سبحانه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. ومن هنا كانت المعرفة بالله قائمة أساسا على ''مشاهدة'' أنوار الأسماء الحسنى المنعكسة على سائر الكائنات، وفي كل الحركات. ومن هنا كان الكون نفسه كالقرآن دالا على الله بطريق التفكر. كما أن القرآن دال على الله بطريق التدبر، وكما أن النبي ﷺ دال على الله بطريق الإقتداء والتأسي.

قال بديع الزمان: ''إن ما يعرّف لنا ربنا لا يعد ولا يحصى، ولكن البراهين الكبيرة والحجج الكلية ثلاثة:

إحداها: هذه الكائنات، وقد سمعت بعض آيات هذا الكتاب الكبير.

وثانيتها: الآية الكبرى من هذا الكتاب، وهي خاتم ديوان النبوة، ومفتاح الكنوز الخفية عليه الصلاة والسلام.

وثالثتها: مفسر كتاب العالم، وحجة الله على الأنام: أي القرآن الحكيم.''[37] فإذا كان ذلك كذلك؛ أي إذا تم التعريف بالله ''ربا وخالقا''، وتمت مشاهدة أسمائه الحسنى، متجلية أنوارها في كل شيء؛ كان ذلك هو الشطر الأول من وظيفة القرآن التعليمية والتربوية، وهو ما سماه في التعريف بـ ''تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها''. وأما الشطر الثاني: فهو ما يتوجب على العبد أن يؤديه من حقوق الربوبية والخالقية! وما ينبغي له أن يسلكه من ''معراج قرآني'' و ''خطوات أربع''، مما بينه في كلياته، بمواطن عديدة، كما في قوله: ''للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرائق كثيرة وعديدة. ومورد جميع الطرق الحقة، ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم (...) وقد استفدت من فيض القرآن الكريم -بالرغم من فهمي القاصر- طريقا قصيرا وسبيلا سويا هو: **طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر**،''[38] فما بقي على العبد آنئذ إلا الشروع في مدارسة كتاب الله تعالى عبر مدراج القرآن العظيم ومعارجه العليا؛ ملتزما بما يجب عليه أن يتحلى به في ذلك من آداب السير. وجماع ذلك كله هو ما عبر عنه في التعريف بتعليم ''وظائف دائرة العبودية وأحوالها''.

ذلك قطف قليل من تأملات بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى؛ للقرآن

العظيم، باعتباره المصدر الأساس للتربية السلوكية عنده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

الهوامش:

[*] جامعة المولى اسماعيل، مكناس، المغرب.

[1] المقاييس، مادة: (قري).

[2] مختار الصحاح، مادة: (قرأ).

[3] اللسان: (قرأ).

[4] جامع البيان:١/٤٢٤٣.

[5] المفردات: (قرأ).

[6] النورسي، بديع الزمان سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.ص ٢٢.

[7] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.ص ١٨٩.

[8] إشارت الإعجاز:٥/٢٢ والمكتوبات:٢/٢٦٧

[9] النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.ص ١٤٧.

[10] ، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.ص ٣٤٦.

[11] الكلمات:١/٢٩٣.

[12] النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.ص ٤٦٣، ن. مثله في: اللمعات:٣/٣٤٦.

[13] الكلمات: ١٤٧.

[14] النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢. ص ٣٩٩-٤٠٠.

[15] المثنوي العربي:٦/١٥٧.

[16] إشارات الإعجاز:٥/٢٧.

[17] اللمعات:٣/٤٩٨.

[18] اللمعات:٣/١٩٦.

[19] المثنوي العربي النوري:٦/٥٥.

[20] اللمعات:٣/٥٦٧=٥٦٨.

[21] الكلمات:١/٢٩٦.

[22] اللمعات:٣/٥٢٦.

[23] المكتوبات:٢/٢٧٨.

[24] المثنوي العربي:٦/٧٨.

[25] إشارات الإعجاز:٥/٢٣

[26] إشارات الإعجاز:٥/١٧٧

[27] الكلمات:١/٢٩٣

[28] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥. ص ١٢٣.
[29] المكتوبات:٢/٢٤٨.
[30] المكتوبات:٢/٥٩٤.
[31] رواه الطبراني والبيهقي. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: ١٠٥٩.
[32] الشعاعات:٤/٧٤.
[33] المكتوبات:٢/٣٣٤
[34] اللمعات:٣/١٥١١٥٢
[35] المكتوبات:٢/٥٩٧.
[36] الكلمات:١/٢٩٣.
[37] المثنوي العربي النوري:٦/٥٥.
[38] المكتوبات:٢/٥٩٤

التربية السلوكية عند النورسي

أ.د. محسن عبد الحميد*

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان. وبعد:

القرآن الكريم ينظر إلى كيان الإنسان نظرة موحدة متوازنة. فكينونة الإنسان شبكة متلاحمة من العقل والقلب والنفس والروح. أعطى كل جانب من تلك الجوانب نصيبه من المعالجة. حتى لا يطغى جانب على جانب، كي لا يستولي انحراف الجانب الغالب على الجوانب الأخرى. لأن الإنحراف يؤدي إلى فقدان الموازنة، وهو مخالف للفطرة التي خلق الله تعالى الوجود عليها. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.﴾الرحمن: ٦-٩

ولما كانت فطرة الإنسان تحتوى على تلك الطاقات مجتمعة، لذلك فقد نوّع القرآن الكريم خطاباته الموجهة للإنسان فتارة ينبه الإنسان إلى الحجة العقلية ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ق:٦-٨

وتارة ينبه إلى الحواس ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾الأعراف:١٧٨ وثالثة يشير إلى حقيقة النفس ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.﴾الشمس:٧-١٠ وهكذا...

والسبب في ذلك كله التأثير المباشر على تلك الملكات وتربيتها ثم السيطرة عليها

وتوجيهها وجهة موحدة، حتى لا تشذ قوة من تلك القوى، فتدمر القوى الأخرى المتوازنة معها. وشبيه ذلك في عالم المادة، عالم الذرة، فالذرة الواحدة تخضع إلى نظام داخلي متوازن دقيق جدا، فأية محاولة لإخراج أي كهرب ''إلكترون'' من مساره، ستؤدي إلى تحطيم الذرة، وتحطيم الذرة يدمر ما حولها من الموجودات.

وهذا القانون سار من الذرة إلى المجرة، ومنه الإنسان، الذي بملاحظة سلوكه نلاحظ أن إعطاء المجال للقوة العقلية وحدها، وإهمال القوى الأخرى، يؤدي إلى الإنحراف وتحطيم القوى جميعها، ثم يؤدي إلى الخراب في داخل النفس الإنسانية، ثم ينتهي إلى الخراب في المجتمع الإنساني.

وكذلك الحال بالنسبة للنفس والروح والقلب، التركيز على أي عنصر من تلك العناصر، سيكون على حساب العناصر الأخرى، فيحدث خلل كبير في داخل الكينونة البشرية.

إذن النظرة الأحادية في معالجة مشكلات الكائن الإنساني، سيؤدي إلى زعزعة كبيرة في حياة الإنسان، ثم المجتمع. بينما النظرة الشمولية التي تحاول أن تنظر إلى الكينونة الإنسانية نظرة متوازنة متكاملة، تحدث براحة كبيرة في كيان الإنسان، وتؤدي إلى إنتاج متوازن في تكوين حضارته، لأن كل قوة من تلك القوى ستسير في مسارها الفطري الصحيح.

ومن أجل ضبط القوى الإنسانية تلك في مساراتها الصحيحة، أنزل الله تعالى كتابه الأخير شاملا لقضايا العقيدة والشريعة والسلوك، التي تربط بين حركة تلك القوى ربطا محكما.

فلأجل عدم الإنفصام بينها، يقتضي ألاّ نركز على العقيدة وحدها ولا على الشريعة وحدها، ولا على السلوك وحده، فنصنع منها جزرا منفصلة، يجهل أهل كل جزيرة ما يحدث في الأخرى.

ولم يكن عبثا أن الله تعالى أعلمنا بتفاصيل أسمائه الحسنى، في القرآن الكريم، كي يعرف الإنسان المسلم نصيبه من كل مجموعة من تلك المجموعات في إطار فطرته وطاقاته المنبثقة منها.

فأسماؤه: الخالق، البارئ، الأحد، الصمد، الوهاب، الرزاق، الفتاح، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، العلي، الكبير، الحفيظ، القوى،

المجيب، المحي، المميت... على سبيل المثال، ترسم له أساس عقيدته وصفاءها، وتحصنه من أن يقع بين براثن الشرك الجلي أو الخفي.

وأسماؤه: الملك، المهيمن، العزيز، الجبار، القهار، الحكيم، العليم، العدل، الخبير، الرقيب، المنتقم... تضبط له أسس الشريعة التي تضبط حركته الحضارية، وتحول بينه وبين الوقوع في شريعة الأهواء.

وأسماؤه: الرحمن، الرحيم، القدوس، السلام، الغفار، اللطيف، الحليم، الغفور، الشكور، الكريم، الودود، البر، التواب، العفو، الرؤوف، الصبور... توجهه إلى تصفية الروح والوصول به إلى الاستقامة التي يعلن الإنسان عندها عبوديته الخالصة لرب العالمين، خالقه وخالق الوجود.

إذن فهذه الجوانب متلازمة متلاحمة، ينصهر الواحد بالآخر، لكي يقود في النهاية إلى الوصول إلى الإنسان الأرقى المكرم عند الله، الذي قد يصعد في الطهر إلى مستوى الملائكة. ولا ينزل إلى دركات الحيوانية.

وإذا جئنا إلى منهج التغيير في الكيان الإنساني الذي أتبعه رسول الله ﷺ، نجده متكاملا من خلال القرآن الكريم وسنته الشريفة، نجده منهجا شموليا أدمج المثلثات الثلاثة ''العقيدة، الشريعة، السلوك'' في ''كل واحد'' رصين متلازم، في ضوء القراءات الثلاث للوجود. قراءة القرآن الكريم وما فيه من شمولية الجمع بين العقيدة والشريعة والسلوك، وقراءة الكون بكل ما فيه من ترابط وتلازم وعظمة، تذكر الإنسان بالخالق العظيم ووحدانيته وشريعته الكونية السارية في كل خلية من خلايا الوجود، التي تهز كيان الإنسان وتحدث فيه نشوة روحية عارمة، تمثل قمة العبادة للخالق العظيم. وقراءة حياة الرسول ﷺ، الذي غدا موضع تجليات الأنصبة البشرية في شخصه الكريم من أسماء الله الحسنى، ولذلك كان ﷺ الرائد الأرقى إلى الله تعالى، ومحول شريعته الكونية إلى شريعته الاجتماعية، ومربى الإنسان المسلم في تربية نفسه الأمارة بالسوء، وتجسيد العبودية في كيانه القلق القابل لانطباع كل صورة فيه، بالنظام العبادي الذي يصفيه ويعليه في مراتب الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ.﴾ فصلت: ٣٠

وهكذا ربى رسول الله ﷺ صحابته الأكرمين في هذه الدائرة الواسعة الشاملة، لكي يقوموا بعملية التغيير الشاملة التي تصنع مملكة الإنسان في هذه الدنيا على الأرض،

وليست معلقة في السماء، في ظل إسلام العقيدة وإسلام الشريعة وإسلام تربية سلوك الإنسان في ظل أتباعهما إلى الأعلى والأرقى.

ولذلك لا نجد بينهم من اتجه إلى تربية نفسه وترك الحركة في عالم الصراع بين موكب الرحمن الذي يقوده رسول الله ﷺ وموكب التمرد على الله الذي يقوده الشيطان الرجيم.

وثبت أن النبي ﷺ، عندما كان يبلغ أن أحد الصحابة قد أعطى مثلث تربية الروح والسلوك أكثر من الجوانب الأخرى يرده إلى التوازن.

ألم ينبه، أبا الدرداء، عندما علم بأنه تجاوز الحد في جانب العبادة، على حساب أهله ونفسه، فقال له: يا أبا الدرداء: هلك المتنطعون، إن لأهلك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا.

وعندما وجد أن أناسا يقطعون أنفسهم عن الزواج وآخرين يصومون الدهر كله، وآخرين يقومون الليل كله، ويخالفون بذلك سنة رسول الله ﷺ لأنه هو نفسه كان إمام العابدين ومع ذلك كان يصوم ويفطر، ويتهجد وينام، ويتزوج النساء، ولكنه في إطار إعطاء نفسه وأهله والمجتمع والدولة حقوقها.

والنظام العبادي الذي ربى رسول الله ﷺ صحابته عليه، كان من أجل تقوية كياناتهم حتى يصمدوا أمام صراعات الحياة، ولا يتهربوا في معركة مواجهة الشيطان في مجالات الحياة كافة.

وهو نفسه ﷺ، لما ضاق صدره من بعض وجوه الصراع الدموي الحاد مع المشركين في مكة احتاج إلى جولة روحية راقية، فأسرى الله تعالى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات العلى وأراه من آياته الكبرى، فتضلع من النشوة الروحية الربانية، ولم يمكث هناك إلا لحظات، فعاد إلى الأرض أقوى مما كان، لكي يبدأ بالرحلة الجديدة، في مواجهته الحاسمة للشرك الذي انتهى إلى الهجرة وإنشاء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية خاصة وبناء الحضارة الإسلامية عامة.

ولذلك فقد هاجم إقبال الولي الهندي عبد القدوس الجنجوهي الذي قال: ''ذهب محمد العربي إلى المعراج وعاد إلى الأرض فو الذي نفسي بيده لو كنت مكانه لما رجعت أبدًا''.[1] وعدّ هذا انحرافا عن طريق الإسلام، فرحلة المسيرة الروحية إلى الله

لابد أن يكون الغرض منها، تقوية الكينونة الإنسانية أمام صراعات الأرض في أداء الخلافة وتبليغ الأمانة. ولذلك فالعودة ضرورة إلى الحياة، والخطأ البقاء هناك.

وإذا رجعنا من هذه الجولة السريعة إلى المسلك الذي اتبعه النورسي في التربية السلوكية لصياغة الإنسان المسلم صياغة ربانية أمام مسالك الشيطان ومهالك العصر، ولا سيما هجمة اللادينية الشرسة، لوجدنا أنه انطلق من تجليات الأسماء الحسنى في عالم الأنفس والآفاق، من الذرة إلى المجرة، ومن أعماق النفس الإنسانية إلى مظاهرها المجلية، ولكن في شمولية وتكاملية، موزونة متلاحمة، في ضوء منهج قرآني متشابك، لا يفصل الجزء عن الجزء ولا الجزء عن الكل.

ومن هنا فإنه لم يدخل في نفق ضيق، أو معالجة مبتورة، وإنما أدرك أن صراع العصر يقتضي الشمولية المتكاملة المتوازنة، التي وجدها في القرآن الكريم، لأن الموقف الذي واجهه في الجاهلية الجديدة، والتي كانت تخطط للقضاء النهائي على الإسلام، لم ير مثيله إلا في أول الرسالة الإسلامية، عندما واجهه رسول الله ﷺ بحقائق الوحي الإلهي وتكامليته، عقيدة وشريعة وسلوكا.

نعم لقد عاد ذلك الموقف نفسه في عصره، عندما خرج المسلمون من وعاء الإسلام إلى وعاء الفلسفات الغربية المادية الإباحية اللاأخلاقية، فصبغت حياتهم بصبغتها في عالم السياسة والحكم والإقتصاد ونظام التربية والتعليم ونظام الحرب والسلم والأدب والفكر والفن والأخلاق. فكان هذا الصراع الشديد والسهام الموجهة بحاجة عصرية ماسة إلى مواجهة قرآنية، بعيدة عن النظرة الأحادية والحلول المرحلية والوصفات الجزئية، والإجتهادات التاريخية.

إنه على الرغم من دراسة النورسي للعلوم الإسلامية دراسة محكمة، وقراءته لنتاجات العلماء الأولياء الصادقين في أمتنا وأخذه في بداية حياته الطريقة النقشبندية والقادرية، فإنه لم يتبع أحدهم بعينه في منهجه ولا سلوكه إلى الله، وقيادة حركة الإنسان في ضوئه، لأن مسالكهم كانت تتفق مع عصورهم وظروف حياتهم، ولأن تلكم المسالك والمناهج لم تكن توافق همومه واستعداداته وأحواله الروحية.

يقول النورسي بعد مروره بالحيرة في الأخذ بمنهج معين: ‘‘وحينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة. إذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي: إن بداية هذه الطرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلها وشمس هذه

الكواكب السيارة... إنما هو القرآن الكريم. فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلا في القرآن الكريم... فالقرآن هو أسمى مرشد وأقدس أستاذ على الإطلاق. ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه''.[2]

وفي ظل هذا المنهج القرآني ألّف النورسي رسائل النور. وهو منهج يقوم على ثلاث قراءات تستمد قوتها من تطبيقات أسماء الله الحسنى على الوجود كله، ضمن منهج القرآن الكريم في تحديد أسس المعرفة، من الحس إلى العقل إلى الوحي ثم المنهج الذي يجمع بين قراءة النص القرآني، وقراءة الكون في ضوئه وقراءة رسول الله ﷺ تطبيقا للنص.

وبناء على ذلك، فقد رفض الطريقة والتجأ إلى الحقيقة، لأن ضرر الأولى بالنسبة للوضع الجاهلي الجديد كان محتملا ونجاح الثانية كان مؤكدا ومرهما خالصا لأمراضه.

يقول النورسي: ''وأن الشغف بالطرق الصوفية التي نفعها قليل لنا في الوقت الحاضر واحتمال إلحاق الضرر بوضعنا الحالي ممكن، قد سدَّ أمامه تنبيهي الشديد عليه... وإلا لأفسد ذلك الهوى وحدتنا، وأدى إلى تشتت الأفكار الذي ينزل قيمة الترابط والتساند من ألف ومائة وأحد عشر الناشئة من إتحاد أربعة آحاد، ينزلها إلى قيمة أربعة فحسب، ويؤدي إلى تنافر القلوب الذي يبدد قوتنا إزاء هذه الحادثة الثقيلة ويجعلها أثراً بعد عين''.[3]

ويقول أيضاً: ''فلئن رجحت المسائل البسيطة للنحو والصرف التي يقرأها الطلاب مثل: نصر نصرا نصروا... على الأوراد التي تذكر في الزوايا، فكيف برسائل النور الحاوية على الحقائق الإيمانية المقدسة في 'آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر'. ففي الوقت الذي ترشد 'رسائل النور' إلى تلك الحقائق بأوضح صورة وأكثرها قطعية وثبوتا حتى لأعتى المعاندين المكابرين من الزنادقة وأشد الفلاسفة تمردا وتلزمهم الحجة كم يكون على خطأ من يترك هذه السبيل أو يعطلها، أو لا يقنع بها، ويدخل الزوايا المغلقة دون استئذان من الرسائل تبعا لهواه''.[4]

''ومن هنا استغنت الحقيقة عن الطريقة، لأنها أشمل وأنجح في معالجة الأدواء والدليل على ذلك أن شيخا عظيما ومرشدا ذا جاذبية من أولياء الطريقة النقشبندية لم يستطع أن يقنع إلا واحدا من مجموع ستين طالبا من طلبة النور وبصورة مؤقتة، أما

الباقون فقد استغنوا عن إرشادات ذلك الشيخ، بأنوار رسائل النور، لأنها رسائل تنقذ أصل الإيمان"[5] والإيمان شامل لقضايا الحياة جميعا.

ومن جانب آخر فإن طالب الحقيقة النورية يضحي براحته وامتيازاته في الدنيا من أجل الآخرة عندما يدخل مع الإيمان في صراعه مع الكفر ويتحمل نتائجه، ومن طلاب الطريقة من يجعل رغبته في الآخرة وثمارها سلماً للوصول إلى مآرب دنيوية ضيقة، وهي الوصول إلى مرتبة نيل الكرامة الدنيوية كيما يعد من أهل الكرامات.

وإذا كان النورسي يرفض الطريقة منهجا للسلوك إلى الله تعالى في هذا العصر، فإنه يرفض أيضاً البقاء في دائرة الكلام والفقه وحلقاتها الضيقة، المنكبة على دراسة الكتب القديمة فحسب، والتي لا تولد الإخلاص والتضحية بل قد تدفع عن طريق الجمود والتأويلات المائعة أصحابها إلى أحضان الضلال والنفاق.

يقول النورسي: "فهذا العصر المشوؤم قد غرز الناس بهذه الأمور وما زال ولقحهم بأفكاره وما زال، بحيث جعل العلماء الذين هم خارج دائرة النور، بل بعض الأولياء ينزلون حكم الحقائق الإيمانية إلى الدرجة الثانية والثالثة بسبب ارتباطهم بتلك الحياة السياسية والإجتماعية منجرفين مع تلك التيارات. فيولون حبهم للمنافقين الذين يبادلونهم الفكر نفسه، ويعادون من يخالفهم الرأى من أهل الحقيقة، بل من أهل الولاية وينتقدونهم، حتى جعلوا المشاعر الدينية تبعا لتلك التيارات".[6]

إذن فمسيرة السلوك إلى الله تعالى تبدأ عند النورسي من القرآن الكريم وموازناته الربانية، والذي يربي المؤمن على العبودية الخالصة لله تعالى. فإذا صار المؤمن عبدا حقيقيا لخالقه العظيم حينئذ يكون إنسانا متواضعا مستغنيا عن كل شيء بما ادخره مالكه الكريم من خزائن لا تنفد في الآخرة. والإستناد المخلص على هذا يدفعه إلى القوة، لأنه لا يعمل إلا لوجه الله، بل لا يسعى إلا ضمن رضاه، بلوغا إلى الفضائل ونشرها والتضحية بماله ونفسه من أجلها.

وهذا هو الفرق بين التربية القرآنية وتربية المناهج الأخرى.[7]

وإذا كان هدف التربية النورية جعل الإنسان عبدا لله تعالى وحده لا شريك له، فإنه لا بد أن يبدأ باسم الله ويعمل باسم الله ويأخذ باسم الله ويعطي باسم الله ويتحرك باسم الله، ويسكن ضمن دائرة مرضاته وأوامره. وقد يتعرض الإنسان عبر مسيرته إلى التقصير، فدونه باب الإستغفار والتضرع.

والعبودية لله تعالى لا تتحقق أبدا إلا باتباع الرسول الهادي ﷺ، لأنه ''بذرة شجرة الكون، وأنور أثمارها وشمس قصر هذا العالم، والبدر المنوّر لعالم الإسلام والدال على سلطان ربوبية الله والكشاف الحكيم للغز الكائنات''.[8]

وفي إطار موازنة القرآن الكريم للقراءات الثلاث ''نصا وكونا ورسولا'' استنبط النورسي طريقا قصيرا وسبيلا سوية في التربية السلوكية، حصره في أربع خطوات هي:

ـ العجز: لأنه يوصل إلى المحبوبية عن طريق العبودية، وشاهده قوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. النجم:٣٢

ـ الفقر: الذي يوصل إلى اسم ''الرحمن'' وشاهده قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾. الحشر: ١٩

ـ الشفقة: الذي يوصل إلى اسم الله ''الرحيم'' وشاهده ﴿مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾. النساء:٧٩

ـ التفكر: الذي يوصل إلى اسم الله ''الحكيم'' وشاهده ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. القصص: ٨٨ [9]

وبعد شرح مفصل لهذه الخطوات المتسلسلة التي توصل إلى علم الحقيقة أي حقيقة الشريعة وحكمة القرآن الكريم، يقول النورسي: ''ثم إن هذا الطريق أسلم من غيره، لأن ليس فيه شطحات أو إدعاءات فوق طاقتها، إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز والفقر والتقصير كي يتجاوز حده. ثم إن هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لأنه لا يضطر إلى إعدام الكائنات ولا إلى سجنها... بينما القرآن الكريم يعفو الكائنات بكل وضوح عن الإعدام ويطلق سراحها من السجن. فهذا الطريق على منهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله. وإنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التجليات''.[10]

هذا النهج القرآني القويم لم يبقه النورسي في دائرة التجريد الفكري، وإنما حوله عبر رسائله النورية إلى صياغة جيل رباني مخلص لربه، ومحارب لأنانيته يعي حركة عصره وتعقيداته، ويشعر بالواجب الشرعي الملقى على عاتقه في ترشيد التغيير الإجتماعي والوقوف أمام الطغيان والدجل، وتزيين الحياة المادية الغربية المغرية للمسلمين، بل فرضها عليهم بقوة الحديد والنار.

جيل مؤمن واجه الطغيان والتربية المنحرفة دون عنف بالسلوك القرآني والتربية

النبوية، التي تكاملت فيه الربانية مع العقلانية مع الحركية الواعية والحكمة السديدة والدعوة الحسنة، في معالجة أمراض العصر، في ضوء أخوة متعاونة على البر والتقوى، ورحمة حانية بالفرد والمجتمع، جعل من جهاده الكلمة الصائبة والحركة المنتجة والعلم النافع والأدب مع الجميع، حتى مع الأعداء في الداخل، فانتهى به الأمر إلى إنقاذ الملايين، ونقلهم من موكب الشيطان إلى موكب الرحمن. بينما انتهى بعض أهل الطريقة الضيقة في تربيتها إلى الأنانية واحتكار التجربة الذاتية، في ظل إدعاء السلوك إلى الله بلا عودة، تاركين المجتمع نهباً بيد الطغاة اللادينيين. وانتهى أهل الكتب الكلامية والفقهية المجردة من أنصاف العلماء إلى الجبن والخور والسكوت عن جرائم اللادينيين، بل ممالئتهم، وسباحة الكثيرين منهم في حوض النفاق لهم.

ولأجل ذلك، نجح المشروع النهضوي النورسي الإسلامي في إخراج الشعب عامة من مستنقع الإنحراف إلى مروج الإيمان اليانعة. وكل من درس أوضاع المجتمع التركي في العصر الأخير يدرك ذلك تمام الإدراك.

بينما أخفقت مشاريع الآخرين لأنها بدأت من التاريخ وبقيت في التاريخ، ولم تنطلق من الوحي الإلهي إلى العصر، في معالجته أفكاره وانحرافاته.

رحم الله سعيد النورسي، الإمام الممتحن، ورجل القدر، والداهية الرباني الحركي الثبت، وحكيم المرحلة الصعبة، وحشره تحت لواء النبي الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ، مع الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

الهوامش:

[*] كلية التربية- جامعة بغداد العراق.

[1] تجديد الفكر الديني ص ١٤٢.

[2] النورسي، بديع الزمان سعيد، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥. ص ١٦٢ .

[3] سيرة ص ٢٩٦.

[4] النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.ص ٤٣٠.

[5] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥. قسطموني ص ١١٤، ١٣٢، ١٤٢..

[6] الملاحق- قسطموني/ ١٤٩ وأنظر أيضا سيرة ذاتية ص ٣١١.

[7] النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.

[8] الكلمات ص ٣٤٣.

[9] الكلمات ص ٥٥٨.

[10] الكلمات ٥٦١.

الأبعاد التربوية لدرس العقيدة عند النورسي

أ. خالد محجوب*

الحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان والصلاة والسلام على محمّد الذي هو مركز دائرة الإسلام ومنبعُ أنوار الإيمان وعلى آله وصحبه أجمعين مادام المَلَوان[1] وما دار القمران[2] وبعد:

فإن مشوشات الدرس العقدي الإسلامي كثيرة منها سوء الفهم، والقهر المادي والمعنوي على توجيه الفهم، وعدم مراعاة المخاطبين بكسر الطاء لحال المخاطبين بفتح الطاء، وعدم التفريق بين الحق والأحق، وبين السياسي والديني، وإنزال الفروع منزلة الأصول، والتعامل مع المتشابه على أساس أنه محكم والعكس... فهذه المشوشات وغيرها انحرفت بالدرس العقدي عن مقاصده الأصلية وأبعاده التربوية والإيمانية حتى صار مختزلا في الإتهامات والردود والتفسيق والتكفير وغيرها من أنواع الصراعات العقدية التي ما فتئت تميز عصور التاريخ الإسلامي إلى يوم الناس هذا ومن هذا المنطلق تأتي مشروعية السؤال الآتي:

هل يمكن صياغة الدرس العقدي الإسلامي بعيدا عن المشوشات بحيث يؤدي وظيفة تخلية القلوب عما سوى الله لله، فيجعل من الفرد المسلم أنموذجا متفردا يتمثل العقيدة إيمانا وسلوكا، مركزا في الوقت نفسه على إقصاء الإقصاء ونفي النفي من دائرة معاملاته الدينية العقدية الخاصة[3] من منطلق القاعدة القرآنية العامة: ﴿قُلْ كُل يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا﴾.[الإسراء:٨٤]

إذا كان هذا ممكنا -وهو ما لا شك فيه على الأقل من الناحية النظرية[4]- فما درجة حضور أو غياب هذه الصياغة في الدرس العقدي الذي قدمه العلامة بديع الزمان النورسي؟

سنحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال الحديث عن الأبعاد التربوية في الدرس العقدي الذي قدمه النورسي وذلك بتسليط الضوء على العناصر الآتية:

البعد الأول: عقيدة التوحيد والوحدة

كان العرب في الجاهلية يعيشون حياة التفرق والتشتت في عقيدتهم ومعاملاتهم، لا يجتمعون على عبادة إله واحد ولا يرى لهم اتفاق على رأي واحد، لذلك كثرت قبائلهم وانتشرت بينهم الحروب والإغارات، ولما أُرسل النبي ﷺ بالهدى ودين الحق دعاهم إلى كلمة التوحيد واتحاد الصف حتى تسعد حياتهم وتقوى شوكتهم ويكون لهم وجود بين الأمم الأخرى، قال الله ﷻ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانا﴾. آل عمران:١٠٣

يرى الأستاذ النورسي أنه إذا كان الناس الذين يعيشون في مدينة واحدة يستشعرون نوعا من الرابطة الجغرافية والإجتماعية التي تجمعهم وتدفعهم إلى التعاون ورد الأخطار عن بعضهم، ويعفون ويتجاوزون عن بعضهم امتثالا وحفاظا على مكتسبات هذه الرابطة، فإن المسلمين الذين يعيشون في ظل رابطة الإيمان والعقيدة الواحدة أولى من غيرهم بأن تظهر عليهم بوادر الوحدة والتآزر لأنهم يمتلكون بالإضافة إلى الروابط الاجتماعية والجغرافية رابطة الإيمان بالخالق الواحد والدين الواحد والنبي الواحد والقبلة الواحدة...

''نعم! إن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، ووحدة العقيدة هذه، تقتضي وحدة المجتمع. فأنت تستشعر بنوع من الرابطة مع من يعيش معك في طابور واحد... فما بالك بالإيمان الذي يهب لك من النور والشعور ما يريك به من علاقات الوحدة الكثيرة، وروابط الاتفاق العديدة، ووشائج الأخوة الوفيرة ما تبلغ عدد الأسماء الحسنى.''[5]

ويتأسف الأستاذ لما وصل إليه حال المسلمين من تشتت وتفرق بالرغم من امتلاكهم لمبررات الوحدة، ويعد هذا الوضع من أعظم الأخطاء التي وقع فيها المسلمون حيث تراهم يتمسكون بأسباب الفرقة التي هي أوهن من بيت العنكبوت ويتركون أقوى مبادئ الإتحاد والتعاون لذلك قال الأستاذ:

''فلئن كان هناك إلى هذا القدر من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والإتفاق والمحبة والأخوة، ولها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما

أظلم من يُعْرِض عنها جميعاً ويُفَضِّل عليها أسبابا واهية أوهن من بيت العنكبوت، تلك التي تولد الشقاق والنفاق والحقد والعداء. فيوغر صدره عداءً وغلاً حقيقياً مع أخيه المؤمن! أليس هذا إهانة بتلك الروابط التي توحد؟ واستخفافاً بتلك الأسباب التي توجب المحبة؟ واعتسافاً لتلك العلاقات التي تفرض الأخوة؟ فإنْ لم يكن قلبك ميتاً ولم تنطفئ بعد جذوة عقلك فستدرك هذا جيداً.[6]

فأين هذا البعد التربوي من الجهود المضنية التي يقدما كثير من العلماء والدعاة الذين انبروا لتأسيس العقيدة والدفاع عنها بإثارة الشبهات وإحياء النعرات والخوض في المتشابهات خوضا يزيدها إبهاما وبعدا عن المقاصد التي وضعت لها، قال عبد العظيم الزرقاني: ''لقد أسرف بعض الناس في هذا العصر فخاضوا في متشابه الصفات بغير حق وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه وتحتمل الكفر والإيمان حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا، ومن المحزن أنهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح ويخيلون إلى الناس أنهم سلفيون...''[7]

البعد الثاني: عقيدة دفّاعة إلى التفكر

العقيدة الإسلامية دفّاعة إلى التفكر وإعمال العقل، وهي لا تخشى من عواقب التفكير حين يكون مؤسسا على مبادئ صحيحة ومنطلقات سليمة ومقاصد نبيلة، والسر في ذلك أنه لا يوجد في أحكامها وأخبارها ما يتعارض مع العقول السليمة الصحيحة، وإن كان فيها ما يحير العقول بسبب قصورها، بخلاف الديانات والعقائد الوضعية والمحرفة كعقيدة التثليث التي حاربت العلم والتفكير في أوروبا في القرون الوسطى، مما ولد لدى الأوربيين عقدة كره وبغض الدين، جعلتهم يعتقدون بوجود تعارض وتناقض بين مبادئ العقيدة والدين ومسائل العلوم المادية والكونية، والأدهى أن هذا النمط من التفكير قد انتشر بين القوميين العرب والعجم وفئات عريضة ممن ينتسبون إلى الإسلام! ولهذا فحينما يتحدث النورسي عن الموانع التي أدت إلى كسوف شمس الإسلام في العصور المتأخرة يقول:

''أما المانع الثامن، وهو أهم الموانع، والبلاء النازل فهو توهمنا -نحن والأجانب- بخيال باطل؛ وجود تناقض وتصادم بين بعض ظواهر الإسلام وبعض مسائل العلوم... نعم! إن أعظم سبب سلب منا الراحة في الدنيا، وحرم الأجانب من سعادة الآخرة،

وحجب شمس الإسلام وكسفها هو: سوء الفهم وتوهم مناقضة الإسلام ومخالفته لحقائق العلوم. فيا للعجب! كيف يكون العبد عدوّ سيده، والخادم خصم رئيسه، وكيف يعارض الإبن والده!! فالإسلام سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها''.[8]

ثم تراه يدافع عن عقيدة الإسلام ويرد بقوة الحجة على أولئك الذين رأوا فيها عائقا أمام التفكير وإعمال العقول فيقول:

''أقسم بالقرآن العظيم ذي الأسلوب الحكيم، أنه ما ألقى النصارى وأمثالهم في وديان الضلالة نافخاً فيهم الهوى إلا عزل العقل وطرد البرهان وتقليد الرهبان... وما جعل الإسلام يتجلى دوماً، وتنكشف حقائقه وتنبسط بنسبة انبساط أفكار البشر إلاّ تأسّسه على الحقيقة وتقلّده البرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقته دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحاكاته لها.

ألا يشاهد كيف يحيل القرآن الكريم في فواتح أكثر الآيات وخواتمها البشر إلى مراجعة الوجدان واستشارة العقل بقوله تعالى ﴿أفلا ينظرون﴾ و﴿فانظروا﴾ و﴿أفلا يتدبرون﴾ و﴿أفلا تتذكرون﴾ و﴿تتفكروا﴾ و﴿ما يشعرون﴾ و﴿يعقلون﴾ و﴿لا يعقلون﴾ و﴿يعلمون﴾ و﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

وأنا أقول أيضا: فاعتبروا يا أولي الألباب.''[9]

البعد الثالث: عقيدة تراعي كل مستويات الفهم

الأصل أنه لا يوجد في الإسلام واسطة كهنوتية بين الحق والخلق، وبالتالي فلكل واحد من المسلمين الحق في تلقي الخطاب الإلهي المتعلق بمسائل العقيدة على سجيته ومستواه الذهني والفكري، وبما أن أكثرية الناس هم من العوام الذين لم يتوغلوا في المباحث الكلامية والفلسفية، فإن مسائل العقيدة الإسلامية كانت من البساطة وسهولة الفهم بالقدر الذي يتناسب والمستويات الذهنية لعامة الناس، وهو عين ما تركز عليه أساليب اللغة من كناية ومجاز واستعارة وتشبيه، وما في القرآن والسنة من تعبيرات عن المسائل الغيبية بالحقائق والأسماء المألوفة لدى الناس يعده النورسي ''تنزلات إلهية إلى عقول البشر'' فيقول مقررا هذه الحقيقة:

المقصود الأهم من الكتاب الحكيم هو إرشاد الجمهور الذين يمثلون أكثرية الناس، لأن خواص الناس يمكنهم أن يستفيدوا من مسلك العوام، بينما العوام لا

يستطيعون فهم ما يخاطب به الخواص حق الفهم، علماً أن معظم الجمهور هم عوام الناس والعوام لا يقتدرون على مشاهدة الحقائق المحضة وإدراك المجردات الصرفة متجردين عن مألوفاتهم ومتخيلاتهم. فالذي يضمن رؤيتهم ويحقق إدراكهم: إلباس المجردات وإكساءها زي مألوفاتهم، تأنيساً لأذهانهم، كي يروا المجردات ويعرفوها بمشاهدتها خلف صور خيالية.

ولما كان الأمر هكذا، تلبس الحقيقة المحضة مألوفاتهم. ولكن يجب ألا يقصر النظر في الصورة ولا ينحصر فيها. وبناءً على هذا: فان ما في أساليب اللغة العربية من مراعاة الأفهام ومماشاة الأذهان، قد جرت في القرآن الحكيم المعجز البيان، والتي تعبر عنها بـ ''التنزلات الإلهية إلى عقول البشر''، فمثلاً:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾الأعراف:٧ ﴿ويَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾الفتح:١٠ و﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾الفجر:٢٢ وأمثالها من الآيات الكريمة. كلها روافد لهذا الأسلوب... ﴿ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾البقرة:٢ [10]. ويقول أيضا:

''إن الخاصية المميزة للتنزيل، الإعجاز، والإعجاز يتولد من ذروة البلاغة، والبلاغة مؤسسة على مزايا وخصائص، لاسيما الإستعارة والمجاز. فمن لم ينظر بمنظارهما لا يفوز بمزاياها... فكم في التنزيل من ''تنزلات إلهية إلى عقول البشر'' تسيّل ينابيع العلوم في أساليب العرب تأنيساً للأذهان. والتي تعبّر عن مراعاة الأفهام واحترام الحسيات ومماشاة الأذهان. ولما كان الأمر هكذا... فلا بد لأهل التفسير ألا يبخسوا حق القرآن بتأويله بما لم تشهد به البلاغة. ولقد تحقق أجلى من أية حقيقة كانت، إن معاني القرآن الكريم حق، كما أن صور إفادته للمعاني، بليغة ورفيعة. فمن لا يُرجع الجزئيات إلى ذلك المعدن ولا يلحقها بذلك النبع يكن من المبخسين حقه''.[11]

ويشرح النورسي فكرته عن ''التنزلات الإلهية إلى عقول البشر'' بإعطاء مثال عن مسألة من مسائل الصفات الإلهية، كثر الخوض فيها والإختلاف حولها بين المنتسبين لعقيدة التوحيد وهي مسألة الإستواء على العرش فيقول:

مثلاً: إن الجمهور إنما يتصورون حقيقة التصرف الإلهي في الكائنات بصورة تصرف السلطان الذي استوى على سرير السلطنة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾،طه:٥ وإذا كانت حسيات الجمهور في هذا المركز، فالذي يقتضيه منهج البلاغة ويستلزمه طريق الإرشاد، رعاية أفهامهم واحترام حسياتهم

ومماشاة عقولهم ومراعاة أفكارهم. فهذه المنازل التي يراعى فيها عقول البشر ويحترم تسمى بـ ''التنزلات الإلهية'' فهذا التنزل لتأنيس أذهانهم. فلهذا وضع صور المتشابهات التي تراعي الجمهور المقيدين بأحاسيسهم ومتخيلاتهم منظاراً على نظرهم لرؤية الحقائق المجردة. ولهذا فقد أكثر الناس في كلامهم من الإستعارات لتصور المعاني العميقة أو لتصوير المعاني المتفرقة، في صورة سهلة بسيطة، بمعنى أن هذه المتشابهات من أكثر أقسام الإستعارات غموضاً، إذ أنها صور مثالية لأخفى الحقائق الغامضة، بمعنى أن الإشكال إنما هو من دقة المعنى وعمقه لا من إغلاق اللفظ وتعقيده.''[12]

ومن العلماء الذين عاصروا النورسي وفسروا المسائل الغيبية بالتنزلات الإلهية، الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله[13] حيث يقول: ''قوله تعالى: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾طه:٥ مركب دال على هيئة جلوس الملك على العرش، وتلك هيئة عظيمة في عقول السامعين فقد عرف العرب ملوك الفرس وملوك الروم وتبابعة اليمن ودخلت وفودهم إليهم وتحدثوا بعظمتهم في سوامرهم ونواديهم حتى تقرر في أذهان أهل الصناعة اللسانية منهم ما لهؤلاء الملوك عند جلوسهم على عرشهم من العظمة المفرطة والجلالة البالغة، فجاء في هذه الآية تشبيه عظمة الله تعالى التي لا تصل العقول إلى كنه هيئتها بهيئة عظمة هؤلاء الملوك تشبيها مقصودا به التقريب وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس... مع بقاء لفظ الإستواء ولفظ العرش لمعنييهما الحقيقيين، لأن المركب في الإستعارة التمثيلية ليس فيها إطلاق مفرداته على غير ما وضعت له بل مفرداته باقية في معانيها، وإنما الإستعارة في مجموع المركب.''[14]

البعد الرابع: عقيدة داعية إلى الحرية

العقيدة الإسلامية قائمة على الانتساب إلى الإله الواحد، إنتساب إيمان وعبودية وخضوع دافع إلى التحرر من كل القيود والسلطات التي تحاول إخراج أصحابه من هذا الإنتساب وتدخلهم ضمن سيطرتها، ولذلك حينما سئل الأستاذ النورسي: كيف تكون الحرية خاصية الإيمان؟ أجاب قائلا:

''لأن الذي ينتسب إلى سلطان الكون برابطة الإيمان ويكون عبداً له تتنزّه شفقتُه الإيمانية عن التجاوز على حرية الآخرين وحقوقهم، مثلما تترفع شهامتُه الإيمانية وعزته عن التنازل بالتذلل للآخرين والإنقياد لسيطرتهم وإكراههم. نعم إن خادماً

صادقاً مخلصاً للسلطان لا يتذلل لتحكّم راعٍ وسيطرته، كما لا يتنازل أن يفرض سيطرته على مسكين ضعيف. فبمقدار قوة الإيمان إذن تتلألأ الحرية وتسطع. فدونكم خير القرون، العصر السعيد، عصر النبوة والصحابة الكرام.''[15]

وبالمقابل يرد على أولئك الذين فهموا الحرية بأنها التنصل من كل القيود سواء كانت أخلاقية أو استبدادية بأنهم مخطئون، وهم بذلك يفتحون على أنفسهم بابا للإستبداد وإن كانوا يعتقدون خلاف ذلك فقال: ''وبخلافه فإن تفسير الحرية والعمل بها على أنها التحرر من القيود والإنغمار في السفاهات والملذات غير المشروعة والبذخ والإسراف، وتجاوز الحدود في كل شئ إتباعا لهوى النفس... مماثل لمن يتحرر من أسر سلطان واحد ويدخل في استبداد حقراء سافلين كثيرين، فضلاً عن أن هذا النمط من الحرية يظهر أن الأمة غير راشدة ومازالت في عهد الصباوة وليست أهلا للحرية. فهي سفيهة إذن تستحق الحجر عليها، بالرجوع إلى الإستبداد السابق البائد.''[16]

وبين لهم بعد هذا الكلام، الوصف الصحيح للحرية التي ينبغي أن يدعيها المسلم لنفسه ويجعلها عنوانا لوجوده فقال: '' ألا إن الحرية هي: أن يكون المرء مطلق العنان في حركاته المشروعة مصوناً من التعرض له، محفوظ الحقوق ولا يتحكم بعضٌ في بعض، ليتجلى فيه نهي الآية الكريمة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ﴾ آل عمران:64 ولا يتأمّر عليه غير قانون العدالة والتأدب، لئلا يُفسِد حرية إخوانه.''[17]

البعد الخامس: عقيدة سهلة التناول

يستمد النورسي عقيدته من القرآن الكريم مباشرة، ويرى أن هذا الإستمداد يساعده في فهم مسائلها والعمل بأحكامها بسهولة ويسر تام، بخلاف الفلاسفة وأصحاب النظر الذين اتخذوا لهم طرقا ملتوية تسببت في تيههم وتعبهم وعدم وصولهم إلى مطلوباتهم فيقول:

''إعلم! أن الفرق بين طريقي في 'قطرة' المستفادة من القرآن؛ وطريق أهل النظر والفلاسفة، هو أني أحفر أينما كنتُ، فيخرج الماءُ، وهم تشبثوا بوضعِ ميازيب وأنابيب لمجيء الماء من طرفِ العالَم ويُسلسِلونَ سلاسل وسلالمَ إلى ما فوق العَرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الأوهام. وأما ما علَّمنا القرآنُ فما هو إلا إن أعطينا مثلَ 'عصا موسى' أينما كنتُ -ولو على الصخرة- أضربُ عصاي فينفجر

ماءُ الحياة، ولا أحتاج إلى السفر الطويل إلى خارج العالم، وتعهّد الأنابيب الطويلة من الإنثلام والإنكسار.''[18]

البعد السادس: عقيدة داعية إلى العمل

عندما نقول بأن النورسي يميل إلى رأي الأحناف والماتوريدية في قضية علاقة الإيمان بالعمل، حيث نسج على منوالهم وصب في دلوهم حين أخرج الأعمال من مسمى الإيمان، ربما يتبادر إلى أذهان بعض الناس أن النورسي من غلاة المرجئة الذين أسقطوا العمل وقالوا: ''لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة'' وهذا الفهم يعد خطأ وظلما للنورسي ولمدرسة الأحناف عموما، ولعل أحسن جواب لتصحيح هذا الفهم الخاطئ هو حال النورسي نفسه مع العمل، حيث عاش حياته عالما عاملا مجاهدا متعبدا عازفا عما في أيدي الناس داعيا لهم إلى التمسك بما يثمره الإيمان من أعمال صالحة لذلك قال:

''إعلم! أن الأهم الألزم بعد علوم الإيمان، إنما هو العمل الصالح؛ إذ القرآن الحكيم يقول على الدوام: ﴿الذينَ آمنوا وعملوا الصالحات﴾.الحج:١٤ نعم هذا العمر القصير لا يكفي إلا لما هو أهمّ''[19] وفي تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾البقرة:٢٥ يقول: ''وأما واو ﴿وعملوا﴾ فإشارة بسر المغايرة إلى أن العمل ليس داخلا في الإيمان كما قالت المعتزلة.[20] وإلى أن الإيمان بغير عمل لا يكفي. ولفظ العمل رمز إلى أن ما يبشر به كالأجرة...[21]

ثم قال مبينا أهمية العمل للإيمان: ''فشمس الأعمال القلبية 'الإيمان'، والفهرسة الجامعة للأعمال القالبية 'الصلاة' التي هي عماد الدين، وقطب الأعمال المالية ''الزكاة'' إذ هي قنطرة الإسلام.''[22]

ولنستمع إلى أحد تلامذته وهو يصف لنا العمل الجبار الذي قام به النورسي بدافع إيمانه بالله ﷻ وحبه الخير للناس فيقول:[23] ''أما أستاذنا مؤلف رسائل النور فقد أمضى حياته كلها في سبيل الإيمان وفي سبيل القرآن وتحمّل في هذا السبيل جميع أنواع الأذى والمصاعب، وحاول بنشره هذه الحقائق القرآنية في هذا العصر إنقاذ أبناء هذا الوطن المبارك من الهجوم الشرس للشيوعية ولكل أنواع الإلحاد، وإن الصفحة البيضاء لحياته الخالية من أي نقص تشهد بأنه موظف ومؤهل للقيام حالياً بهذه المهمة المقدسة فهو -حاشاه- لم يلقّنا دروساً غير أخلاقية، ولا دروساً في فن التخريب، بل

لقننا دروساً في إنقاذ الإيمان، وهذا ربما يشكل أكبر غاية وأهم هدف للبشرية على سطح الأرض، إن قيامه منذ ما يقرب من خمس وعشرين سنة بمحاولة إنقاذ إيمان مئات الآلاف من الناس برسائل النور، ولاسيما من أمثالي من المساكين الذين لم نكن نعرف شيئاً عن الإسلام وإعطاءنا دروساً في الإيمان الذي هو السعادة القصوى والغاية من الحياة يعد دون شك فضلا إلهياً."[24]

البعد السابع: عقيدة عزة في غير تكبر وتواضع في غير مذلة

المتمسك بعقيدة التوحيد حق التمسك يستشعر في نفسه قوة وعزة تتهاوى أمامها قوة الجبابرة الظالمين، ولقد قدم النورسي درسا عمليا في اكتساب هذه العزة من العقيدة وتوظيفها عند الحاجة بطريقة ما سمعنا بها إلا عند أفراد معدودين من الرعيل الأول الذين تربوا على يدي منبع العز بالإيمان محمد ﷺ، ولندع أحد إخوان[25] النورسي من الذين أسروا معه في الحرب العالمية الأولى يحدثنا عن هذا الدرس العملي حيث قال: "عندما جُرحت وأسرت في موضع 'بتليس' في الحرب العالمية الأولى، وقع بديع الزمان أيضا في اليوم نفسه أسيراً. فأرسل إلى أكبر معسكر للأسرى في سيبريا، وأرسلت إلى جزيرة 'نانكون' التابعة 'لباكو'.

ففي يوم من الأيام عندما يزور نيقولا نيقولافيج المعسكر المذكور للتفتيش -يقوم له الأسرى احتراماً- وعندما يمر من أمام بديع الزمان لا يحرك ساكناً ولا يهتم به، مما يلفت نظر القائد العام، فيرجع ويمر من أمامه بحجة أخرى، فلا يكترث به أيضا. وفي المرة الثالثة يقف أمامه، وتجري بينهما المحاورة الآتية بوساطة مترجم:

- أما عرفني؟

- نعم لقد عرفته إنّه نيقولا نيقولافيج، خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاس.

- فِلِمَ إذن قَصَد الإهانة؟

- كلا! معذرة. إنني لم أستهن به. وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

- وماذا تأمر العقيدة؟

- إنني عالم مسلم أحمل في قلبي الإيمان، فالذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل ممن لا يحمله. فلو أنني قد قمت له احتراماً لكنت إذن قليل الإحترام لعقيدتي ولهذا لم أقم له... إن هذه العزة الدينية، وهذه السجية الرفيعة التي هي قدوة حسنة للمسلمين

جميعاً أخبر عنها أحد أصحابه في معسكر الأسر، وهو برتبة نقيب، وكان شاهد عيان للحادثة.[26] وفي موضع آخر من رسائله يفسر هذه العزة بقوله:

''إن عزّة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي لو كانت في القوي لكانت تكبراً، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللاً''[27] ويعيد النورسي مصدر هذه العزة إلى العقيدة الإيمانية التي كان يتحلى بها ويتمثل قيمها ومبادئها في حياتها كما تمثلها النبي ﷺ وأصحابه فيقول:

''أما أهل الهداية والدين وأصحاب العلم والطريقة فلأنهم يستندون إلى الحق والحقيقة، ولأنّ كلاً منهم أثناء سيره في طريق الحق لا يرجو إلا رضى ربه الكريم ويطمئن إليه كل الإطمئنان، وينال عزة معنوية في مسلكه نفسه، إذ حالما يشعر بضعف ينيب إلى ربه دون الناس، ويستمد منه وحده القوة، زد على ذلك يرى أمامه اختلاف المشارب مع ما هو عليه، لذا تراه لا يستشعر بدواعي التعاون مع الآخرين بل لا يتمكن من رؤية جدوى الإتفاق مع مخالفيه ظاهرا[28] ولا يجد في نفسه الحاجة إليه[29]''. ويعطي مثالا حيا حول تفاوت قوة المخلوقات بتفاوت مصادر الإستناد لديها بالبعوضة التي أهلكت النمرود لأنها كانت مستندة إلى القوة الإلهية مؤتمرة بأوامرها فيقول: ''إعلم! أن الأشياء تتفاوت بتفاوت مدار الإستناد. مثلاً: إن النفر المستند بسلطانٍ عظيم يفعل ما لا يقتدر عليه 'شاه' عظيم، فالنفر يزيد بسبعِ مراتب على من زاد عليه بسبعين مراتب. فالبعوضة المأمورة من طرف القدرة الأزلية تغلب نمرود النماريد المتمرّدة.''[30]

البعد الثامن: عقيدة منقذة للتائهين

إن العقيدة الإسلامية بما تملكه من مبررات الصدق والحق، تحمل في طياتها قوة جذب لكل تائه ألقى السمع ورغب في الهداية لذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورا﴾ الإسراء:٦٧ فإذا كان هذا حال أعتى الناس وأقساهم قلبا، فكيف بمن امتلأ قلبه بعقيدة الإيمان ولكنه تعرض لغشاوة العصيان، فحجبته عن مصدر استمداد النور لفترة تطول أو تقصر بحسب سمك تلك الغشاوة، إن وجود أصل هذه العقيدة هو الذي يعيده إلى نقطة الإستناد ويفتح له مشكاة الإستمداد فيرجع طوعا إلى رحاب الله بفضل الله ولسان حاله يقول: ''فررت منك فوصلت إليك، اللهم لا منجى ولا ملجأ منك إلا

إليك'' ويصف الأستاذ النورسي هذه الحال بقوله: ''إن وجدان الإنسان لا ينسى الله قط. لما غُرز فيه من 'نقطتي الإستمداد والإستناد' بل حتى لو عطّل الدماغ أعماله، فالوجدان لا ينسى؛ لأنه منهمك بتلك الوظيفتين المهمتين؛ كالآتي:

إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد، فالعقدة الحياتية في الوجدان -وهي معرفة الله- تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة. كلٌ بما يلائمه، فتقطّر فيها اللذة والنشوة، وتزيدها قيمة وترفعها شأناً، بل تبسطها وتصقلها. هذه هي نقطة الإستمداد.

ثم إن معرفة الله نقطة استناد وحيدة للإنسان، تجاه تقلبات الحياة ودوّاماتها، وتزاحم المصائب وتوالى النكبات. إذ لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم الذي أمره كله حكمة ونظام، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وركن إليها وإلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً، فسينتابه الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا. وسيشعر بحالات أليمة تذكّر بعذاب جهنم... وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي روح النظام المتقن القائم في الكون كله.

وهذه هي نقطة الاستناد... نعم! لا ملجأ إلا بمعرفة الله!''[31]

الخاتمة:

ليس الغرض من كتابة هذا البحث إستقصاء وتقصي كل الأبعاد التربوية للدرس العقدي الذي قدمه الأستاذ النورسي، وهي الأبعاد التي احتوتها العقيدة الإسلامية أصالة، وإنما الغرض هو الإشارة إلى بعض هذه الأبعاد، لإثبات إمكانية العودة بالدرس العقدي إلى مقاصده الأصلية وأبعاده التربوية التي أهملت بسبب خوض المنتحلين لهذه العقيدة -والمرافعين عنها- في المسائل الهامشية انطلاقا من اختلاف القراءات والفهوم حول النص العقدي بشقيه القرآني والنبوي، والتي أهملت أيضا بسبب الخلافات السياسية التي وُضفت فيها مباحث العقيدة كمطايا لتصفية حسابات شخصية أو تحقيق مآرب ذاتية... هذه الأبعاد التي باتت الأمة الإسلامية اليوم في أشد الحاجة إلى إظهارها والعودة إليها بسبب الضمور الحضاري الذي تتعرض له من جهة، وبسبب تكالب قوى الشر عليها من جهة ثانية، فكان لابد والحالة هذه من تصفية هذا النبع الممد للأمة بأسباب القوة ومبررات البقاء، وكان هذا دافعنا للكتابة حول:

''الأبعاد التربوية في درس العقيدة عند النورسي'' والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.
٢- كليات رسائل النور تأليف بديع الزمان النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي.
٣- تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون ودار السلام للنشر والتوزيع ط١/٢٠٠٧م.
٤- مناهل العرفان في علوم القرآن عبد العظيم الزرقاني دار الفكر للطباعة والنشر بيروت.

* * *

الهوامش:

[*] خالد محجوب جامعة الجزائر كلية العلوم الإسلامية، الجزائر.
[1] الملوان هما الليل والنهار والقمران هما الشمس والقمر.
[2] المثنوي ص ٢١٨.
[3] دائرة الإسلام وقاعدته الكلية القائمة على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ''واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا''.
[4] وهو ما يوحي إليه مفهوم الآية القرآنية: ''واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا''.
[5] المكتوب الثاني والعشرون – ص: ٣٤١.
[6] المكتوب الثاني والعشرون – ص: ٣٤١.
[7] مناهل العرفان في علوم القرآن عبد العظيم الزرقاني ٢/٢٠٩-٢١٠.
[8] صيقل الإسلام ص ٢٣.
[9] صيقل الإسلام ص ٥٢.
[10] صيقل الإسلام ص ٥٩.
[11] صيقل الإسلام ص ٨٥.
[12] صيقل الإسلام ص ١٥٣.
[13] محمد الطاهر بن عاشور من أعلام جامع الزيتونة بتونس كان جم النشاط غزير الإنتاج تزينه الأخلاق الفاضلة والهمة العالية له عدة مؤلفات أشهرها كتابه في التفسير الموسوم بـ''التحرير والتنوير'' توفي سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م رحمه الله.
[14] تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة الشيخ الطاهر بن عاشور دار السلام مصر ودار سحنون تونس ط١ ١٤٢٨ه/٢٠٠٧م ص ١٤/١٥.
[15] صيقل الإسلام ص ٣٩٥ .
[16] صيقل الإسلام/المحكمة العسكرية العرفية – ص: ٤٦٧.
[17] صيقل الإسلام/المناظرات – ص: ٣٩٤.

[18] المثنوي ص ١٧٠.
[19] المثنوي ص ٢١٦.
[20] ولكنهم خالفوا أهل السنة حينما أضافوا إليه اجتناب الكبائر وقالوا بتخليد مرتكبها في النار.
[21] إشارات الإعجاز ص ١٩٨.
[22] إشارات الإعجاز ص ٥٠.
[23] اسمه مصطفى صونغور من مواليد ١٩٢٩ لازم الأستاذ النورسى في الحل والترحال وتتلمذ عليه حتى بلغ ''الفناء في رسائل النور'' كما قال عنه الأستاذ.
[24] الشعاعات ص ٦٠٠/٦٠١.
[25] هو أحد أصحاب النورسي وكان معه في الجيش برتبة رقيب وهذا المقال نشر في مجلة ''أهل السنة'' الصادرة بإسطنبول في ١٥ تشرين الأول ١٩٤٨ بقلم صاحبها.
[26] الشعاعات ص ٥٧١.
[27] المكتوبات ٦١١.
[28] مما يؤسف له أن يتخذ بعض القائمين على شؤون الدعوة الإسلامية من المخالفين في الملة نقطة استناد ومصدر شرعية لدعوتهم معتقدين أن هذا التودد والإستناد يزيد من مصداقيتهم ودرجة قبولهم!
[29] اللمعة العشرون – ص: ٢٢٨.
[30] المثنوي ص ١٧٠.
[31] صيقل الإسلام ص ١٢٢.

التجرد ونبذ الأنانية عند النورسي

أ.د. جمال الدين عبد العزيز شريف*

توطئة:

التربية منظومة متكاملة من العلوم والمعارف والعمليات والأنشطة التي تهدف إلى تنمية الفرد وتساعده على تكوين منظومة من القيم الأخلاقية والعادات الإيجابية التي تؤهله للتعاون والتعامل مع الآخرين وتعدّل سلوكه باكتساب الفضائل ونبذ الرذائل.[1] وترتكز هذه التربية على مجموعة من الأسس؛ منها الأسس الفلسفية والأسس الإجتماعية والأسس الثقافية والأسس النفسية والأسس الأخلاقية وغيرها.

وهذه التربية من الأمور المهمة جداً، وليست أمراً عارضاً أو قضية هامشية؛ وإنما هي ضرورة ملحة ومسألة لازمة؛ يقول الغزالي: ''وكما أن البدن في الإبتداء لا يُخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء فكذلك النفس تُخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق؛''[2] ولشدة أهمية هذه التربية فقد بدأ بها النبي ﷺ؛ إذ ربى أصحابه -وكانوا قلة بمكة- في دار منعزلة بعيداً عن المجتمع الجاهلي ورذائله؛ حتى أنتج جيلاً رفع الله ذكره وخلّد سيرته، وما ذاك إلا لأن هذه التربية الإيمانية جزء مهم من حياة الأمة وسلوكها وأخلاقها، والأخلاق في الإسلام ترتبط ارتباطاً وثيقًا بالإيمان بالله ومعرفته والتعلّق به؛ وهي بذلك تستلزم التجرّد والسمو عن الأنانية والأهواء والحظوظ الدنيوية؛ وذلك لأن الإنسان يترك هوى نفسه ويتبع ما أمر الله تعالى به، وقد ربط النبي ﷺ بين الإيمان والأخلاق وكيفية التعامل بين المسلمين؛ فقال: ''لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.''[3]

وقد فقدت الأمة كثيراً من أخلاقها الحميدة فتفككت أجزاؤها وتنازع أفراها وذهبت ريحها وظهر فيها حب النفس وعبودية الذات والأنانية المفرطة والعجب

والغرور والرياء والتطلع إلى الشهرة، ويؤكد الإسلام أن المعايير الأخلاقية السامية يجب أن تنظم شئون الحياة بدلاً من تحكّم الشهوات والأنانية والمصالح الضيقة.

وذكر النورسي أن التجرد ونبذ الأنانية من دساتير القرآن؛ بل هو من أوائل الدروس التي تلقاها من القرآن كما سيأتي، وقد تناول النورسي داء الأنانية وعكف على دراسته ثلاثة عقود من الزمان وعمل على علاج أفراد الأمة منه؛ مستعيناً في ذلك بتأملاته في القرآن وما استخرجه منه من علاجات وحلول، ولم يقتصر النورسي على الجانب النظري للتجرد ونبذ الأنانية؛ وإنما كان ذلك منهجاً انتهجه قولاً وعملاً؛ وتفصيل ذلك كالآتي:

أولاً: التجرد ونبذ الأنانية في فكر النورسي.

يتناول هذا الجزء من البحث التجرد ونبذ الأنانية في فكر النورسي من خلال رسائل النور؛ فيشتمل على مكانة هذا الموضوع في فكر النورسي كما يشتمل على مسألة الضعف البشري إزاء الأنانية، وعلاج القرآن لهذه الأنانية ونتائج التجرد وعواقب الأنانية عند النورسي؛ وتفصيل ذلك كالآتي:

أ- مكانة التجرد ونبذ الأنانية في فكر النورسي:

كان القرآن العظيم هو الأساس الذي انطلق منه النورسي في بلورة فكره وتأسيس منهجه، ولم يقتصر على ذلك فحسب بل اعتمد على السنة والسيرة أيضاً؛ وذلك لأن السنة والسيرة هي الجانب العملي للقرآن الذي أظهره النبي ﷺ في أسمى صوره وأعلى نماذجه؛ فالنبي ﷺ هو نموذج الإقتداء وأكمل مرشد للإتباع وأحكم دستور وأعظم قانون يتخذه المسلم في تنظيم حياته، وليس ذلك فحسب بل عدّ النورسي أن ما اجتمع فيه ﷺ من الأخلاق العالية إنما هو أعظم معجزة بعد القرآن؛ إذ كان في الطبقة العليا من كل خصلة،[4] وقد كان خلقه ﷺ هو القرآن؛[5] إذ كان يطبقه في أقواله وأحواله وحركاته وكان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن؛[6] ولهذا كان على خلق عظيم كما شهد له الله تعالى بذلك،[7] ومن دساتير القرآن الذي طبقه النبي ﷺ عند النورسي التجرد ونبذ الأنانية؛ فلا يحسب الإنسان أن ما سوى الله أعظم منه فيرفعه إلى مرتبة العبادة ولا تسيطر الأنانية عليه بحيث يتكبر على خلق الله تعالى؛ إذ يتساوى ما سوى الله في البعد عن المعبودية وفي نسبة المخلوقية.[8]

ولما ركّز النورسي في فكره على التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله تعالى فقد ركّز على التجرد ونبذ الأنانية وكبح جماح الذات؛ وليس ذلك فحسب بل ذكر النورسي أن له ثلاثين عاماً وهو في مجادلة مع طاغوتين هما الـ ''أنا'' في الإنسان والطبيعة في العالم،[9] وقد ذهب النورسي إلى أن من أهم الأمور التي فهمها من القرآن -التجرد ونبذ الأنانية؛ يقول: ''إن أول درس من دروس رسائل النور الذي تلقيته من القرآن الكريم هو التخلي عن الأنانية وحب الذات حتى يتم إنقاذ الإيمان بالتقلد بالإخلاص الحقيقي.''[10] ويقول أيضاً: ''ومن لا يترك الأنانية يترك الصلابة الدينية وقسماً من الدين.''[11]

وقد اهتمت النبوة -عند النورسي- بوجه معين لـ ''أنا'' وركزت الفلسفة اهتمامها على الوجه الآخر؛ فالوجه الأول الذي يتطلع إلى حقائق النبوة هو منشأ العبودية الخالصة لله؛ وهو أن يعرف الإنسان أنه عبد لله ومطيع لمعبوده ويفهم أن ماهيته حرفية وأنه دال على معنى في غيره، ويعتقد أن وجوده تبعي؛ إذ إنه قائم بوجود غيره وبإيجاده، كما يجب على هذا الإنسان أن يعلم أن مالكيته للأشياء وهمية مؤقتة ظاهرية بإذن مالكه الحقيقي، وحقيقته ظلية وليست أصيلة، وأنه مخلوق هزيل وظل ضعيف يعكس تجليًا لحقيقة واجبة حقة، أما وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه طاعة شعوريّة كاملة؛ لكونه ميزانًا لمعرفة صفات خالقه. أما الوجه الثاني فقد اتخذته الفلسفة، وقد رأت هذه الفلسفة أن ''أنا'' يدل على نفسه بنفسه وقضت بأن معناه في ذاته، ويعمل لأجل نفسه وأن وجوده أصيل ذاتي وأن له ذاتية خاصة به وليس ظلاً؛ إذ إن الإنسان عندهم مالك حقيقي في دائرة تصرفه، وهكذا أسندوا مسلكهم إلى أسس فاسدة وبنوه على قواعد منهارة واهية؛ فاعتقد عظماء الفلسفة وروادها أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي بناء على تلك الأسس الفاسدة بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هي التشبه بالخالق جلّ وعلا، فأطلقوا حكمًا فرعونيًا طاغيًا، ومهدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، وذلك بتهييجهم ''الأنانية''، فسدّوا سبيل العبودية إلى الله، وأغلقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الإنسان، فضلّوا في أوحال الطبيعة ولم ينجوا من مستنقع الشرك ولم يهتدوا إلى باب الشكر الواسع.[12]

والملاحظ أن خطوات طريق النور نفسه تفضي بصورة مباشرة إلى الإخلاص والتجرد وكبح جماح النفس ونبذ الأنانية؛ إذ إن هذه الخطوات هي العجز والفقر والشفقة والتفكر،[13] والمقصود بالعجز والفقر إنما هو الإفتقار إلى الله تعالى وإظهار

العجز أمامه لا أمام الناس، ولا شك أن اكتشاف هذه الأمور في النفس إنما هو عنصر فعال في تنمية القدرات الإيمانية؛ وبذلك يرتفع الإنسان إلى تمام العبودية السامية فيتخلّص من أنانيته ويتجرد لله تعالى، ومرتبة الفقر هي مرتبة التجرد وقطع كل علاقة تحول بين القلب وبين الله تعالى، والإخلاص عند النورسي هو روح العبادة،[14] والإيمان بلا إخلاص عنده ليس بإيمان؛[15] وذلك لأن من لم يتحلى بالإخلاص لم يأمن على نفسه من الشرك الخفي.[16]

ب ـ الضعف البشري إزاء الأنانية والتعاظم:

إن الإنسان –عند النورسي– ليس بمالك لما منحه الله إياه وأباحه له من نعم؛ وإن كان متصرفاً فيه؛ فهو بهذه الإباحة لا يصبح مالكاً لهذه النعم يتصرف فيها كما يشاء؛ بل يجب عليه أن يتصرف كما يرضى من أعطاه هذه النعم؛[17] قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾الحديد:٧ أي: جعلكم خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، وما أنتم فيه إلا بمنزلة الوكلاء والنواب، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى، وليهن عليكم الإنفاق منها، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه،[18] ولا شك أن الظن بملكية الأشياء إنما هو وجه من الأنانية تتولد منه جميع أنواع الشرك والضلال؛ وقد أشفقت السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأنها خافت من وقوع شرك مفترض يأتي من هذا الوجه من الأنانية.[19]

وقد ذكر النورسي أن الله تعالى قد أدرج في الإنسان عجزًا لا حد له وفقرًا لا نهاية له إظهارا لقدرته المطلقة وإبرازًا لرحمته الواسعة،[20] ولما كان الأمر كذلك فقد أنكر النورسي إعجاب الإنسان بنفسه وتعاظم أنانيته وعجبه وغروره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾؛النساء:٢٨ ولهذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى عجزه وفقره ومسكنته،[21] وليس له الحق في الفخر بما يناله من المواهب والنعم؛ بحيث يعزو ذلك إلى نفسه ويعجب بالشهرة ويهيم وراء المدح والثناء؛ فما هو إلا كالبذرة الصغيرة التي نشأت منها ألوف الثمرات، فليس الثمرات من فعل البذرة ومهارتها؛ ولهذا فإن الإنسان ليس له الفخر بما منحه الله؛ بل عليه الشكر والتواضع والخجل والإستغفار وملازمة الندم؛[22] فالإنسان ضعيف يتألم من الشيء البسيط كما يتألم من زلزلة الأرض وهزاتها ويتألم من الزلزال العظيم يوم القيامة ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية، وما دام الإنسان هكذا ضعيفاً لا حول له ولا قوة فلا ينبغي النظر إلى نفسه؛ بل ينبغي له أن يتجرّد ويظهر افتقاره وعجزه لله ﷻ؛ إذ

لا معبود له ولا رب ولا مولى ولا ملجأ إلا من بيده مقاليد السموات والأرض وزمام الذرات والمجرات وكل شيء تحت حكمه وطوع أمره.

وهذا الإنسان الضعيف له حاجة ماسة دائمًا في التوجه إلى بارئه والتضرع إليه؛[23] لأنه لا تناسب بينه وبين خالقه العلي القدير؛ فالإنسان عجز مطلق وفقر مطلق، أما الخالق فلا نهاية لقدرته وغناه،[24] ومن غايات الحياة عند النورسي إظهار الإنسان لعبوديته أمام عظمة خالقه وإدراك درجات المقدرة الإلهية بموازين العجز والضعف والحاجة المنطوية في النفس؛ إذ كما يدرك الإنسان أنواع الأطعمة ودرجاتها ولذاتها بدرجات الجوع وبمقدار الإحتياج إليها فكذلك تفهم درجات القدرة الإلهية بالعجز والفقر البشري.

وإذا أباح الله تعالى للإنسان النعم فهو بهذه الإباحة لا يصبح مالكًا، ولكن من أعاجيب الإنسان في وقت الغفلة التباس المسائل؛ فيصبح كالمجنون الذي يظن أن ما يصل إليه بصره يمكنه إدراكه ونيله بيده، وكذلك الإنسان الغافل لا تصل يد اقتداره إلى أدنى جزء من أجزاء نفسه فيتطاول بغروره وسعة خياله إلى التحكم في أفعال الله تعالى،[25] والنفس البشرية عند النورسي لها طريقان هما:

طريق الخير؛ وفي هذا الطريق تتجرد النفس لله ﷻ وتتخلى عن أنانيتها وتحس بضعفها، وتعرف أن الإنسان غير فاعل؛ بل هو عاجز عن إيجاد أي شيء؛ إذ هو يقبل الإفاضة عليه فحسب؛ قال تعالى عن هذه النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[الشمس:٩] وحينئذ يترك الإنسان ألوهيته المزعومة ومالكيته وأنانيته[26] وإذا أراد الله بالنفس خيراً بصّرها بعيوبها وضعفها.[27]

٢- طريق الشر؛ وهذا الطريق عندما تتجه إليه النفس يحسّ الإنسان حينئذ أنه فاعل وصاحب فعل؛ وبهذا تكون النفس قد خابت؛ قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾،[الشمس:١٠] وهذه النفس الأخيرة تتولد منها جميع أنواع الشرك والشرور والضلالات؛[28] ولهذا قال النورسي: "من أعجب بنفسه واعتمد عليها فهو شقي."[29]

ولا شك أن غفلة النفس عن المالك الحقيقي سبب مباشر لفرعونية النفس، وهذه النفس غير مالكة حتى لنفسها، ولهذا فإن توهم التملك والأنانية يوقع النفس في ألم أليم ويعرضها للمروق من الدين،[30] والذي يعطيه الله النعم لا يظنن أنه انتخب من دون الناس بل ربما أعطى هذه النعم لأنه أحوج الناس إليها.[31]

ج - علاج القرآن للأنانية عند النورسي:

للذكر أثر فاعل في كبح جماح النفس ونبذ الأنانية عند النورسي؛ إذ إن الحبة إذا ثُقب قلبها لا تتكبر بالتنبت؛ فكذلك حبة الـ ''أنا'' إذا ثقبت بشعاع ذكر الله لا تتعاظم بالأنانية متفرعنة بالغفلة ولا تبارز بالعصيان جبار السموات والأرض،[32] وقد عالج القرآن الكريم عند النورسي مرض الأنانية بعدة أمور[33] هي:

١- قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾النجم:٣٢ أي لا تمدحوها على سبيل الفخر والإعجاب،[34] وهذه دعوة لكبح جماح النفس وتجريدها عن الأنانية؛[35] فالله الذي يستر العيوب هو أعلم بنفوس الناس فلا ينظروا إليها بعين الرضا، أو ينسبوا إليها في ذاتها شيئًا من الكمالات،[36] ولكن الأناني الذي يحب نفسه يضحي بكل شيء من أجلها ويمدحها مدحاً لا يليق إلا بالمعبود ويدافع عنها دفاعاً يشبه العبادة، والنفس البشرية إذا لم تهذّب فإنها تميل إلى الظلم وحب الذات وتتمادى بشكل مخيف فتتحرى المصلحة الفردية والأنانية،[37] والإنسان إذا لم يوجّه نفسه الوجهة الصحيحة فإنها تسفل بالأنانية حتى يكون هو وأصغر ذرة سواء. فللنفس من النقائص ما لله من الكمالات، فلا ينبغي للعبد أن يُزكي نفسه، ولو بلغ فيها من التطهير ما بلغ، ولا يرضى عنها ولو عملت من الأعمال ما عملت؛ فأصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، ولهذا قال الحكماء: ''أصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عن نفسك، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟! وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!''[38]

٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛الحشر:١٩ فنسيان الله هو سبب الأنانية وفرعونية النفس وتوهّم ملكيتها؛ وبذلك ينسى الإنسان نفسه أيضًا ويغفل عنها؛ فإذا فكّر في الموت صرفه لغيره، وهذا الأناني ينسى نفسه أمام التكليف ويتذّكرها في مقام الأجرة والحظوظ؛[39] فهو يتعلّق دائماً بالنعم المحسوسة ويتشبث بها بمعزل عن الله الذي أنعم عليه بها، وكل من لم يعرف إلا المدركات الحسية فقد نسى الله؛ إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسى الله أنساه الله لا محالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقي إلى الأفق الأعلى وخان الأمانة؛ فيكفر حينئذ بنعمة الله ويتعرض لنقمته،[40] وقد كشفت هذه الآية الشريفة عن سنة من سنن الله تعالى: وهي أن من غفل عن تذكر الله فنسيه وألهته دنياه عن العمل للدار

الآخرة أنساه الله نفسه التي بين جنبيه فلا يسعى لما فيه نفعها ولا يأخذ في أسباب سعادتها وإصلاحها ولا يسعى في إزالة عللها وأمراضها التي تفضي بها إلى الفساد والدمار والهلاك. ومعلوم أن أكثر الخلق قد نسوا أنفسهم وضيعوها وأضاعوا حظها، وهؤلاء هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. وأما الرابحون فهم الذين أنار الله قلوبهم للحق فعرفوا الدنيا وقيمتها وعرفوا مقدارها فلم يبيعوا حظهم من الله تعالى والدار الآخرة بها.

٣- قال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾النساء:٧٩ والنفس الأنانية تنسب إلى ذاتها الخير مما يفضي إلى الفخر والعجب؛ وكان الواجب أن ترى هذه النفس في ذاتها القصور والنقص؛[41] فالحسنة تأتي من الله المنعم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾؛النحل:٥٣ فجود الله جود مطلق؛ لا يخلو عنه مخلوق من المخلوقات؛ إذ وسع غناه كل فقر، وعم جوده جميع الكائنات، فما أصاب الناس من نعمة فهو محض فضل الله، وليس بأعمالهم ولا باكتسابهم ولا باستحقاقهم؛ بل إن أعمالهم تضعف عن أن يستحقوا بها هذا الفضل وهذه النعمة؛ ولكن الله هو الذي يتفضل عليهم بالنعم والخيرات والعطاء والصحة؛ فالعبد لا خروج له عن نعمة الله وفضله ومنته وإحسانه؛ ولهذا ذم سبحانه وتعالى من آتاه شيئاً من نعمه فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾القصص:٧٨ وذلك يكون عند إعجاب المرء بنفسه والوقوف عند النعمة ونسيان المنعم، وتحت تأثير بريق المواهب وسلطانها تحدثه نفسه أنه ما أصابته هذه النعمة إلا لما لديه من خبرات وميزات وعلوم، وقد ذكر الله تعالى أن السيئة قد تأتي بسبب ذنوب الإنسان وأوزاره ومعاصيه؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾الشورى:٣٠ ولهذا قال رسول الله ﷺ: "لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب."[42]

٤- قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾القصص:٨٨ والنفس الأنانية تتوهم أنها حرة مستقلة؛ لذا تدعي نوعاً من الربوبية وتضمر عصياناً حيال معبودها الحق، وهي إزاءه زائلة حادثة مفقودة معدومة،[43] إذ إن الموجود الحق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود؛ بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره، والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً؛ فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم، ولا قيوم إلا الله الواحد الأحد، ولا يتصور أن يكون غير ذلك؛ فإذن ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد والكل منه مصدره وإليه مرجعه.[44]

د- نتائج التجرد وعواقب الأنانية:

للأنانية وحب الذات عواقب على نفس صاحبها؛ ومن ذلك الآتي:

١- الأنانية قد تفضي إلى الشرك والكفر عند النورسي؛ إذ إنها تنمو داخل نفس صاحبها رويداً رويداً في خفاء وتسيطر عليه، ثم تنفتح هذه الأنانية إلى أنانية النوع فتنفخ فيه روح العصبية النوعية والقومية، ثم يبدأ الإنسان حينئذ بقياس كل الناس بنفسه؛ فيقسم ملك الله على الأشياء فيتردى في الشرك و﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾،لقمان:١٣ ومعلوم أن اللصّ الذي يسرق مبلغاً كبيراً من المال لابد أن يُرضي أصحابه الحاضرين معه فيعطيهم جزءاً من المال، وهذا المثل ينطبق على هذا الأناني فيقول إنني مالك لنفسي، ولأجل ذلك فلابد أن كل شيء مالك لنفسه، وهكذا تصير الأنانية أسوأ شيء في الوجود وأخطره؛ لأنها تعطل الخالق من صفاته الجليلة حتى يفضي الأمر إلى إنكار وجوده حتى ولو امتلأ الكون بآلاف الشواهد والآيات التي تدل عليه،[45] والأناني ينسب خلق الأفعال إلى غير الله تعالى ويؤمن بأن العلاقة التي تربط بين الموجودات وبين هذه الأفعال إنما هي علاقة سببية بعيدة عن الخلق والتقدير الإلهي؛ ولهذا يرى النورسي أن الإنسان إذا خضع لله ﷻ فإنه يتذكر إنعامه عليه بالإيجاد والخلق والعقل والعلم والإرادة والقوة؛ وبذلك يعرف أن الأنانية تعارض التوحيد؛ والأنانية قد تتحول من مرحلة إلى أخرى حتى تنقلب شركاً وكفراً وتعطيلاً؛ يقول النورسي: ''إن الشرك الخفي الناشئ من الأنانية إذا تصلّب انقلب إلى شرك الأسباب، وهو إذا استمر تحوّل إلى الكفر، وهو إذا دام تبدل إلى التعطيل، والعياذ بالله''[46] ويقول: ''ومن لم يكن خادما له تعالى بحق يصير خادماً للأسباب ومتذللاً للوسائط.''[47]

٢-يتحول العقل عند الأناني إلى عضو مزعج؛ إذ إن الأناني يجعل عقله سبيلاً لهوى النفس ووسيلة إليه؛ فيحمل آلام الماضي ومخاوف المستقبل؛ فيحاول الهروب وينغمس في اللهو إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله، أما المتجرد فهو بخلاف ذلك؛ إذ إنه يستخدم عقله في سبيل الله؛ وبهذا يكون العقل مفتاحاً رائعاً فيفتح خزائن الحكمة الإلهية في كل شيء ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية في الوجود؛ فيرتقي العقل إلى مرتبة مرشد رباني يهيئ صاحبه للسعادة الأبدية، وبهذا يكتسب المؤمن خاصية تليق بالجنة،[48] والعقوبات الدنيوية بسبب المعاصي من مقدمات العقوبات الأخروية، وكذلك يعجل الله لأوليائه الذين تجردوا له وضحوا في سبيله من نفحات نعيم الجنة

وروحها ما يجدونه ويشهدونه بقلوبهم مما لا تحيط به العبارة حتى قال بعضهم: ''إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه فإنهم في عيش طيب؛''[49] ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾؛[النحل:٩٧] فالمؤمن المتجرّد يعيش عيشاً طيباً في الدنيا، والأناني المعرض عن الدين يستولي عليه الحرص والإزدياد من الدنيا ويسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق؛ فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض العارفين: ''لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، وكان في عيشة ضنك؛''[50] ولهذا يقول النورسي: ''إن رسائل النور التي هي تفسير حقيقي للقرآن الكريم ببيان إعجاز معانيه الجليلة تبين أن في الضلالة جحيمًا معنويًا في هذه الدنيا، كما تثبت أن في الإيمان نعيمًا معنويًا في الدنيا أيضًا، وهي تبرهن أن في المعاصي والفساد والمتع المحرمة آلامًا معنوية مبرحة، كما أن في الحسنات والخصال الحميدة والعمل بالحقائق الشرعية لذائذ معنوية أشبه ما تكون بملذات الجنة.''[51]

الأنانية تفضي إلى الإحساس بالاغتراب وتحرم من التمتع بنعمة الحياة، وهذا بخلاف التجرد الذي يتصالح صاحبه مع الكون ويتمتع بالحياة؛ إذ إن الكائنات جميعها تؤدي وظائفها في الكون باسم الله؛ فالبذرة الضعيفة المتناهية في الصغر تحمل شجرة عظيمة ضخمة باسم الله، وجذور كل نبات باسم الله يشق الصخور الصلدة ويثقبها بشعيراته الحريرية؛ فالمتجرد المتوكل على الله يتحرك ويسكن باسم الله؛ كالجندي الذي يتصرف باسم الدولة رغم أنه فرد فلا يخاف ولا يخشى أحداً ويتكلم باسم الدولة والقانون فينجز الأعمال.[52]

٤- الأنانية والتجرد يصبغان الكون؛ فيرى كل من الأناني والمتجرد حسب الذي في داخله، ويضرب النورسي مثالاً لذلك بقصة رجلين: أحدهما أناني مغرور، والآخر رباني متجرد متصالح مع الكون، وقد خرج كلا الرجلين في سياحة إلى بلد معين؛ فالأناني أينما اتجه رأى مناظر مؤلمة مخيفة ورأى كل أحد من أهل البلد عدواً يتربص به الدوائر؛ فظل في عذاب شديد حتى ارتمى في السكر، أما الرباني فقد رأى هذا البلد نفسه في منتهى الروعة والجمال ورأى الناس كلهم مسرورين سعيدين، فقد انعكس ما في داخل كل منهما على ما يراه وبه فسّر كل شيء وقع في نظره.[53]

٥- الأنانية تورث صاحبها العناد وعدم التنازل للآخرين، وقد حكى النورسي قصة حقيقية حدثت له فحلّها بحكمته، إذ يروي أنه عندما كان أسيراً في روسيا ثار في

السجن ضجيج عال وصخب شديد؛ فقال لأصحابه: ''إذهبوا وساندوا المبطل دون المحقّ''؛ فقاموا بذلك؛ فانقطع الصخب والضجيج؛ فسأله أصحابه: لم قمت بهذا العمل الباطل؟ قال: إن المحقّ يكون منصفاً يضحي بحقه الجزئي في سبيل راحة الآخرين التي هي كثيرة كبيرة، أما المبطل فهو على الأغلب مغرور وأناني لا يضحي بشيء فيزداد الصخب.[54] وقد عدّ القرآن الكريم من أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن المداراة العاصمة؛ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾الفرقان:٦٣ أي: إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا؛[55] فالأناني الحريص على الدنيا ينتصر لنفسه حتى وإن علم أنه على خلاف الحق. أما المتجرد فيؤثر متاركة الأناني لما يصيبه من أوضاره وما يجره إليه من حظوظ النفوس الأمارة بالسوء؛ ولهذا فإن هذا المتجرد لله تعالى إن جُهل عليه لم يجهل[56] ولا يلتفت إلى حماقة الحمقى ولا إلى سفه السفهاء؛ فيترفع عن السب والشتم والإستهزاء؛ إذ إنه أكرم وأرفع، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾القصص: ٥٥ والمتجرد يكظم غيظه ولا يكون غرضه الأول هو الإنتصار للنفس ولا يحب طريقة الجاهلين التي تؤذي الآخرين؛ بخلاف الأناني الذي ينتصر لنفسه ولو آذى كل الناس؛ فللجدل سقطات وأحوال تستبد بنفس الأناني وتغريه بالمغالبة وتجعله يتصيد الشبهات التي تدعم جانبه كما يتصيد العبارات التي تروج حجته؛ فيكون حب الإنتصار عنده أهم من إظهار الحق، وهنا تبرز طبائع العناد والأثرة في صور منكرة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: ''إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ،''[57] وقال: ''مَا ضَلَّ قَوْم بَعْد هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَل،''[58] وهذا الحديث يعني أن من ترك سبيل الهدى لم يمش حاله إلا بالجدل والخصومة بالباطل.[59]

ولما كان الأمر على الوجه الذي ذُكر فقد ركز النورسي على التجرد ونبذ الأنانية وكبح جماح الذات على كافة الأصعدة، وقد تناول مسألة ''الأنانية'' في السياسة والعلم وغير ذلك، وقد ترك النورسي السياسة واستعاذ بالله منها لما رأى فيها من أنانية مفرطة، وذكر أنه رأى عالماً عليه علامات العلم يقدح بعالم فاضل ويكيل له الإتهامات بانحياز مفرط؛ حتى بلغ من أمره أن كفّره وأخرجه من الملة؛ وذلك لخلاف بينهما في أمور سياسية ورآه في الوقت نفسه يثني على منافق معروف يوافقه في الرأي السياسي، فأصابت النورسي من هذه الحادثة رعدة شديدة واستعاذ بالله مما آلت إليه الأمور في

السياسة وما أفضت إليه الأنانية؛ فقال قولته الشهيرة: ''أعوذ بالله من الشيطان والسياسة'' ثم انسحب منذئذ من ميدان الحياة السياسية وتركها.[60]

ولا يقتصر أمر الأنانية هذه عند السياسة بل قد يمتد إلى أشرف المسائل كالعلم والمعرفة؛ إذ إن كثيراً من الناس قد يميل إلى السيادة ويدفعه حب التفوق والأنانية المفرطة إلى جعل هذا العلم الشريف المرشد اللطيف الناصح وسيلة قسر وإكراه لاستبداده وتفوقه؛ فبدلاً من أن يخدم العلم يستخدمه، وهذا نوع من الأنانية التي تفضي إلى فساد العلماء.[61] كما أن الأنانية العلمية وعدم الإخلاص لله تعالى قد يولّد حسداً بين العلماء أنفسهم، فيحاول بعضهم الحط من قيمة الجهود العلمية للآخرين حسدا من عند أنفسهم رغم علمهم بقيمة تلك الجهود وتميّزها.[62]

ثانياً: تجرد النورسي ونبذه للأنانية في الواقع العملي.

لما كان منهج النورسي منهجاً عملياً وليست آراء نظرية مجردة فقد ظهر التجرد وظهرت التضحيات في كافة نواحي حياته؛ وتفصيل ذلك كالآتي:

أ- تضحية النورسي من أجل معتقداته وأفكاره:

دعا النورسي إلى نكران الذات والترك الكلي للأنانية وإلى التواضع المطلق؛ وبهذا يكون إخلاص النية والتجرد لله ﷻ؛ يقول النورسي موصيا طلابه: ''إن أخاكم لم يبرز إلى الميدان بالأنانية ولا يجعلكم خادمين لأنانيته بل أراكم نفسه خادما قرآنيا بلا أنانية وقد اتخذ عدم الإعجاب بنفسه ورفض الموالاة لأنانيته مسلكا له، ومع هذا فقد أثبت لكم بدلائل قطعية: أن الآثار التي وضعت بميدان الإستفادة هي أموال أميرية، أعني أنها من ترشحات القرآن الحكيم فلا يستطيع أحد أصلا أن يمتلكها بأنانيته''،[63] وقد رأى النورسي النبي ﷺ في المنام؛ فأخبره النبي ﷺ أنه سيُوهَب له علم القرآن ما لم يسأل أحداً،[64] وبهذا عاش النورسي متجرداً لله تعالى مستغنياً عن الناس، وبهذا خدم القرآن الكريم دون أن يأمل في شيء من الأمور الدنيوية، وإنما كان يطلب الأجر من الله تعالى، وهذا سر إخلاصه ونجاحه كما سيأتي، وقد اتخذ النورسي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم قدوة في التجرد والإستغناء،[65] وكان يكفيه في قوته اليومي قليل من الحساء وكأس من الماء وقطعة من الرغيف،[66] وقد أتاه في رمضان المبارك طعام من بيتين فحاول أكله فأمرضه ذلك الطعام؛ فقال: ''علمت أني ممنوع عن أكل طعام الغير''.[67]

وقد تجرد النورسي لخدمة القرآن، وعندما قال وزير المستعمرات البريطاني ''مادام هذا القرآن بين المسلمين فلن نحكمهم حكماً حقيقياً فلنسع إلى نزعه منهم'' ثار النورسي وغضب وانقلب انقلاباً فكرياً كبيراً وتجرد لخدمة القرآن قائلاً: ''لأبرهننّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاؤها،''[68] ومنذ ذلك الحين سمى نفسه بخادم القرآن؛ فخدمه بهمة عالية وإخلاص كبير وتجرد تام.

وقد حاول أعداء النورسي المستترين استغلال الطمع والخوف والشهرة وغيرها من الأمور التي تفضي إليها أنانية النفوس، إلا أنهم لم يفلحوا مع النورسي ولم ينالوا منه شيئاً؛ لأنه لم يكن يعبأ بشيء مما عندهم لا بإغراءاتهم ولا بتهديداتهم،[69] وقد بدأوا باستغلال ما تتطلع إليه النفوس من شهرة وتطلّع للمراتب أولاً، ولما لم يفلحوا وعجزوا في ذلك قاموا بالإهانة والتحقير والتعذيب، إلا أن ذلك كله لم يؤثر في النورسي ولم يقعده عن مهمته الأساسية وعن إخلاصه وتجرده؛ إذ كان مستعداً للتضحية بكل شيء من أجل خدمة القرآن؛ يقول: ''إن القيام بخدمة الإيمان في هذا الزمان – تلك الخدمة التي تستند إلى سر الإخلاص وتأبى أن تستغل لأي شيء كان– تقتضي عدم البحث عن المقامات المعنوية بل يلزم عدم التفكير فيها أصلاً، وذلك لئلا يفسد سر الإخلاص الحقيقي.''[70]

وعندما سيق النورسي إلى المحكمة العسكرية بسبب أحداث مارس وشاهد جثث خمسة عشر رجلاً مشنوقين؛ قال: ''لو كانت لي ألف روح لكنت مستعداً للتضحية بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة''.

ولما كان الأمر كذلك فقد أوتي النورسي من الشجاعة والإقدام ما جعله لا يخاف أحدا غير الله ولا يرهب ظالماً ولا طاغية؛ بل كان عزيز النفس أبياً؛ يقول: ''أنا لا أطيق ذلاً ولا إهانة بنظرتي وجبلتي فإذا تعرضت لمثل هذا الحال لا أطأطئ رأسي مهما كان الذي يواجهني سواء كان جباراً أشد الناس ظلماً أو قائداً أو عدواً أو سفاحاً للدماء بل ألقى بظلمه ودمويته على وجهه،''[71] وفي حياة النورسي ما يدل على ذلك الأمر، ومنه على سبيل المثال الآتي:

لم يكن النورسي يخاف أحداً في سبيل تنفيذ أوامر الله تعالى وطاعته بل كان يؤثر الموت على الحياة ويواجه الموت بكل تجرد، وعندما كان سجيناً في روسيا جاء القائد العام لجبهة القفقاس نيقولا نيقولا فيج -وهو خال القيصر- إلى السجن

للتفتيش؛ فقام له الأسرى إلا النورسي الذي ظل جالساً؛ فمرّ القائد أمامه ثلاث مرات لينظر أمره؛ فظل النورسي جالساً، وعندما سأله القائد، قال إنه يخدم عقيدته ولا يمكن له تجاوزها؛ فحوكم بالإعدام لإهانة القائد وتحقيره، وعند التنفيذ توضأ النورسي وصلى؛ فعلم القائد إخلاصه وتجرده وصدقه فعفا عنه.[72]

حينما احتلّ الإنجليز إسطنبول سأل رئيس أساقفة الكنيسة الإنكليكية ستة أسئلة لإثارة الشبهات في القرآن وكلف النورسي -وكان عضواً في دار الحكمة الإسلامية- بأن يرد على هذه الأسئلة؛ شريطة الإقتصار على ستمائة كلمة؛ فقال النورسي: ''إن جواب هذه الأسئلة ليس ستمائة كلمة ولا ست كلمات بل ولا كلمة واحدة وإنما بصقة واحدة.''[73]

وقد كان النورسي يرى أن الخوف والذل وإظهار الضعف يشجع الظالمين على الظلم؛ فلو ألقى الظالم أحداً على الأرض وأراد سحقه؛ فإن قبل الرجل ذلك فإنه يسحق قلبه قبل رأسه وروحه قبل جسده ويشجع الظالم على ظلمه بإظهار الضعف له فيهلك عزته وشرفه، وإن بصق المظلوم في وجه الظالم فإنه ينقذ روحه وقلبه وإن مات صار جسده شهيداً مظلوماً؛ ولهذا قال النورسي لطلابه ''ابصقوا على وجوه الظالمين التي لا حياء لها.''[74]

ولم تأت عزة النفس هذه عند النورسي من فراغ؛ إذ إنه كان يأبى المداهنة والمجاملة والتذلل والنفاق؛ لكونه كان قوي الإيمان؛ ولقوة الإيمان أثر فاعل في مثل هذه الأمور؛ يقول النورسي: ''إن للإيمان ثلاث خواص حقيقية، إحداها: عزة النفس، ومن شأن عزة النفس عدم التنزّل للتذلّل، والثانية: الشفقة التي من شأنها عدم التذليل والتحقير، والثالثة: احترام الحقائق ومعرفة قيمتها؛ لأن صاحبها غالي القيمة ذو حقيقة، وللنفاق أيضاً أضداد خواص الإيمان الثلاث؛ فخواص النفاق الناشئة منه: ذلة النفس، والميل للإفساد، والغرور بتحقير الغير، وإذا عرفت هذا فاعلم أن النفاق يولِّد ذلة النفس وهي تنتج التذلل، وهو الرياء وهو المداهنة وهي الكذب. ثم لما كان النفاق مفسداً للقلب وفساده ينتج يُتْمَ الروح؛ أي: عدم الصاحب والحامي والمالك؛ فيتولد الخوف وهو يلجئ صاحبه إلى التستر.''[75]

وقد ضحى النورسي من أجل رسائل النور –وهي أفكاره التي استخرجها من القرآن- تضحيات جسام وتجرد لله تعالى وأخلص النية في عمله، ورغم قوة تأثير

الرسائل وبهاء أسلوبها إلا أن النورسي لم يعزو ذلك إلى نفسه؛ وإنما ذهب إلى أن هذه الأفكار ما هي إلا لمعات ضرب الأمثال التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم، وليس له من حظ فيها إلا الطلب والسؤال من الله تعالى مع شدة الحاجة والفاقة إليه،[76] وكان يقول: ''وما مدحت القرآن بكلماتي ولكن مدحت كلماتي بالقرآن.''[77] وقد بذل النورسي ما في وسعه لكي يكبح نفسه ويصونها من العجب والتطلع إلى الشهرة والتفاخر؛ بل إنه قد جرح طلابه أكثر من مرة لحسن ظنهم بشخصه؛ وكان يقول: ''أنا لست المالك لبضاعة النور؛ بل لست إلا دلّالاً ضعيفًا بسيطًا في حانوت مجوهرات القرآن،''[78] وقد ترك النورسي كل الأمور الدنيوية لأجل خدمة القرآن وكان يقول: ''إنني عازم على أن لا أضحي بالمناصب الدنيوية وأمجادها الزائفة وحدها؛ بل لو أسند إلي –فرضاً– مقامات معنوية عظمى فإنني أضحي بها أيضا لخدمتي للإيمان والقرآن خشية اختلاط حظوظ نفسي بإخلاصي في الخدمة.''[79]

وكان النورسي يقول أنه لا يمكنه قبول حسن الظن المفرط نحوه ومنحه مقاماً عالياً، إلا إذا كان ذلك باسم رسائل النور وخدمتها وكونها داعية إلى جواهر القرآن، أما شخصه الضعيف فليس له أهمية على الإطلاق؛[80] ولهذا نفر النورسي نفوراً شديداً من المدح والثناء وإبداء الإعجاب به؛ لأن ذلك يجلب عليه ضرراً عظيماً؛ إذ يفضي إلى الفخر والغرور،[81] وقد كان النورسي يرى أن حقيقة الإخلاص والتجرد تمنعه من كل ما يمكن أن يكون وسيلة إلى كسب الشهرة أو بلوغ المراتب المادية والمعنوية؛[82] يقول النورسي: ''لأجل طغيان الأنانية وهيمنتها الواسعة في هذا الزمان أرفض حسن الظن المفرط بشخصي الذي يفوق حدي وطوقي؛ لأنني كإخوتي لا أحسن الظن بنفسي، وإن كنت أعلم أن نفسي أهلاً له –حاش لله– فهذا دليل على عدمه... والذي يرى أنه صاحب مقام فالأنانية ربما تتداخل معه.''[83]

والأنانية عند أكثر الناس تدفعهم إلى حب الجاه والإشتهار وأن يكونوا أصحاب شرف وشأن ومقام عند العامة، وهذا منشأ كثير من الأخلاق السيئة؛ وهذا المرض لا يمكن دفعه إلا بالإخلاص الذي هو سر أساسي للإسلام عند النورسي.[84]

وعندما تعرّض النورسي للإهانات والتعذيب والأذى والتحقير حمد الله على سلامة رسائله والتضحية من أجلها؛ يقول –مخاطبًا طلابه–: ''لا تتألموا يا إخوتي على الإهانات والأذى الذي ينزلونه بشخصي بالذات؛ لأنهم لا يستطيعون أن يجدوا نقصاً في رسائل النور؛ فينشغلون بشخصي الإعتيادي المقصر كثيراً؛ فأنا راضٍ عن هذا

الوضع، بل لو أجد ألوفاً من الإهانات والتحقير والآلام والبلايا الشخصية لأجل سلامة رسائل النور وظهور قيمتها لشكرت الله شكرًا مكللاً بالفخر؛ وذلك مقتضى ما تعلمته من رسائل النور؛ لذا لا تتألموا عليّ من هذه الناحية.''[85]

ولشدة تجرّد النورسي فقد كان يرفض العطايا والهدايا وغيرها؛ لأنه يرى أن ذلك منافٍ للإخلاص والتجرّد، وكان يرى أن أخذ الصدقة والهدايا مقابل الأعمال المتوجهة للآخرة يعني قطف ثمرات خالدة للآخرة بصورة فانية في الدنيا، وهو كمبادلة سراج باقٍ بسراج ينطفئ في دقيقة واحدة؛ إذ إن هذه الدنيا هي دار الخدمة وليست دار الأجرة والمكافأة وبناء على هذا السر فإن المتجرد يستطيب الخدمة والمشقة والمصيبة دون أن يشكو؛ [86] يقول النورسي: ''إن التوكل والقناعة والإقتصاد خزينة وثروة لا تبدل بأي شيء، وإني لا أريد أن آخذ المال من الناس فأسد تلك الخزائن والدفائن التي لا تفنى،''[87] وقد جُبل النورسي على القناعة والإستغناء عن الناس؛ يقول: ''كنت أرفض قبول أموال الناس وهداياهم منذ نعومة أظفاري؛ فما كنت أتنازل لإظهار حاجتي للآخرين؛ رغم أنني كنت فقير الحال وفي حاجة إلى المال... ولقد فهمت حكمتها قبل بضع سنين أنها كانت لأجل عدم الرضوخ للطمع والمال ولأجل الحيلولة دون مجيء اعتراض على رسائل النور في مجاهداتها؛ فقد أنعم عليّ الباري ﷻ بتلك الحالة الروحية، وإلا كان أعدائي الرهيبون ينزلون بي ضربتهم القاضية من تلك الناحية.''[88] ولم يكن النورسي يستغني عن الناس فحسب بل كان يعيش حياة البسطاء ويدخر بقية مرتبه لأجل رسائل النور التي ينشرها مجانا.[89]

وحياة النورسي تزخر بأمثلة عديدة للتجرد والتضحية ونبذ الأنانية، وهذا من أهم أسباب نجاح دعوته، إذ قضى حياته متجرداً من كل متاع محروماً من اللذائذ الدنيوية، وقد استغنى عن ما سوى الله استغناء تاماً؛ بل واتخذ هذا الإستغناء مذهباً انتهجه طول عمره؛ ولهذا يبدو واضحًا جدًا أن صفة التجرد قد كان لها أثر كبير في انتشار رسائله، يقول: ''لقد ضحيت بكل شيء وتحملت كل أذى؛ وبذلك انتشرت الحقائق الإيمانية في كل مكان، ونشأ مئات الآلاف؛ بل ربما الملايين من طلاب مدرسة النور ونهلوا من معارفها.''[90]

هذا وقد ضحى النورسي من أجل الأمة الإسلامية وعمل من أجل رفعتها وكان يتألم غاية التألم لآلامها؛ يقول: ''إنني أستطيع أن أتحمّل كل آلامي، ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقتني، إنني أشعر بأن الطعنات التي وجهت إلى العالم الإسلامي وجهت

إلى قلبي أولاً؛ ولهذا تروني مسحوق الفؤاد، ولكنى أرى نوراً سيُنسينا هذه الأيام الحالكة بإذن الله.''[91]

ب- تضحية النورسي من أجل طلابه:

ذهب النورسي إلى أن الأنانية من أخطر الأمور التي تفكك الجماعة، وذكر أن بعض أصحاب الضلالة يحاولون سحب بعض إخوانه؛ مستفيدين من الأنانية والغرور الكامن في الإنسان، وذكر أن أخطر وأضعف عرق ينبض في الإنسان إنما هو عرق الغرور؛ إذ يمكن لأصحاب الضلالة بالتربيت عليه أن يدفعوا الناس إلى كثير من المفاسد؛ ولهذا دعا أصحابه إلى ترك الـ ''أنا'' ولو كانوا على صواب.[92]

وقد تجرّد النورسي عن حظوظ نفسه وضحى من أجل طلابه وإخوته؛ يقول: ''إنني أرضى بجميع المشقات الآتية على شخصي وبكل سرور وامتنان وبكل ما أملك من روح وجسد بل حتى بنفسي من أجل سلامتكم، ويقول: نحن نضحي بأرواحنا رخيصة في سبيل إخوتنا إن استوجب الأمر.'' [93]

وقد سمح النورسي لطلابه بالتبرؤ منه وتحقيره وإهانته إن كان ذلك سينجيهم من عذاب الظالمين، ولكن الأمر كان بالضد من ذلك؛ إذ كان يأتي بنتيجة عكسية، لأن ذلك لا يشفع لهم بل إنه سوف يشجع الظالمين على ظلمهم؛ يقول النورسي موصيًا طلابه في سجن دنيزلي: ''لو كنت أعلم أن تبرؤكم مني ينجيكم من البلاء لكنت أسمح لكم بتحقيري وإهانتي واغتيابي، ولكن القوة الخفية التي تريد سحقنا تعرفكم جيداً ولا تنخدع بمثل هذه الأمور؛ بل تتشجع بسحق أكثر كلما رأت ضعفكم وانسحابكم من الميدان، ثم إن مسلكنا هو الخلة والأخوة فلا سبيل فيه للأثرة وحب الذات والحسد.''[94]

ج- تجرد النورسي وصفحه عن أعدائه:

يذكر النورسي أن الحب والبغض إذا لم يكونا لله استولى على الإنسان النفاق وظهرت فيه الأنانية وحب النفس والإنتصار للذات؛ ويذكر النورسي أن علياً بن أبي طالب ﷺ ألقى كافراً في الحرب على الأرض؛ فلما سلّ سيفه وأراد قطع رأسه بصق عليه ذلك الكافر؛ فتركه ولم يذبحه؛ فلما سأله الكافر عن ذلك؛ قال على: كنت أذبحك لله ولكن لما بصقت عليّ ثار بي الغضب فانتقض إخلاصي لأنه خالطه حظ نفسي؛[95] فالإخلاص ونبذ الأنانية وعدم الانتصار للنفس أمر مهم عند النورسي حتى عند التعامل مع الأعداء.

وقد كان النورسي متسامحاً مع كل الناس حتى مع أعدائه؛ وذلك لتجرده لله تعالى ونبذه للأنانية وحظوظ النفس؛ ولهذا عفا وتنازل عن حقوقه تجاهه الذين عذّبوه طوال الثمانية والعشرين سنة التي قضاها في السجون والمحاكم والمراقبة والزنزانات؛[96] وليس ذلك فحسب بل دعا النورسي طلابه الذين ابتلوا بشتى أنواع البلايا والمصائب وتعرضوا لصنوف العذاب والمتاعب أن يتجاوزوا عمن اقترف المظالم وهضم حقوقهم،[97] وكان يقول: ''أوصي طلابي أن لا يحمل أحد منهم شيئاً من روح الإنتقام في قلبه ولو بمقدار ذرة.''[98]

وقد بلغ النورسي أن مديراً قد أساء له وقال فيه أقوالاً مزيفة مهينة؛ فسامحه النورسي، وقال إن صدق فإنه يدفعني لتربية نفسي وإنقاذها من الغرور؛ لأنه إن كانت في رقبتي عقرب فذكرها أحد لي لزم الشكر له، وإن كذب فذلك معونة لنجاتي من الرياء والشهرة.[99]

ولم يكن صفح النورسي عن أعدائه وعفوه عنهم شيئاً جديداً؛ بل كان أمراً مركوزاً في طبعه المتسامح؛ إذ إنه عندما كان صغيراً في سن الطلب ذهب إلى ''سعرد'' ودخل مدرسة الملا فتح الله أفندي، وظهر فيه الذكاء الخارق مع القابلية للحفظ، وبدأ أستاذه الملا فتح الله بالثناء عليه في جلساته مع العلماء، وانتشر خبره؛ فحسده طلاب العلم، ولما كانوا غير قادرين على منازلته علمياً قرروا منازلته بالعراك وضربه؛ فأنقذه أهل سعرد منهم، ووضعوه في غرفة حفاظاً عليه، ولكن لفرط حبه لأهل العلم دافع عن معارضيه حتى ولو قضوا عليه لئلا يكونوا هدفاً للعوام، وعندما حاول متصرف مدينة ''سعرد'' نفي المعارضين له أبلغ النورسي من أرسلهم بأن يخبروا متصرف المدينة بأنهم يتخاصمون ويتصافون كطلاب ثم إن الخطأ قد صدر منه.[100]

ولما كان النورسي خادمًا للقرآن فقد تيقن أن الله تعالى يدافع عنه وأنه يتحرك تحت إكرام إلهي وحماية ربانية، وقد حاول مديران إدعاء صداقته؛ فتجسسا عليه من أجل ترفيعهما؛ فعُزل الأول وسُجن الآخر في مسألة غير متوقعة.[101]

د- تجرد النورسي بعد موته:

لم يقتصر تجرد النورسي على حياته فحسب؛ بل أراد الله تعالى أن يمتد ذلك إلى موته أيضاً؛ إذ تمنى النورسي أن لا يُعرف مكان قبره عندما يموت، وقد وضح سبب ذلك بأن الغفلة الناشئة من الأنانية وحب الذات في هذا العصر تدفع الناس أن يولوا

اهتمامهم إلى مقام الميت وشهرته الدنيوية؛ مثلما فعل الفراعنة في الزمن الغابر؛ إذ عملوا على تحنيط موتاهم ونصب التماثيل لهم ونشر صورهم رغبة في توجه الأنظار إليهم،[102] ولهذا يقول: ''أوصي بعدم إعلام قبري حفاظاً على سر الإخلاص ولئلا أجرح الإخلاص الذي في رسائل النور.''[103]

وقد دفن النورسي في ''أورفة'' أمام مشهد الآلاف المؤلفة من الناس الذين عرفوا مكان قبره، إلا أن الله تعالى قد حقّق أمنيته رغم ذلك؛ إذ قررت الحكومة الناقمة عليه وبعد خمسة أشهر أن تنقل جثته؛ فأُخرجت الجثة من القبر وهي كاملة لم تتحلل ولم تتغير؛ بل كانت ترتسم على وجهه شبه ابتسامة، ثم نقلت الجثة إلى مكان مجهول لا يعرفه أحد،[104] يقول النورسي: ''لله الحمد لقد أعطاني الله تعالى برحمته -في الخدمة القرآنية والإيمانية- إخواناً؛ بحيث ستؤدي تلك الخدمة في مراكز كثيرة بوفاتي؛ بدلاً عن أدائها في مركز واحد، وإن لساني إن أُسكت بالموت فإن ألسنة قوية كثيرة جداً ستنطلق بدلاً عن لساني وتديم تلك الخدمة؛ حتى يصح أن أقول: كما أن حبة بذر تدخل تحت التراب فتنتج بموتها سنبلة فيباشر مائة حبة بالوظيفة بدلاً عن حبة واحدة، كذلك أتوقع الأمل بأن موتي يكون واسطة لتلك الخدمة أزيد من حياتي.''[105]

النتيجة:

يمثّل التجرد ونبذ الأنانية دستوراً من دساتير القرآن وقسماً مهما من الدين ركّزت عليه النبوة عند النورسي، وذكر أنه أول درس من دروس رسائل النور الذي تلقاه من القرآن الكريم، وأن له ثلاثين عاماً وهو في مجادلة مع طاغوت الـ ''أنا'' في الإنسان، والملاحظ أن خطوات طريق النور نفسها تفضي بصورة مباشرة إلى الإخلاص والتجرد وكبح جماح النفس ونبذ الأنانية، وقد عالج القرآن الأنانية -عند النورسي- بعدة أمور؛ منها: عدم مدح النفس على سبيل الفخر والإعجاب، وعدم نسيان الله تعالى؛ لأن نسيان الله هو سبب الأنانية وفرعونية النفس وتوهّم ملكيتها؛ وبذلك ينسى الإنسان نفسه ويغفل عنها، ومن علاجات القرآن للأنانية عدم نسبة الخير إلى النفس؛ إذ إن ذلك يفضي إلى الفخر والعجب؛ وكان الواجب أن ترى هذه النفس في ذاتها القصور والنقص، ومن هذه العلاجات أيضاً عدم توهم النفس لاستقلاليتها؛ إذ إنها إزاء المعبود الحق زائلة حادثة مفقودة معدومة، ومن عواقب الأنانية عند النورسي أنها قد تفضي إلى الشرك والكفر، وقد يتحول العقل عند الأناني إلى عضو مزعج؛ إذ إن الأناني

يجعل عقله سبيلاً لهوى النفس ووسيلة إليه؛ فيحمل آلام الماضي ومخاوف المستقبل؛ فيحاول الهروب وينغمس في اللهو إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله، والأنانية تفضي إلى الإحساس بالإغتراب وتحرم من التمتع بنعمة الحياة، كما أن هذه الأنانية تصبغ الكون -في نظر صاحبها- بصبغة قاتمة، وهي تورث صاحبها العناد وعدم التنازل من أجل مصلحة الآخرين.

ولما كان منهج النورسي منهجاً عملياً وليس آراء نظرية مجردة فقد ظهر التجرد ونبذ الأنانية في كافة نواحي حياته؛ وبهذا التجرد خدم القرآن الكريم دون أن يأمل في شيء من الأمور الدنيوية، وهذا سر نجاحه، ولم يكن النورسي يعبأ بإغراءات أعدائه ولا بتهديداتهم، وقد ضحى من أجل رسائله التي ذهب إلى أنها لمعات ضرب الأمثال التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم وليس له من حظ فيها إلا الطلب والسؤال من الله، وقد كان النورسي يرى أن حقيقة الإخلاص والتجرد تمنعه من كل ما يمكن أن يكون وسيلة إلى كسب الشهرة أو بلوغ المراتب المادية والمعنوية، وعندما تعرّض النورسي للإهانات والتعذيب والأذى والتحقير حمد الله تعالى على سلامة رسائله؛ وقد كان النورسي متسامحاً مع كل الناس حتى أعدائه؛ وذلك لتجرده لله تعالى ونبذه للأنانية وحظوظ النفس؛ ولهذا عفا عن هؤلاء الأعداء؛ وليس ذلك فحسب بل دعا طلابه الذين ابتلوا بشتى أنواع البلايا والمصائب وتعرضوا لصنوف العذاب والمتاعب أن يتجاوزوا عمن هضم حقوقهم. ولم يقتصر تجرد النورسي على حياته فحسب؛ بل أراد الله تعالى أن يمتد ذلك إلى موته أيضاً؛ إذ تمنى النورسي أن يكون مكان قبره مجهولاً؛ حتى لا يجرح الإخلاص الذي في رسائل النور، وقد كان له ما أراد بكرامة أكرمه الله تعالى بها، وبهذا التجرد انتشرت رسائل النور وبهذا التجرد صار من عظماء الأمة.

* * *

الهوامش:

* جمال الدين عبد العزيز شريف بشير محمد، ولد بمدينة ودمدني /ولاية الجزيرة بالسودان سنة ١٩٦٧م، نال بكالوريوس اللغة العربية /كلية الآداب /جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٩٠م، ونال بكالوريوس الدراسات الإسلامية /كلية القرآن الكريم/ جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ١٩٩٣م، ونال ماجستير البلاغة (الإعجاز القرآني) /كلية اللغة العربية / جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٩٧م ونال دكتوراه التفسير وعلوم القرآن/ جامعة الجزيرة ٢٠٠٣م، عمل رئيسا لقسمي البحوث والتحرير والنشر بمعهد إسلام المعرفة ورئيسا لتحرير مجلة "تفكر"، له أكثر من عشرين بحثاً منشوراً، يعمل أستاذا للتفسير وعلوم القرآن بجامعة الجزيرة.

[1] كايد إبراهيم عبد الحق: أسس التربية ط/١ دار الفكر عمان سنة ٢٠٠٩م، ص ٢٠.

[2] الغزالي: محمد بن محمد، إحياء علوم الدين دار المعرفة، بيروت (د،ت) ٣ / ٦١.

[3] صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط/٣ دار ابن كثير، بيروت، سنة ١٤٠٧ هـ، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١ / ١٤، حديث رقم ١٣.

[4] بديع الزمان سعيد النّورسي، المكتوبات (المكتوب التاسع عشر، الإشارة السابعة عشر) ترجمة الملا محمد زاهد الملازكردي ط/١ ١٩٨٦دار الآفاق الجديد بيروت ص ٢٦٢.

[5] هذه إشارة لحديث سعد بن هشام بن عامر قال أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن أما تقرأ في القرآن قول الله ﷻ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾القلم:٤أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة – القاهرة٦/٩١ حديث رقم ٢٤٦٤٥.

[6] النقلي: محمد منير بن عبده، الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ط/ دار ابن كثير دمشق"د،ت" ١ / ٧٤

[7] وصف الله تعالى خلق النبي ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.القلم:٤

[8] بديع الزمان سعيد النّورسي، اللمعات، اللمعة الحادية عشرة، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط/ القاهرة ١٩٩٣م (اللمعة السابعة عشرة) ص ١٧٥.

[9] بديع الزمان سعيد النّورسي المثنوي العربي النوري تحقيق إحسان قاسم الصالحي ط/٢ مصر ١٩٩٥م، ص ٢٢١.

[10] السيرة الذاتية ترجمة وإعداد إحسان قاسم الصالحي ط/٢ مصر ص ٧٨٥.

[11] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السابع) ص ٥٧٢.

[12] الكلمات (الكلمة الثلاثون) ص ٦٣١وما بعدها.

[13] الكلمات ص ٥٣١ السيرة الذاتية ١٥٨، ١٧٥، ١٧٩.

[14] بديع الزمان سعيد النّورسي إشارات الإعجاز تحقيق إحسان قاسم الصالحي، تقديم محسن عبد الحميد ص ٢٤.

[15] إشارات الإعجاز ص ١٠٦

[16] المكتوبات (القسم التاسع، التلويح السادس) ص ٥٩٢.

[17] المثنوي العربي النوري ص ٢٠٨.

[18] إبن عجيبة: أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد ط/٢ دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ٢٠٠٢ م ـ ١٤٢٣ هـ، ٤٦٩/٧، والزمخشري: محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت) ٤ / ص ٤٧١)، وابن عادل: عمر بن علي: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط/١دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٩٩٨م (ج ١٨ / ص ٤٥٧) .

[19] الكلمات (الكلمة الثلاثون)، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ط/٢ مصر ١٩٩٢م ص ٦٢٥.

[20] اللمعات اللمعة الثانية ص ١٥ المثنوي العربي النوري (حباب) ص ١٩.
[21] المثنوي العربي النوري ١٧٨.
[22] الكلمات (الكلمة الثامنة عشر) ٢٤٨ – ٢٤٩.
[23] اللمعات اللمعة الأولى ص ٥.
[24] المثنوي العربي النوري (ذيل الزهرة) ص ٢٩٢.
[25] المثنوي العربي النوري (حبه) ص ٢٣١.
[26] الكلمات (الكلمة الثلاثون) ص ٦٢٥.
[27] المكتوبات (المكتوب السادس والعشرون، المبحث الرابع) ص ٤٢٥.
[28] الكلمات (الكلمة الثلاثون) ص ٦٢٥.
[29] المكتوبات (المكتوب السادس والعشرون، المبحث الرابع) ص ٤٢٦.
[30] المثنوي العربي النوري ص ١٢٨.
[31] الكلمات الكلمة الثالثة والعشرون ص ٣٥١ – ٣٥٢.
[32] المثنوي العربي النوري ص ١٩٢.
[33] الكلمات الكلمة السادسة والعشرين ص ٥٥٨ وما بعدها.
[34] الجزائري: أبو بكر: جابر بن موسى بن عبد القادر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ط/٥ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٢٤هـ، ٥ / ١٩٦.
[35] البحر المديد – (ج ٧ / ص ٣٥٨) .
[36] البحر المديد – (ج ٧ / ص ٣٦٠) .
[37] بديع الزمان سعيد النّورسي، السنوحات ص ٣٤٥.
[38] البحر المديد ٢ / ٧٧.
[39] المكتوبات (المكتوب الأول، السؤال الرابع) ص ١٥، الكلمات الكلمة السادسة والعشرين ص ٥٥٨ وما بعدها.
[40] إحياء علوم الدين ٤ / ٢٩.
[41] الكلمات الكلمة السادسة والعشرين ص ٥٥٨ وما بعدها.
[42] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب سورة حم عسق ٥ / ٣٧٧ حديث رقم ٣٢٥٢.
[43] الكلمات الكلمة السادسة والعشرين ص ٥٥٨ وما بعدها.
[44] إحياء علوم الدين – ٤ / ٨٦، والمكتوبات (المكتوب الخامس عشر) ص ١٠١.
[45] الكلمات (الكلمة الثلاثون) ص ٦٢٥.
[46] المثنوي العربي النوري ص ٣٠٣.
[47] إشارات الإعجاز ص ٢٥.
[48] الكلمات الكلمة السادسة ص ٢١ – ٢٥.
[49] الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٥٩.
[50] الجامع لأحكام القرآن – (ج ١١ / ص ٢٥٩) .
[51] الخطبة الشامية (نهج رسائل النور في التبليغ) .
[52] الكلمات الكلمة الاولى ص ٣ – ٦.
[53] الكلمات الكلمة الثانية ص ١٠ – ١٣.
[54] السيرة الذاتية ص ٢١٠.
[55] إحياء علوم الدين ٢ / ١٧٣.

[56] إحياء علوم الدين ٣ / ١٧٧.

[57] صحيح البخاري البخاري، كتاب المظالم، باب إذا أذن إنسان لآخر شيئا جاز ج ٢ / ص ٨٦٧) حديث رقم ٢٣٢٥، وصحيح مسلم مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، ط/ دار الجيل بيروت،(د.ت). كتاب العلم، باب في الألد الخصم ج ٨ / ص ٥٧) حديث رقم ٦٩٥١، وسنن النسائي الكبرى النسائي: أحمد بن على بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، ط١دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م، كتاب القضاء، باب الألد الخصم ٣ / ص ٤٨٣) حديث رقم ٥٩٨٧، ومسند أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ٦ / ص ٦٣) حديث رقم ٢٤٣٨٨.

[58] ابن ماجة: محمد بن يزيد: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط/دار الفكر، بيروت (د. ت)، ١ / ١٩، حديث رقم ٤٨، والترمذي: محمد بن عيسى: الجامع الصحيح ''سنن الترمذي''، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، ط/دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت). ٥ / ص ٣٧٨ حديث رقم ٣٢٥٣ مسند أحمد بن حنبل ٥ / ص ٢٥٢ حديث رقم ٢٢٢١٨.

[59] المناوي: زين الدين عبد الرؤوف التيسير بشرح الجامع الصغير، ط/٣ مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٢ / ٦٨١، وزين الدين عبد الرؤوف المناوي فيض القدير، ط/١ دار الكتب العلمية بيروت، سنة ١٩٩٤ م، ٥ / ص ٥٧٩) .

[60] المكتوبات (المكتوب الثاني والعشرون، المبحث الأول) ٣٤٤.

[61] السيرة الذاتية ص ٨٢٤.

[62] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس) ص ٥٥٩.

[63] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس) ص ٥٨٨.

[64] السيرة الذاتية ص ٧١.

[65] المكتوبات (المكتوب الثاني) ص ١٥.

[66] السيرة الذاتية ص ٤٥.

[67] المكتوبات (المكتوب السادس عشر) ١١٢.

[68] السيرة الذاتية ص – ١٠٥ – ١٠٦.

[69] المصدر السابق ص ٦١٦.

[70] السيرة الذاتية ص ٦١٧.

[71] المصدر السابق ص ٧٥٥.

[72] المصدر السابق ص ٢١٢.

[73] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس) ص ٥٤٦.

[74] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس) ص ٥٤٥.

[75] إشارات الإعجاز ص ١٠٩.

[76] السيرة الذاتية ص ٢٩٥.

[77] المكتوبات (المكتوب الثامن والعشرون، المسألة السابعة) ص ٤٨١.

[78] السيرة الذاتية ص ٦٤٦.

[79] المصدر السابق ص ٦٤٦.

[80] ملحق قسطموس ص ١١.

[81] ملحق بارلا ص ٣.

[82] السيرة الذاتية ص ٦١١.

[83] المصدر السابق ص ٦١٥.
[84] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس) ٥٣٩- ٥٤١.
[85] السيرة الذاتية ص ٦٨٨.
[86] المكتوبات (القسم التاسع، التلويح السادس) ص ٥٩٣-٥٩٤.
[87] المكتوبات (المكتوب الثاني) ص ١٩.
[88] السيرة الذاتية ص ٨١٤.
[89] المصدر السابق ص ٢١٧.
[90] المصدر السابق ص ٧٣١.
[91] المصدر السابق ص ٢٢١.
[92] المكتوبات القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرون ٥٤٨ – ٥٥١.
[93] السيرة الذاتية ص ٧٠٠.
[94] المصدر السابق ص ٥٧٧.
[95] المكتوبات (المكتوب الثاني والعشرون، المبحث الأول) ص ٣٤٤.
[96] السيرة الذاتية ص ٧٣٠.
[97] المصدر السابق ص ٧٣١.
[98] المصدر السابق ص ٧٣١.
[99] المكتوبات (المكتوب السادس عشر، النقطة الثالثة) ص ١٠٩.
[100] السيرة الذاتية ص ٨٣ – ٨٤.
[101] المكتوبات (المكتوب السادس والعشرون، المبحث الرابع) ص ٤٣٧.
[102] السيرة الذاتية ص ٨٠٨.
[103] المصدر السابق ص ٨٠٨.
[104] المصدر السابق ٨٠٦ – ٨٠٨.
[105] المكتوبات (المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس) ص ٥٥٧.

بديع الزمان سعيد النورسي
ومشروعه الإصلاحي في التربية والتعليم

ذ.حسن إزرال*

مقدمة

إذا كان أهل السياسة يصنعون الأحداث أو تصنعهم الأحداث لزمن ثم يأفلون، فإن رجال الفكر والذكر ودعاة الإصلاح الحقيقيون من المسلمين يُكتب لهم الخلود والحياة في ضمائر الأمم، لارتباطهم الدائم بالقرآن الكريم واعتصامهم بحبله المتين واستمدادهم من أنواره، وحملهم دعوته للناس ليتمثلوه في كل وقت وحين، فهؤلاء هم حملة رسالة الأنبياء يسيرون على هدي النبوة ويقتبسون منها ويتمثلون قول رب العزة في حق نبيه سيدنا محمد ﷺ: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إلى الله بإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً.﴾ الأحزاب :٤٦

وبديع الزمان سعيد النورسي واحد من هؤلاء الرجال أولياء الله تعالى جمع بين الذكر والجهاد وعاش مع القرآن وللقرآن بدمه ولحمه فأفاض عليه القرآن من كنوزه وفيوضاته التي لا حد لها، وحياته اختصرها في جملة واحدة هي: ''حياتي بذرة لخدمة القرآن''.[1]

خادم القرآن السعيد مضى على هذا الطريق علما من أعلام الدعوة خلّف تراثاً وربّى جيلا، هم ''طلبة النور''، وقضى مجاهدا من سجن إلى سجن ومن حصار إلى حصار.

لم تقعد به همته السامقة ''رغم الأذى'' عن الكتابة والتأليف وإلقاء الدروس حتى أيامه الأخيرة، فألّف برسائل النور رجالا مازالوا على العهد.

التعريف بشخصية بديع الزمان وعصره

(١٢٩٥هـ ١٨٧٨م – ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م)

لن أقف عند كل الأحداث التفصيلية التي عاشها السعيد فهي مذكورة في كتبه بتفصيل، بل سأركز في هذا المبحث على المحطات الكبرى في حياته وماله علاقة بمشروعه الإصلاحي.

كان النورسي رحمه الله ممن أشرقت بدايتُه فأشرقت نهايتُه، ظهرت عليه علامات النبوغ في الصبا والرجولة المبكرة وصفات الإباء وشيم العزّة الإيمانية.

عاش في بيئة صالحة، هكذا الأبوة الصالحة والأمومة أيضا باقية في الأعقاب مُورِثة لسلامة الفطرة ما هي إنجاب جسوم فحسب.[2]

بعد مرحلته التعليمية الأولى على يد أخيه الملا عبد الله، تنقّل في المدن والقرى وبين الأساتذة والمدارس لتلقي العلوم الإسلامية من مصادرها المعتبرة بشغف عظيم، ولقد عُرف بذكاء خارق وحافظة قوية، شهد له بها جميع أساتذته بعد امتحانات صعبة ومتكررة.

حفظ كتبا عن ظهر قلب، منها كتاب ''جمع الجوامع'' في أصول الفقه في أسبوع واحد والقاموس المحيط في اللغة العربية إلى حرف السين.

إنكب سنة ١٨٩٤م على دراسة كتب العلوم الرياضية والفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة والتاريخ، حتى أصبح رائدا من روادها فسمي من أجل ذلك ببديع الزمان، حتى إن بعض العلماء شهد بأن ما عند النورسي من علم هو علم وهبي وليس علما كسبيا.

ولما سمع من الصحف المحلية تصريح وزير المستعمرات البريطانية غلادستون في مجلس العموم البريطاني وبيده نسخة من القرآن الكريم قائلا: ''ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكم المسلمين لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به''.[3]

تألم النورسي لهذا الخبر كثيرا وأدرك خطورة ما يبيته الغرب للإسلام، فتوجه إلى إسطنبول عام ١٩٠٧م وقدم مشروعه لإنشاء جامعة إسلامية شرق الأناضول تقوم بمهمة نشر حقائق الإسلام ودعوة المسلمين للأخذ بأسباب الرقي والتقدم الحضاري والعلمي، فلم يحض طلبه هذا بالقبول.

١- انخراط سعيد النورسي في المجال السياسي واهتمامه بأحداث العالم الإسلامي وانضمامه إلى جمعية الاتحاد المحمدي وقبوله بفكرة الإتحاد الإسلامي:

قال سعيد النورسي: ''فأنا أحد أفراد هذا الإتحاد ومن الساعين لرفع رايته وإظهار اسمه... ولست من الأحزاب والجمعيات التي تسبب الفرقة بين الناس.''[4]

وذكر بأن أسلافه في مسألة الدعوة إلى الوحدة: الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ومن العلماء الأعلام علي سواعي والعالم تحسين، وغيرهم ممن دعا إلى الإتحاد الإسلامي وعلى رأسهم السلطان سليم، الذي قال: ''إن مغبة الإختلاف والتفرقة يقلقاني حتى في قبري، فسلاحنا في دفع صولة الأعداء إنما هو الإتحاد ما لم تتحد الأمة فإني أتحرق أسى.''[5]

الحاصل إن عصر الأستاذ النورسي رحمه الله عرف اضطرابا سياسيا وتفككا عاما نخر في جسم الدولة العثمانية لأسباب داخلية وأخرى خارجية متنوعة. كانت أوربا الإستعمارية قد خططت لابتلاعها وأسمتها ''الرجل المريض''.

ولقد بذل السلطان عبد الحميد الثاني وسعه في سبيل المحافظة على الوضع الراهن والتفكير الجدي في إيقاظ الأمة وإنقاذ الدولة، لكن محاولاته كانت أضعف من أن تلقى صدىً أمام الظروف السياسية والحضارية وأمام الكيد الخارجي الذي استعمل ضعاف النفوس والخونة وسيلة لتسريع عملية السقوط، وقد تمثلت في جمعية الاتحاد والترقي.

حاولت جمعية الإتحاد والترقي ضم سعيد النورسي إلى صفها لكن هذا الأخير فوّت عليهم الفرصة ووصفهم بأنهم المعتدون على الدين المولون ظهورهم إلى الشريعة، فهاجمهم الأستاذ في كتاباته وكشف عن مخططاتهم.[6]

عاصر النورسي دعاة على أبواب جهنم، هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، تربى على أفكار داعية التغريب والإنسلاخ عن الدين ''ضياء كوك ألب'' الذي كان يتنبأ بسقوط الدولة العثمانية.

فلما وصل الطاغية العسكري إلى الحكم بعد أن قاوم الجيوش الأوربية بنجاح، سنّ لمن بعده من الطواغيت سنة الجرأة على الدين وسفك دماء المسلمين، وتحويلهم بقهر السلطان عن الملة حتى قوض ذلك البناء الذي كان يوما شوكة الإسلام.

تأله هو ودعا الناس إلى عبادة الإله الأعظم الجديد ممثلا في الحضارة الغربية بكهربائها وعلومها وصنائعها وسلاحها ونظامها وخمرها ودعارتها.

أعدم العلماء، فرض تغيير اللباس، حرم العمامة على الرجال والحجاب على النساء.

قرر أن يقطع صلة تركيا بالإسلام فحرم الحرف العربي وفرض الحرف اللاتيني.

الآن وقد مضى سبعون عاما على هذه الجريمة الشنيعة، أبى الله ﷻ إلا أن يبعث في الدعوة الإسلامية، التي لم تمت يوما، حياة جديدة...[7]

٢- سعيد النورسي رجل يزن أمة:

كان للرؤيا الصالحة دور كبير في توجيه حياته وسلوكه إلى الله، وحصلت له أزمة روحية حادة أنتجت إنقلابا كليا في حياته، قال شيخه الكيلاني قدس الله روحه: ''التوبة قلب دولة''.

قال السعيد أسعده الله: ''ففي سنة ١٣٣٩هـ مررت بأزمة روحية حادة واعتراني قلق قلبي رهيب وانتابني اضطراب فكري مخيف فاستمددت حينها من الشيخ الكيلاني مددا قويا جدا فأمدني بهمته وبكتابه 'فتوح الغيب' حتى جاوزت ذلك القلق والاضطراب''.[8]

فبدأت تتوحد لديه الوجهة وبدأ يفصل بين مرحلتين من حياته: سعيد القديم، وسعيد الجديد الذاكر الخادم للقرآن الذي تلقى درس الحقيقة على طريقة أويس القرني من الإمام علي ﷺ بوساطة الشيخ الكيلاني قُدِس سره والإمام زين العابدين والحسن والحسين ﷺ.[9]

السعيد الجديد الذي بفضل يقظته القلبية وبركة خدمة القرآن يزن أمة: ''أما إذا كان خوفكم من مهنتي التي هي الدعوة إلى القرآن ومن قوة الإيمان التي أتسلح بها، ألا فلتعلموا جيدا بأنني لست في قوة خمسين ألف رجل، كلا... إنكم مخطئون إني بفضل الإيمان وبحكم مهنتي في قوة خمسين مليون شخص إني بقوة القرآن أتحدى أوربا كلها بما في ذلك ملاحدتكم''.[10]

٣- مشروعه الإصلاحي في التربية والتعليم:

تتداخل كلمة تربية وتعليم ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، وإنما غلبنا في التقديم كلمة تربية ليس استخفافا بالعلم وإنما لما للقدوة من دور كبير في حياة التلميذ أو المربي.

والتربية لها أركان أربعة:

المربي والمربى، ومضمون التربية ووسائلها. لقد وجدنا الإمام النورسي رحمه الله يحدثنا عن هذه النقطة بإلحاح معلنا كيفية ميلاده الجديد.

فقال: ''هوت صفعات عنيفة قبل ثلاثين سنة على رأس 'سعيد القديم' الغافل، ففكّر في قضية أن ''الموت حق''. ووجد نفسه غارقاً في الأوحال... إستنجد، وبحث عن طريق، وتحرى عن منقذ يأخذ بيده... رأى السبل أمامه مختلفة... حار في الأمر وأخذ كتاب ''فتوح الغيب'' للشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ وفتحه متفائلاً، ووجد أمامه العبارة الآتية:

أنت في دار الحكمة فاطلب طبيباً يداوي قلبك... يا للعجب! لقد كنت يومئذ عضواً في 'دار الحكمة الإسلامية' وكأنما جئت إليها لأداوي جروح الأمة الإسلامية، والحال أنني كنت أشد مرضاً وأحوج إلى العلاج من أي شخص آخر... فالأولى للمريض أن يداوي نفسه قبل أن يداوي الآخرين.

نعم، هكذا خاطبني الشيخ: أنت مريض... إبحث عن طبيب يداويك!

قلت: كن أنت طبيبي أيها الشيخ!

وبدأت أقرأ ذلك الكتاب كأنه يخاطبني أنا بالذات... كان شديد اللهجة يحطم غروري، فأجرى عمليات جراحية عميقة في نفسي... فلم أتحمل، ولم أطق تحمله... لأني كنت أعتبر كلامه موجهاً إليّ.

نعم، هكذا قرأته إلى ما يقارب نصفه... لم أستطع إتمامه... وضعت الكتاب في مكانه، ثم أحسست بعد ذلك بفترة بأن آلام الجراح قد ولّت وخلفت مكانها لذائذ روحية عجيبة... عدت إليه، وأتممت قراءة كتاب 'أستاذي الأول'. واستفدت منه فوائد جليلة، وأمضيت معه ساعات طويلة أصغي إلى أوراده الطيبة ومناجاته الرقيقة.

ثم وجدت كتاب 'مكتوبات' للإمام الفاروقي السرهندي، مجدد الألف الثاني فتفاءلت بالخير تفاؤلاً خالصاً، وفتحته، فوجدت فيه عجباً... حيث ورد في رسالتين منه لفظة 'ميرزا بديع الزمان' فأحسست كأنه يخاطبني باسمي، إذ كان إسم أبى 'ميرزا' وكلتا الرسالتين كانتا موجهتين إلى ميرزا بديع الزمان. فقلت: يا سبحان الله... إن هذا ليخاطبني أنا بالذات، لأن لقب سعيد القديم كان بديع الزمان، ومع أنني ما كنت أعلم أحداً قد اشتهر بهذا اللقب غير 'الهمداني' الذي عاش في القرن الرابع الهجري. فلابد أن يكون هناك أحد غيره قد عاصر الإمام الرباني السرهندي وخوطب بهذا اللقب،

ولابد أن حالته شبيهة بحالتي حتى وجدت دوائي بتلك الرسالتين... والإمام الرباني يوصي مؤكداً في هاتين الرسالتين وفي رسائل أخرى أن: 'وحّد القبلة' أي: إتبع إماماً ومرشداً واحداً ولا تنشغل بغيره!

لم توافق هذه الوصية -آنذاك- إستعدادي وأحوالي الروحية... وأخذت أفكر ملياً: أيهما أتبع! أ أسير وراء هذا، أم أسير وراء ذاك؟ إحترت كثيراً وكانت حيرتي شديدة جداً، إذ في كل منهما خواص وجاذبية، لذا لم أستطع أن أكتفي بواحد منهما.

وحينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة... إذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي:

- إن بداية هذه الطرق جميعها... ومنبع هذه الجداول كلها... وشمس هذه الكواكب السيارة... إنما هو 'القرآن الكريم' فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلاّ في القرآن الكريم.''[11]

أتيت بهذا النص على طوله قصدا لما يحمله من معان جليلة لا يدرك حقيقتها إلا من ولدت روحانيته ونشأ النشأة الثانية التي يكون بها الولي وليا.

فحديث النورسي عن الميلاد الجديد وعن أبوة شيخه وعن سلسلة آبائه الروحيين حقيقة أقوى في عالم المعنى من النسب الطبيعي والإنتساب الجسمي، وحتى إن شب الولي عن الطوق كما حصل لسعيدنا السعيد واتصل حبله بقرب الله ﷻ وبروح رسول الله ﷺ فإنه لا ينسى آباءه في الروح أبدا، وكيف ينسى الأحرار فضل من جعلهم الله رحمة ورحما.[12]

يقر الأستاذ بديع الزمان بنعمة المولى عليه، فيقول: ''إن كان لأهل الدنيا حكم وسطوة وقوة ففي خادمه 'خادم القرآن' بفيض القرآن علم لا يلتبس وكلام لا يسكت وقلب لا ينخدع ونور لا ينطفئ''. [13]

''أقول تحديثا بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين''[14]

يحصل مثل هذا وأكثر منه لأولياء الله إن صح لهم التعامل الصريح مع الله ﷻ فما لرأي الخلق عندهم من وزن صدقوا أم كذبوا رضوا أم سخطوا وحديث الولاية شاهد على ذلك.

مبدأ الصحبة في التربية:

لا عجب أن يجتذب قلب منور بالله كقلب النورسي تلك القلوب التي أحبّته أشد ما يكون الحب فأخذت القلوب منه الدين والإيمان والحب في الله والبغض في الله...

لقد أدرك النورسي بعلم اليقين حقيقة حديث رسول الله ﷺ ''المرء على دين خليله فلينظر أحدُكم من يخالل''.[15] أن الصحبة تشرّب قلبي وقدوة ماثلة وتعلم وتعليم.

وأكد على بناء الإخلاص في النفوس يقول صاحب رسائل النور: ''لما كان مسلكنا يستند على الإخلاص ومبني على الحقائق الإيمانية، فإننا مضطرون إلى عدم التدخل في أمور الحياة الإجتماعية والحياة الدنيوية ما لم نضطر إليها''.[16]

واقتنع بأن المطلوب وفقه الوقت هو اكتساب الإيمان وتربيته في القلوب قبل النظر في أمور الحياة الاجتماعية.

قال رحمه الله: ''كنت سابقا أقول أن فساد الشرق نابع من تعرض عضو منه للمرض، لكن لما شاهدت إسطنبول مريضة وجسست نبضها وشرحتها أدركت أن المرض هو في القلب وسرى منه إلى جميع الجهات''.[17]

رسائل النور موضوعها التربية الإيمانية:

يلحظ الخبير برسائل النور أنّها مصنفات غزيرة بالتربية مضمونا وأسلوبا، ورأس النجاح في هذا المقام الإقتناع بأنّ القرآن الكريم مصدر الحقيقة المفردة المزاوجة بين التربية والمعرفة، لهذا يؤكّد الأستاذ أنّ ''مسلك رسائل النور ليس هو مسلك الطريقة الصوفية بل هو مسلك الحقيقة، فهو مسلك مقتبس من نور مسلك الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان''.[18]

علم الكلام الجديد في رسائل النور والتربية على الفعالية الإيمانية:

أوجد الإمام النورسي علم كلام جديد مصدره القرآن ونقل علم التوحيد القديم من نظريات فكرية وجدل بين الطوائف إلى سلوك جسّده طلبة النور، نتركه يكشف عن الدور التربوي لعلم الكلام الجديد في الفعالية الإيمانية، وفي ذلك أظهر ما يميّز رسائل النور عن كتب الكلام وفق مسالك القدماء.

قال: ''إن قسما من مصنفات العلماء السابقين وأغلب الكتب القديمة للأولياء الصالحين تبحث في ثمار الإيمان ونتائجه... لأنه لم يكن في عصرهم هجوم سافر

يقتلع جذور الإيمان وأسسه... أما الآن فإن هناك هجوما عنيفا جماعيا منظما على أركان الإيمان وأسسه لا تستطيع أغلب تلك الكتب... أن تصد هذا التيار الرهيب القوي لهذا الزمان ولا أن تقاومه.''

فتلخّصت مهمة رسائل النور، لكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم، في السعى إلى إنقاذ الإيمان وتثبيته وتحقيقه وحفظه في القلوب بدلائل كثيرة وبراهن ساطعة، بقصد بعث التربية الإيمانية الفعّالة.

وقاعدة فعالية التربية الإيمانية، سلوك طريق الجمع بين العقل والقلب في مجال التربية والتعليم، وهو ما تبناه الأستاذ ورافع عنه وجسّده، يشهد لهذا قوله: ''سلكت طريقا غير مسلوك بين العقل والقلب، إنّ عقلي قد يرافق قلبي في سيره فيعطي القلبُ مشهودَه الذوقي ليد العقل؛ فيبرزه العقلُ على عادته في صورة المبرهَن التمثيلي.[19]

ولله الحمد كان القرآن هو مرشدي وأستاذي في هذا الطريق.

نعم! مَن استمسكَ به استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.[20]

...لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول. كلا! بل فيض أفيض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، بالإستمداد من القرآن الكريم، ولا تظنه أيضاً شيئاً سيالاً تذوقه القلوب وهو يزول. كلا! بل أنوارٌ من حقائق ثابتة إنعكست على عقلٍ عليلٍ وقلبٍ مريضٍ ونفسٍ عمي...[21]

إني ما أدري كيف صار عقلي ممزوجاً بقلبي، فصرت خارجاً عن طريق أهل العقل من علماء السلف وعن سبيل أهل القلب من الصالحين، فإن وافقتهما فبها ونعمت وإن خالفتُ في كلامي أي السبيلين منهما فهو مردود عليّ.''[22] عقل يستمد من عقل، هذا أمر يسلم به الجميع، لكن رسائل النور كانت تكشف عن حقيقة استمداد قلب من قلب بالمحبة والمخالطة والتعاون على سلوك الطريق المقربة إلى الله، والدعاء الرابط بين القلوب، يقول سعيد النورسي: ''أما أخوكم في الآخرة فهو معكم صباح مساء في الدعاء والتضرع إلى المولى الكريم.''[23]

ثناء الإمام النورسي على رسائل النور وحضه طلاب النور على قراءتها:

يبرز الأستاذ النورسي رحمه الله قيمة رسائل النور بقوله: ''إن رسائل النور تقوم بإيفاء وظيفتها أفضل مني عشر مرات... لذا لم يعد هناك حاجة لوجودي'' قالها عند قرب وفاته ورحيله.[24]

قراءة الرسائل عبادة فكرية ومجالسة له بل إنها تغرق قارئها في بحر النور وتبدد الغفلة عنه، قال النورسي في رسالته لأحد طلبة النور: ''تذكرون في رسالتكم إنكم كلما قرأتم موازين رسائل النور إستفدتم أكثر، نعم يا أخي إن تلك الرسائل قوت وغذاء لأنها مستقاة من القرآن الكريم... فلا يسأم من القراءة من انكشفت روحه وانبسط قلبه من أمثالكم.[25]

التفكر والتدبر وسيلة من الوسائل التربوية لاستنبات الإيمان في القلوب:

يمثل مسلك التفكر والتدبر قطب الرحى في التربية الإيمانية عند النورسي رحمه الله معتمدا في ذلك على توجيهات القرآن الذي يخاطب الإنسان كل إنسان بالتفكر والتدبر، قال الأستاذ: ''وعندما انقلب سعيد القديم إلى سعيد الجديد قبل ثلاثة وعشرين عاماً، سالكاً مسلك التفكر، بحثتُ عن سرّ 'تفكرُ ساعةٍ خير من عبادة سنة'[26]. وفي كل عام أو عامين كان ذلك السرّ يغيّر من شكله فينتج إما رسالة عربية أو رسالة تركية. وقد دامت تلك الحقيقة وهي تتلبّس الأشكال المختلفة إبتداء من رسالة 'قطرة' العربية، وانتهاء إلى رسالة 'الآية الكبرى'، حتى أخذت شكلها الدائمي في 'الحزب النوري'.[27] ومنذ عشرين عاماً، كلما تملّكني الضيق وأصاب الفكرَ والقلبَ إرهاقٌ، ولجأت إلى قراءة قسم من ذلك الحزب بتأمل، فإذا به يزيل ذلك الضيق والسآمة والإرهاق. وقد تكرر ألف مرة، ومع ذلك لم يترك أي أثر للملل والتعب -الناتجين عن الإنشغال طوال خمس أو ست ساعات من الليل- بقراءة سُدس ذلك الحزب قبيل الفجر. نعم إن هذه الحال تدوم حتى الآن.''[28]

الدعاء والتربية الإيمانية:

الدعاء وسيلة من وسائل تقوية الإيمان في المنهج التربوي عند سعيد النورسي، فتكلم في هذا الموضوع من خلال الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾[الفرقان:٧٧] فأفاض في هذا الموضوع بما فتح الله عليه وذكر تقسيمات دقيقة وذكر أسرار الدعاء وجعل إمام كلامه حديث رسول الله ﷺ: ''الدعاء مخ العبادة'' إن الدعاء روح العبادة ومخها وهو نتيجة إيمان خالص لأن الداعي يظهر بدعائه أن الذي يهيمن على العالم كله ويطلع على أخفى أموري ويحيط بكل شيء علما هو القادر على إغاثتي وإسعاف أبعد مقاصدي وهو البصير بجميع أحوالي والسميع لندائي لذا فلا أطلب إلا منه وحده فهو يسمع أصوات الموجودات كلها ولا بد أن يسمع صوتي ونداءي أيضا، وهو الذي يدير الأمور كلها فلا أنتظر تدبير أدق أموري إلا منه وحده.[29]

إن الدعاء عند النورسي يهب لأصحابه التوحيد الخالص وينتج حلاوة الإيمان وصفائه فما عليك إلا أن تغوص في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾. الفرقان:٧٧

ذكر الآخرة في رسائل النور:

حديثه عن الآخرة هو الأصل الأساس في التربية على تثبيت الإيمان، فهو يتحدث في رسائل النور عن الآخرة بل ذهب إلى تسمية طلاب النور بإخوان الآخرة، بل رسائله معظمها: ''فلان أخ الآخرة''.

الدعوة إلى الرفق:

قال سعيد النورسي: ''إننا مكلفون بالتضحية بحياتنا وكرامتنا وسعادتنا الدنيوية في سبيل الحفاظ على التساند الذي هو الرابطة الوثقى لرسائل النور، وبهذا تسكتون النفس الأمارة... لا تتشددوا، أوغلوا برفق، الناس ليسوا سواسية في المشارب...''[30]

ويضيف قائلا ينبغي لطلاب رسائل النور سلوك المصالحة... ''إياكم وإياكم أن تتعرضوا لصلاة الجماعة والجمعة -حيث كان الآذان والإقامة والخطبة بالتركية- وللعلماء ولا تنتقدوا المشتركين فيها''. أما قول الإمام الرباني: ''لا تدخلوا مواضيع البدع؛ فالمقصود لا ثواب فيها وليس معناه بطلان الصلاة لأن قسما من السلف قد صلوا خلف يزيد والوليد...''[31] بحكم تجربة السعيد أيقن بأن الفقه بلا إرادة خيال وحلم وإرادة بلا فقه تؤول إلى تخبط عنيف، موجة عارمة ثم تنكسر انتفاضة غاضبة تهدم لكن لا تبني جعجعة ولا طحن كان سعيد النورسي يخشى أن يثور الشعب لقضية لا يستطيع أن يتحكم فيها وتكون مفاسدها أكثر من مصالحها.

تعلم خادم القرآن السعيد أسعده الله أن في التنزيل كان الرفق والتدرج والمعاناة وتحمل الأنبياء للأذى فتمثل ذلك ودعا طلبة النور إلى الصبر والتحمل.[32]

خلاصة:

خلاصة الأمر لقد أدرك النورسي بثاقب فكره وتجربته وبفضل الله عليه أن الإصلاح ليس جهاد جيل وانتهى الرحيل وليس الإصلاح عنده إبطال موجود، بل إيجاد مفقود هو استصلاح وإصلاح القلوب وتربيتها على المحبة لا الانتقام وشفاء الغليل، لأن طريق الجهاد طويل يريد عملا ممنهجا، يريد تنظيم جهود يريد تعبئة منظمة يريد استبشارا وتبشيرا لأنفسنا وللإنسان مهما تجهم الزمن في وجهنا وكلحت طلعته واكفهرت ملامحه.

برهن الإمام سعيد النورسي من خلال تراثه الذي خلفه أنه كان بحق شمسا معنوية استمدت نورها من القرآن الكريم فهو رجل من أهل الله لأن أهل الله هم أهل القرآن وخاصته، كما جاء في الحديث، جعلنا الله منهم آمين، وترك الباب مفتوحا لمن كانت له همة أن يقتبس من القرآن وأن يكون من أهل القرآن ومن أهل تدبر القرآن.

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. الإسراء:٢٠

* * *

الهوامش:

[*] ذ.حسن إزرال: شعبة الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، بنمسيك الدار البيضاء، المغرب.

[1] النورسي، بديع الزمان سعيد، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥. ص ٩٥ .

[2] تنوير المومنات للأستاذ عبد السلام يس.

[3] سيرة ذاتية ٩٥.

[4] سيرة ذاتية ٩٥.

[5] النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢ ص ٩٠.

[6] سيرة ذاتية ٩١.

[7] تنوير المومنات للأستاذ عبد السلام يس ٤٨- ١/٧

[8] سيرة ذاتية ١٦٩.

[9] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥ ص ٢٦٣.

[10] المكتوبات ٩٠.

[11] سيرة ذاتية ١٦١.

[12] الإحسان لأستاذ عبد السلام يس ٢ ص ٤٣٧

[13] المكتوبات ٩١.

[14] سيرة ذاتية ١٧٠.

[15] أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والبيهقي.

[16] الملاحق ٢١٤ .

[17] النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥. ص ٤٧٢.

[18] الملاحق ٢٦٢-٢٦٣.

[19] النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤. ص ٤١٣.

[20] المثنوي العربي النوري/ ٢٠٦ وانظر أيضًا ص ١٥٦.

[21] المثنوي العربي النوري ص٣١٨ دار نشر سوزلر-استانبول ١٩٩٤.

[22] سيرة ذاتية ١٦٦-١٦٨.

[23] الملاحق- ملحق بارلا: ٨٥.

[24] أورخان محمد علي، سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة، ص :٣٠٥.

[25] الملاحق ٨٣.

[26] قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ٥٨/١: حديث: تفكر ساعة خير من عبادة سنة: إبن حبان كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ورواه أبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة. ا هـ. وانظر كشف الخفاء ٣١٠/١ والأحاديث المشكلة ص ١١٣.

[27] تأملات فكرية باللغة العربية على صورة مناجاة.

[28] الملاحق - قسطموني /٢٠٧، سيرة ذاتية ١٧٥.

[29] الملاحق ٢١٢-٢١١.

[30] الملاحق ٢١٥.

[31] تنوير المومنات للأستاذ عبد السلام يس ١/٦٧.

[32] تنوير المومنات للأستاذ عبد السلام يس ٢/٢٩٥.

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع الأستاذ محمد فرنجي

تحتاج كتابة تاريخ المجتمعات لأجل إصلاح المجتمع والأمة الإستعانة بمن هيّأهم الله ليكونوا شهودا على من أجرى الله على أيديهم صناعة التاريخ الإيجابي النافع أو كانوا مِنْ مَنْ أجرى الله على أيديهم صناعته سواء بمفردهم أو مع غيرهم من الصالحين مِنْ مَنْ أكرمهم الله بهذه المكرمة.

الحقبة التاريخية التي نحن بصددها فترة عصيبة، مرحلة عرفت بالسعي الدءوب إلى حماية مكاسب التديّن والتمكين له إثباتا ''بإقامة حججه والمحاجة عنه'' وتثبيتا ''بحمايته من الاندثار'' في ظل الرغبة الجامحة في استئصاله.

كانت هذه الجهود المباركة، مما أجراه الله على أيدي الصالحين من عباده، وسيلة فعّالة لإنقاذ الإيمان بالتمكين لحقائق القرآن الكريم، وكان على رأس هؤلاء المصلحين الأستاذ بديع الزمان النورسي، بما أنّكم عايشتم فترة مهمّة من تاريخنا المعاصر، فإنّ محاورتكم تحقق المقاصد المشار إليها في مقدمة الحوار.

نسعى من خلال محاورتكم معرفة مجمل مناحي حياة الأستاذ كما عايشتها، وبهذا الصدد رمنا تحقيق القول فيما يأتي:

النورسي الإنسان ''إجتماعيا، تربويا، سياسيا...''

١- النورسي الأستاذ ''طريقته في التربية والتعليم، طريقته في النصيحة، طريقته التعامل مع من عاداه''.

٢- النورسي الباحث، طريقته في الرد على الشبهات والتشكيك في الإيمان وأهله.

٣- النورسي المُنَظِّر المُصْلِح.

٤- مجموع ما سبقت الإشارة إليه يخدم بامتياز مقصد كتابة تاريخ فكرة إصلاحية وأهم رجالها، ومناحي الاستفادة منها.

لأجل التأكيد على القيمة التاريخية لهذه الشهادات اختارت المجلة محاورة أوائل

طلبة الأستاذ بديع الزمان النورسي، لأنّهم شهود على الرجل وقبل ذلك شهود على رسائل النور ولادة واكتمالا ونسخا ونشرا وما ترتّب عليها من معاناة وتضحيات لا يعرفها إلاّ من عايشها، نستهل الحلقة الأولى من الحوارات بمحاورة الأستاذ محمد فرنجي، نبدأ الحوار بما يأتي: **متى تعرّفتم على الأستاذ، وكيف؟**

- أتذكر وأنا في الرابعة أو الخامسة من عمري ''١٩٣٣-١٩٣٤م'' **أننا لم نكن نعرف الأذان الشرعي** (الأذان كان باللغة التركية)، والمدرسة التي تعلّمنا بها في مقتبل العمر لا تدرّس الدين والأخلاق لأنّها كانت ممنوعة في ذلك الوقت، وكان معلّمنا إماما سابقا، فخيّروه بين الإمامة والتعليم في المدرسة، ولأجل الإفادة أكثر إختار التعليم في المدارس، وكان هذا المعلّم مرشدا معنويا ممتازا ومنه سمعنا الأذان الشرعي، طبعا كان الإرشاد دون علم الإدارة وبغير إذنها لأنّه كان ممنوعا قانونا، بل ويعاقب عليه القانون بصرامة وغلظة، وكنا أثناء الموسم الدراسي ''شتاء'' نقيم في القرية التي تعلّمت بها، أما في العطلة الصيفية فكنا نأتي إلى إسطنبول، لأنّ والدي كان يمنعنا من الإنتساب إلى مدارسها لأنّها بحسب تقديره تصيّرنا كافرين أو تعلّمنا الكفر بخلاف مدارس القرية.

وُلِدْتُ بعد بداية تأليف الأستاذ لرسائل النور ''١٩٢٧م'' بسنتين أي عام ١٩٢٩م، وعايشت أقسى الفترات التي عرفتها البلاد ''١٩٣٥–١٩٣٨م''، وعرفت تحوّلات كثيرة منها قضيتا القبّعة والأسماء، كان الأستاذ في تلك الفترة في مدينة إسكي شهر، ومنها نفي إلى مدينة قسطموني، وهذه الفترة قاسية لأنّها عرفت باختلاق حادثتين مهمّتين لتصفية المعارضين السياسيين والدينيين، أولاهما حادثة ''منمن'' والثانية هي حادثة ''إزمير''، فاتّهم بموجبهما الفريقان بالسعي إلى الإنقلاب على النظام الجمهوري، فشملت التصفية السياسية أقرب المقربين من أصدقاء مصطفى كمال، ومن رحمة الله أن كان الأستاذ، في ظل هذه الظروف القاسية، منزويا في ''بارلا''، فقيّض الله له جوّ العزلة ليكون بعيدا عن الأحداث مصروف الذهن إلى الإهتمام بمستقبل الأجيال اللاحقة بإنقاذ الإيمان بحقائق القرآن الكريم، فلم يكن لهذه الأحداث أثر في فكره واهتماماته، وكان كلّ جهده منصبا على صيانة دين الأمة، لهذا يمكن أن نقول بأنّ الله هيّأ له ظروف العزلة ليتفرّغ لإنقاذ الإيمان.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) أتى إلى إسطنبول مع ٢٢ طالبا من طلبته.

بدأتم باكتشاف بعض المعنويات مبكرا (١٩٣٣-١٩٣٤م) فاكتشفتم الأذان الشرعي، وتعرّفتم على رسائل النور بعدها (١٩٤٦م)، كيف تمّ ذلك؟

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م)، أخلي سبيل الأستاذ بعد تبرئته من قبل محكمة ''دنيزلي''، وظهر نوع من الإنفتاح على ما هو ديني ومعنوي (أخلاقي) في ظل هذه الظروف ظهرت جريدة أسبوعية ''Büyük Doğu'' ''الشرق الكبير'' التي كان يشرف عليها ''نجيب فاضل'' التي نشرت عدّة (ما بين خمس أو ست مقالات) مقالات للأستاذ بديع الزمان النورسي، فبدأ المجتمع بالتعرّف على الأستاذ، وقد وافق هذا الإنفتاح تشكّل حزب سياسي معارض ''الحزب الديمقراطي'' (١٩٤٦-١٩٤٧م).

ماذا كان محتوى المقالات التي نشرتها أسبوعية " Büyük Doğu" "الشرق الكبير"؟

حوت هذه المقالات الكلمة الثلاثون ''رسالة أنا'' مع شيء من التبسيط، وفق ما يقتضيه المقال الصحفي، فكانت مزوّدة بالشرح والتبسيط اللازمين، لهذا تيسّر لنا اكتشاف الأستاذ ومن خلاله اكتشفنا رسائل النور.

ماذا كان يمثّل الأستاذ بالنسبة إليكم في هذه الفترة (١٩٤٦م)، وخاصة بعد اكتشاف الرسائل والأستاذ؟

كانت السلطة ترى بأنّه رجل يريد الإستحواذ على الحكم والسلطة بطريق الإنقلاب والثورة، بينما كان يراه عموم المسلمين، ونحن منهم، بأنّه أعظم شخصية في العالم الإسلامي، هيّأه الله لإنقاذ الإيمان المهدد بالاستئصال، وكان الأستاذ -مع هذا الانفتاح- تحت الإقامة الجبرية، والشرطة ترابط عند بابه على مدار اليوم، وبالرغم من ذلك كان لا ينشغل عن الخدمة المتمثّلة في العناية بتأليف رسائل النور والعمل على تبليغها بكل الوسائل المتاحة.

كيف اكتشفتم بعض نصوص رسائل النور عام (١٩٤٩م)، وكيف كان تجاوبكم معها وشعوركم نحوها؟

دار في ذهني سؤال مفاده استشكال الجمع بين القول بأنّ ''الله حاضر ناظر إلينا'' والقول بأنّه ''منزّه عن المكان''، فذهبت إلى طلبة رسائل النور، وأرشدوني إلى

الجواب من خلال قراءة ''الكلمة السادسة عشرة''، وكانت فرصة التلاقي بهم بقصد الإرشاد فرصة مواتية للإنخراط فيهم، ومنذ ذلك الزمان وأنا واحد منهم.

ما أهمّ المصنفات والمؤلفات الدينية والمعنوية التي كانت متداولة في تلك الفترة (١٩٤٩م)؟

كانت البلد خالية من الكتب الدينية والمعنوية، ولتأكيد ما ذكرت، أروي لك قصة واقعية، حاولت الحصول على كتاب لأعرف ديني، وبعد تفتيش لم أجد شيئا يذكر، ذهبت إلى مكتبة لبيع الكتب وأبديت لصاحبها رغبتي، فأخبرني بأنّه سيجلب في الأسبوع القادم جزءا ''ملزمة'' من كتاب فقهي بسيط على المذهب الحنفي (ملخص في الفقه الحنفي) لمؤلفه مفتي إسطنبول ''عمر نصوحي''، وهذا يؤكّد خلو البلد من المصنفات الدينية، أخذت الملزمة (جزء من الكتاب) وبدأت بقراءتها، فاستوقفتني مباحثها في العقيدة، وكانت منطلق الإشكال الذي نقلته إلى طلبة رسائل النور، وهذا يؤكّد قيمة رسائل النور في ظل هذا الفقر الكبير الذي تعانيه المكتبة الدينية والمعنوية، وتشير بجلاء إلى قيمة رسائل النور في تثبيت الإيمان وإثباته من خلال حقائق القرآن الكريم.

تعرّفتم على رسائل النور عام (١٩٤٩م)، فمتى تعرّفتم على الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي؟

بعد ربط الصلة بطلاب رسائل النور الذين أصبحت منهم بدأت بالتعرّف شيئا فشيئا على مضمون الرسائل ثم التقيت بالأستاذ بالضبط في أواخر شهر يناير (جانفي) عام (١٩٥٢م).

هل وجدتم الأستاذ كما صوّره لك الذين سبقوك بمعرفته أو كما تصوّرته في الرسائل، أم وجدته شخصا آخر؟

(يضحك) عرّف والدي الأستاذ عندما كان يخطب في مسجد ''بايزيد''، وكان يقول ليس في العالم أعظم من هذا العالم، وقد أكّدت رأيه مقالاته التي نشرتها الجريدة الأسبوعية ''الشرق الكبير'' ''Büyük Doğu''.

ذهبت لزيارة الأستاذ أواخر شهر يناير عام (١٩٥٢م)، وكان ذلك بعد صلاة الصبح، فاتّجهت إلى فندق ''أق شهر'' حيث كان يقيم فيه، وسمعت وأنا عند مدخل الفندق صوت تسبيح وأذكار وأوراد تنبعث من الطابق العلوي، صوت عليه مسحة أنين

وخشوع، صعدنا إلى الغرفة المقابلة له، وانتظرنا إلى أن أتمّ أذكاره وأوراده، ثم دعانا إلى غرفته، فقبّل رأسي بحضور متقدمي طلبة النور ''محسن آلو وضياء أرن''.

يبين ما سبق ذكره أنّكم اكتشفتم الأستاذ معرفيا وروحيا وتربويا، فكيف وجدتموه اجتماعيا (صلته الإجتماعية بالطلبة والحضور عموما...)؟

أوّل ما دخلت غرفته غمرني الشعور بشفقة الأستاذ علينا وعلى حال أمتنا، وأحسست بأنّ شفقته تكاد تغطينا وتحيط بنا من كل جانب، فكان أوّل لقاء به غنيا بالدفء المنبعث من شفقته، وجلسنا معه في درس مع كلام عن حياته. وكان الأستاذ في هذه الفترة حرا طليقا يتجوّل في إسطنبول ، كان ذلك في عهد الحزب الديمقراطي لعدنان مندرس.

يلاحظ أنّ اهتمامك برسائل النور أكبر من اهتمامك بشخص الأستاذ، لماذا هذا الإهتمام بالرسائل؟

يذكر الأستاذ أنّ مهمّته الأساسية هي إنقاذ الإيمان ويتمّ هذا المسعى بالعناية برسائل النور لأنّها الوسيلة العصرية الفعّالة في التعريف بحقائق القرآن لأجل إنقاذ الإيمان، من هنا فالواجب يحتّم العناية بحقائق القرآن المتضمّنة في رسائل النور وهي أهم أهداف مشروع الرسائل، لهذا عدّ الأستاذ العناية بشخصه خطأ يجب تلافيه بالتركيز على الحقائق الإيمانية القرآنية التي عرضتها رسائل النور لأجل إنقاذ الإيمان.

هل يمكن أن يقال بأنّ رغبة الأستاذ تلخّصت في تكوين جيل ملتف حول رسائل النور لأنّها تعرض الحقائق الإيمانية القرآنية وتعرّف وتبرهن على صدقها، وهل تراه نجح في هذه المهمّة؟

الذي حدث أنّ الناس في أوّل وهلة يسمعون بالأستاذ فيتعرّفون عليه ويعجبون به، وعندما يكتشفون رسائل النور قراءة وفهما، يحملون فكر رسائل النور، والدليل أنّنا اليوم نرى رسائل النور تنشر من قبل أكثر من ١٦ دار نشر عالمية، وتوزّعها في كلّ أنحاء المعمورة وبمختلف لغات العالم، ويقرؤها الناس من مختلف الألوان والأعراق واللغات والبلدان، وهذا كلّه يؤكّد أنّ العناية إنّما تكون برسائل النور.

وبهذا الصدد يمكن أن نذكر أمرا مهما، بالرغم من أهمية رسائل النور ووصية الأستاذ بها وبضرورة العناية بها، فقد التفت بعض الناس إلى شخصية الأستاذ وعلى رأس هؤلاء بعض المسلمين واللبراليين، وأكبروا في الأستاذ صموده أمام تحديات

القهر والتضييق والسجن والظلم و... فهؤلاء كانت عنايتهم بشخصه أكثر من عنايتهم بمضمون رسائل النور.

خلال هذه الفترة، هل كانت عنايته بتثبيت حقائق الإيمان أم بإثباتها؟

الفرق بين الفترتين السابقة والحاضرة، كان الإعجاب بالرسائل، وخاصة من قبل أهل التصوف، لمضامينها المعنوية، فكانت لها الأولوية عندهم وقدّموها على الجانب العلمي من الرسائل، أما في الحاضر فقد أصبحت العناية بالجانب العلمي لها الأولوية، وخاصة الأدلة العقلية والمنطقية.

بصيغة أخرى، هل يمكن أن يقال بأنّ الأستاذ كان يروم تحقيق مقصدي تثبيت الحقائق الإيمانية القرآنية وإثباتها في الوقت نفسه وبذات المستوى من الاهتمام؟

كانت العناية كبيرة جدا في الثلاثين سنة الأخيرة بجانب الإثبات، فأصبحت العناية بالجانب العلمي مهيمنة، بمعنى أنّ العملية عرفت مرحلتين، إهتمت الأولى بالتثبيت واهتمت الثانية بالإثبات، وذلك بحسب مقتضيات الزمان والمكان، وبيّن أنّ رسائل النور تضمّنت المسلكين معا مما يسّر لها القبول عند شريحة واسعة من الأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية.

إلتف عموم الناس حول رسائل النور بالرغم من كونهم لا يستوعبون إلاّ قليلا مما ورد فيها، وهذا القليل مكّنهم من الإرتباط العقلي والقلبي بها، لأنّها بالنسبة إليهم وسيلة فعّالة لإثبات الإيمان وتثبيته، فانظر إلى هؤلاء الشباب الذي يقبلون على الخدمة في المؤتمر ''٢٠٠ شاب'' يؤطّرون تنظيمه وإدارته (الإستقبال، المراقبة، التصوير...) كثير منهم يفهم الشيء القليل من الرسائل ولهذا القليل أثر فعّال في الدفع على البذل للخدمات الإيمانية.

ألا يمكن أن يعود الإقبال على الخدمة إلى الشخصية القيادية للأستاذ؟

يندفعون إلى الخدمة الإيمانية بمجرّد فهم جزء يسير من رسائل النور، ففضلا عن الخدمة الإجتماعية فهم ملتزمون بالتكاليف الشرعية ورغبتهم في التطهّر المعنوي كبيرة، وهذا كلّه عائد إلى مضمون الرسائل التي جعل الله فيها الفتح والتثبيت والإثبات والطمأنينة والراحة المعنوية.

هل يمكن أن يقال بأنّ الواقع الراهن أكّد صحة تحليلات الأستاذ لمستقبل الإصلاح ووسائله؟

هذا صحيح، والدليل عندما قال الأستاذ بأنّ العلوم الدينية نور القلوب والعلوم العقلية ضياء العقل وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، كان يُعتبر هذا كلاما خياليا لا صلة له بالواقع، أما الآن فصار هذا الكلام مفهوما ومجسّدا واقعيا، فترى طلبة مدرسة رسائل النور في كبرى الجامعات وفي مختلف التخصصات، مما يؤكّد أنّ امتزاج الإيمان والعلم أصبح حقيقة واقعية.

بالرغم من دواعي الفوضى والعنف ودفع الناس لممارسته، كان الأستاذ يدعو باستمرار إلى ثقافة السلم والمحافظة على الاستقرار، في ظل الظروف الراهنة التي تدفع لاستعمال العنف (الظلم، سرقة أموال الأمة، التزوير...)، كيف السبيل إلى الإستفادة من رسائل النور؟

كانت وصيته المستمرة المنع والنهي عن الدخول في أمور سلبية مع المحافظة على الخدمة الإيمانية في كلّ الأحوال ومهما كانت الظروف، والخدمة الإيمانية كما تصورها رسائل النور خدمة لحقائق القرآن الكريم ميل بكل الأشكال عن الصدام، بل اللازم المداومة على ترك هذه الثقافة والتأسيس لثقافة أخرى.

ألا يمكن أن يكون العمل الإيجابي البنّاء وسيلة فعّالة لتحقيق هذا المقصد؟

كثيرا ما كان يخاطب رجال الهيئات القضائية أثناء محاكمته قائلا: إننا لسنا منشغلين بكم فلمَ تنشغلون بنا؟ نحن منشغلون بمن سيأتي بعدكم، نحن منشغلون بالمستقبل بمن سيأتي بعدنا بخمسين عاما.

فرض هذا الإختيار، العمل على صناعة ثقافة العمل الإيجابي الذي اختير في الوقت الحالي منهجا للفعالية في الخدمة، ومقتضى العمل الإيجابي البناء أن لا ننشغل بما يقدّمه الآخرون، بل نركّز كلّ جهدنا على تقديم الحقائق الإيمانية والتفكير في سبل نشرها.

وبالرغم من أنّ الدولة كانت علمانية، كان الأستاذ يقول بأنّ رجالها كانوا مضطرين إلى تغيير القوانين بسبب الضغوط الخارجية الرهيبة الممارسة عليهم، وأنّ الحكومة وأفرادها مسلمون، كان يقول ذلك كلّه لأجل الأمن والإستقرار والسلم الإجتماعي.

في ظل الظروف الميئسة وشيوع ثقافة التيئيس والسعي إلى نشرها، كان الأستاذ يعمل على إشاعة ثقافة الأمل، كيف السبيل إلى الاستفادة من رسائل النور لأجل ثقافة الأمل في وقتنا الحالي؟

في السابق كان الحديث عن ثقافة الأمل خطابا نظريا ونصوصا مدونة فحسب، أما الآن فقد أصبح مجسّدا متحققا في الواقع المعيش، وذلك بفضل قراءة رسائل النور والالتزام بما جاءت به من أمور معنوية وعقلية.

كيف يتعامل مع المخالف في الدين أو المذهب أو الرأي؟

العمل الإيجابي في حقيقة الأمر ليس إلاّ خدمة الحقائق القرآنية وإنقاذ الإيمان، ولا يعارض هذا المقصد النبيل إلاّ إبليس، نحن نعتبر المخالفين في المذهب والرأي مسلمين، لهذا نحن ننأى بأنفسنا عن تكفير المسلمين، ونحصر جهدنا واجتهادنا في نشر الحقائق الإيمانية وإنقاذ الإيمان.

ماذا يمثّل بالنسبة إليكم أهل التصوّف؟

تضمنّت رسالة المكتوب "٢٩" ولا سيما التلويحات التسعة الدفاع عن التصوّف، في وقت كان أهل التصوف عاجزون عن المدافعة عن أنفسهم وطرقهم ومكتسباتهم، فيذكر الأستاذ أنّ ٥٠٠ مَعْلَم ديني (مساجد، تكايا...) أجراه الله على يد المتصوّفة، فنشروا الإسلام ودافعوا عنه، وكثير من التدين في المجتمع أجرى الله الفضل فيه على أيديهم من خلال التعليم والتربية، ولكنه يذكر بعد المدافعة بعض ما يراه من المثالب يجب تلافيها في قابل الأيام.

موقف الأستاذ من الشيعة والمعتزلة.

كثيرا ما يذكر الشيعة منها ما ورد في اللمعة الرابعة، والخلاصة أنّه لا يكفّر الشيعة، وينصحهم بالتوقّف عن الإساءة للصحابة ﷺ عموما، ويتعيّن التوقّف عن سب أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ، ويبيّن بأدلّة شرعية ومنطقية أخطاءهم في المسألة، وفي الوقت نفسه يبيّن منزلة علي بن أبي طالب ﷺ، فيذكر أنّ منزلة علي لا يعدل درجة قربيته أحد، كما تلاحظ في رسائل النور عنايته بأهل البيت عموما.

ألا يمكن أن يعد موقفه من أهل البيت ورقة عمل ممتازة بردم الهوة بين أهل السنة والشيعة؟ (تراجع موقفه من أهل البيت من خلال الرسائل)

هل للمزاوجة بين الحديث عن الصحابة وأهل البيت بإجلال وتقدير كبير تأثير على تكوين عقلية خاصة تتجاوز إفراط أو تفريط الفريقين؟

الذين ينتسبون إلى مدرسة رسائل النور ينظرون لأهل البيت والصحابة الإكرام بإكبار وإجلال كبيرين، لكن عموم الناس من قراء رسائل النور يختارون جهة واحدة

من غير انتقاص من الجهة الأخرى، فمنهم من يحب أهل البيت لا ينتقص من شأن الصحابة ومن أحبّ الصحابة لا ينتقص من شأن أهل البيت، وفي الغالب كل من مال إلى جهة سكت عن الأخرى.

موقفه من المعتزلة؟

لا يقبل قول المعتزلة بأن الإنسان يخلق أفعاله لأنّه تصوّر مخالف للتوحيد الحقيقي.

ما القلب والعقل؟

ليس القلب ذلك الجسم الصنوبري الموجود في القفص الصدري لكن له ارتباط به، فبالإسم الظاهري القلب ظرف والجسد مظروف، أما بالإسم الباطني فالعكس، الجسم هو الظرف والقلب هو المظروف، أما بالنسبة للعقل، فيحذّر الأستاذ من خطورة العقل المجرّد المنفلت من حكمة الوحي، ويكبر من شأن العقل المنضبط بقوانين الوحي، ويسمي الأدلة العقلية الواردة في الوحي ''الحكمة القدسية''.

نقل عنكم في السيرة الذاتية استشكالكم على "جهنّم" كما نقلت عنكم قصة المستشرق كان مقررا أن يلقي سلسلة محاضرات في جامعة إسطنبول للتشكيك في القرآن الكريم من خلال التشكيك في مضمونه من خلال الحديث عن صحة ما ذكر القرآن الكريم في شأن السماوات السبع. هل سمعتم الرد من الأستاذ مباشرة أو نقل إليك الخبر، ومن نقله إليك؟

جاء هذا المستشرق إلى جامعة إسطنبول بقصد إلقاء سلسلة محاضرات ''٧ أيام'' في كلية العلوم، فذكر في محاضرته الأولى بأنّ القول: ''بسبع سماوات'' غير صحيح، فنقل بعض الطلبة ''ضياء أرن -توفي رحمه الله-، محسن آلو -على قيد الحياة حفظه الله-'' للأستاذ ما ورد في المحاضرة، فغضب الأستاذ لعدم الرد المباشر عليه بناء على يعلمونه من محتوى رسالة إشارات الإعجاز لأنّها الجواب الشافي عن هذا الإستشكال والتشكيك ورد مفحم على هذا المستشرق، فاستعملت آلة الإستنساخ بقصد استنساخ نسخ كثيرة من الرد بقصد توزيعه في اليوم الثاني من سلسلة المحاضرات، وعندما لاحظ المستشرق أنّ أوراقا توزّع في القاعة طلب نسخة، ثم طلب ترجمتها، وبعد سماعه لمعانيها، رفع الجلسة وتوقّف عن إلقاء سلسلة المحاضرات، وهذا بعد أن اقتنع بأن المعارف التي تضمنتها تلك الورقات تمنع التشكيك، ولعلّه اقتنع بمضمونها.

أما بالنسبة للإستشكال في شأن جهنّم، فقصتها أنّ الأستاذ عندما كان في أميرداغ

كان كثيرا ما يقول وفي فترات مختلفة: لقد رضيت بدخول جهنم لأجل إنقاذ إيمان شخص واحد. وكرر القول نفسه لدى زيارتي الأخيرة له. فوقع في نفسي شيء، إذ كيف يدخل جهنم من كان سبباً لهداية أناس كثيرين جداً؟ وإذا بالأستاذ يعتدل في فراشه ويشير إليّ بيده ويقول: ليس خالداً... ليس خالداً... بل مثلما يدخل أحدهم جهنم من جراء ذنب ثم يدخل إلى الجنة.

يظهر من خلال إجابته عن استشكالك من خير أن تصرّح به أنّه كان عارفا بنفسيات طلبته وخصوصياتهم، وما مميزات كل فرد منهم، يؤكّده توزيع الأعمال على الطلبة بحسب استعدادهم، فما خصّ به بيرام غير الذي خصّ به زبير وما خصّ به عبد الله يكن غير الذي خصّ به مصطفى صونغور وهو بدوره مختلف عما خصّكم به، فبما خصّكم الأستاذ؟

هذا صحيح، أنا نسيت بما خصني لكن الأخ مصطفى صونغور يذكر أنّ الأستاذ قال: إنّ ''محمد فرنجي'' هو الذي يعبئ ساعة إسطنبول لتشتغل (حيث إن ساعة ذلك الوقت تعبّأ باليد وآلة الاستنساخ أيضا تحرك باليد) فكلفني بنشر الرسائل وتوزيعها وطلب من الطلبة مساعدتي على أداء المهمة.

ماذا تمثّل إليكم المصطلحات الآتي ذكرها، الشفقة، الفقر والعجز والمحبة ونقيضها، التسامح والحقد؟

التعريف الحسي للشفقة صعب، لهذا سأعبّر لك عما يختلج في صدري، الشفقة أن تحس بدفء داخلي ينجذب بموجبه الرجل إلى من يشفق عليه، كالحال التي كنت عليها في أول لقاء لي بالأستاذ (رحمه الله)، فقد كان اللقاء فرصة للإحساس بدفء أحاط بقلبي من كلّ جانب، فهذا تجلي شفقته بنا وعلينا، ودليلها سؤاله عن والدي ووالدتي وأسرتي وأقرب الناس إليّ، ففي هذه الأسئلة والحالة التي كان عليها الأستاذ فيوضات سرت في القلب مباشرة.

كان الأستاذ يستمدد المدد الإلهي بحالة من الإقرار بالعجز والفقر، إذ بعد الذكر والأوراد التي يؤديها بحزن فيه أنين المقر بعجزه وفقره، يبدأ التدبّر والتفكّر الإيماني ثم التدوين، لقد أوقع الإقرار بالعجز والفقر استمدادا من الله لتفسير القرآن الكريم، وقد جسّدته رسائل النور أحسن تجسيد.

أما المحبة، فالحب في الله والبغض في الله، وقد عبّر الأستاذ عن هذه المعاني في الكلمة ''٢٤'' الغصن الخامس، والتي يذكر فيها أنّ المحبّة هي روح الكون ونوره،

وهي تجليات إسم الودود، وهي جميعها لأجل تحبيب الله للخلق، وتجليات المحبة تستغرق الكون كلّه.

أما بالنسبة للعوام والناس العاديين، فإنّ المحبّة بحسب ما ورد في الكلمة ''٣٢'' متنوعة ومتناسبة بالقدر الذي تتجلى به للإنسان ''محبة الأب أو الابن أو الأخ أو الربيع أو الأزهار أو...''، فيشرح الأستاذ بكيفيات مختلفة هذه الأنواع من المحبة ويرشد إلى طريقة جعلها مندرجة في محبة الله.

أما عن التسامح والحقد، فقد كان الأستاذ متسامحا إلى أبعد الحدود إلاّ في حالات استثنائية ليست لها صلة بعداوة شخصية أو قضية خاصة به سواء تعلّق الأمر بالظلم الذي سلّط عليه أو سجنه الذي كان ظلما وعدوانا من غير مبرر شرعي أو عقلي أو قانوني، فكان يصرّح بأنّه تنازل عن حقه بالنسبة لمن ظلمه، ولكن القرآن الكريم لا يتنازل عن حقه، فإذا وقعت بكم عقوبة دنيوية فبسبب معاداتكم القرآن الكريم ومحاربته، وكل ما كان في الأمر فالأستاذ يتسامح إلا في حالة الإلحاد وما كان يواجهه بغير الحجة والبرهان والبيان.

والدليل على ذلك أنّ الأستاذ كان ينشر في جريدة لرجل ''حسين جاهد'' كان يعرف بإلحاده ومناظرته في القضايا التي يثيرها، وعندما توفي ''حسين جاهد'' قال الأستاذ لأحد طلبته ''جيلان'' ليتني عرفت فيما إذا مات على الإيمان، وفكّر الأستاذ في شأنه وحزن حزنا لأجله.

ماذا تمثّل إليكم الصناعة والتجارة والعلم والتعليم؟

الصناعة والتجارة أصل المعيشة فطريا وهي أصل الكسب، ولكن الناس انصرفوا عنها إلى الوظيفة والإمارة (المسؤولية) أي حبّهم للتحكّم والهيمنة، والمجتمعات إذا تحوّلت عن الصناعة والتجارة لصالح الإمارة (حب المسؤولية) أصبحت فقيرة، وكذلك الأفراد.

أما العلم والتعلّم، فإنّ الترقي بحاجة إلى التنظيم ونقصد به تقسيم الأعمال بحسب الإستعدادات والقابليات، فتقسم الأدوار والأوقات، كما أنّ الرقي بحاجة إلى تعاون الناس فيما بينهم فضلا عن إشاعة الأمن فيكون الجميع آمنا في نفسه وعمله، وهذه بحاجة إلى الصناعة والتجارة ومحرّك كل ذلك العلم ولا طريق لنيله بغير التعليم.

ماذا تمثّل المصطلحات الشرعية الآتية: الأمة، الشريعة، الإيمان، الرسول ﷺ، القرآن الكريم؟

الشريعة في نظر العوام تطبيق الحدود، أما في نظر رسائل النور، فالشريعة قسمان، منظورة (المتأتية من صفة القدرة) والمسطورة (متأتية من صفة الإرادة)، ولكل منهما مراتب متنوّعة، وكان الأستاذ من المدافعين عن الشريعة، فقد قال بعد أن حكمت عليه المحكمة العرفية ''١٩٠٩/٠٣/٣١م'' أنا أريد الشريعة أيضا مثل هؤلاء الذين أُعدموا، ولكن ليس بطريق الثورة والإنقلاب، بل في جو الأمن والإستقرار.

الإيمان هو لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ﷺ، والسنّة المطهّرة وظيفتنا إحياؤها، فقسم منها فرائض لا يمكن التنازل عنها أو التساهل في شأنها، وكان الأستاذ يحثّ على الإلتزام بالسنة والتشجيع على تنفيذ أحكامها سواء تعلّق الأمر بالعقائد أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق، ذلك أنّ السنة السنية تستوعب كلّ الدين.

الأستاذ والتلطف مع الطلبة والزوار، هل كان الأستاذ يبادر إلى النكتة؟

أذكر لكم بهذه المناسبة نكتتين، كان من عادة الأستاذ أن لا يشتري الفواكه في أوّل الجني لأنّها تكون باهظة الثمن، فيؤخّر شراءها إلى حين تنزل أسعارها، فمرّة في الأيام الأولى لجني فاكهة ''يني دنيا'' ''الدنيا الجديدة'' وهي صنف من فاكهة ''البرقوق''، قال الأخ جيلان للأستاذ.

هل نشتريها أم تأخذ روحنا، لأنّك تؤخّر شراءها إلى أن ترخص، وهو تعبير عن اشتياقهم لأكلها، ومرّة كان بجنب بحيرة مع جيلان، فقال له الأستاذ، لماذا لا تشتري خمسين رأسا من الغنم وترعاها وتعتني بها، ونأتي بعجوز تحلبها لنا، فقال جيلان العجوز لا تستطيع، لهذا فالمطلوب أن تكون شابة قوية، والأستاذ يضحك تبسما من قوله ويقول تستطيع، ثم يكررها جيلان وفي كلّ مرة يقول الأستاذ بل تستطيع الحلب، ويختمها الأستاذ بقوله تحلب تحلب...

هل كانت ورود الطرفة على لسانه قاعدة عامة أم استثناء؟

الجدّية هي السمة العامة للأستاذ، ولا نسمع منه ذلك إلاّ مرّة أو مرتين في اليوم، ومن تلطّفه مع زواره أنّه كان يدفع لهم مصاريف النقل، وكنت من الذين استفادوا من هذه المكرمة، فقد دفع لي تكلفة التنقل إليه عدّة مرات، ومرة لأجل أن يمنحني مصاريف الرحلة طلب حافظة نقوده، وعندما استلمها طلب من جيلان أن استدر لكي

لا يرى مكان وضعها، وبعد أن منحني ليرتين، وضعها تحت الوسادة، ولكن جيلان أدخل يده بحركة متناهية الخفة لأجل أخذ الحافظة، فاستدار الأستاذ ألم أقل إنّه يسرق. فكان يتلطّف مع الخلق وعلى رأس هؤلاء جيلان الذي كان طالبا مخلصا.

ما القيمة المضافة التي استفدتها من رسائل النور في السابق؟ وهل اكتشفت شيئا جديدا في الحاضر (الآن)؟

كانت رسائل النور في البداية تشبع حاجاتنا الخاصة، ولكن بعد مرور الأيام وانتشار رسائل النور في العالم اكتشف الباحثون الأكاديميون أمورا ما كانت تجول بخواطرنا فزاد إعجابنا بها، فمثلا يذكر الأستاذ توماس ميشل أنّه لولا عفو الأستاذ لبقيت رسائل النور تدور في وسط فاسد، فعفوه حرّر لها طريق الانتشار.

أذكر للقراء الكرام حادثة وقعت لك مع الأستاذ بقيت عالقة بذهنك أو أمرا خصّك بك الأستاذ.

أذكر مرّة أنّ الأستاذ اضطر للسفر من إسطنبول إلى صامسون لأجل المحاكمة، فترك كلّ مراسلاته ورسائله، وكلّفني بتوزيع الرسائل على أصحابها واستعمال آلة الاستنساخ لأجل طبع نسخ من الرسائل ثم توزيعها، وأكّد على القيام بهذه المهام (توزيع الرسائل والإستنساخ مع التوزيع)، فقلت يا أستاذ أقوم بكل ما طلبت، ولكن لا أستطيع الإستنساخ لأني لا أعرف كيفية استعمال آلة الإستنساخ، فقال بل تستطيع، ثم كررت القول، وفي كلّ مرّة كان يقول الأستاذ تستطيع تستطيع، ثم بقوة أنت تستطيع أن تفعل مصرا ومؤكّدا، وقد كان الأستاذ على حق فقد قمت بالمهمّة على أكمل وجه، فنسخت ووزعت كما طلب الأستاذ.

ماذا يمثّل لك تاريخ ٢٥ من رمضان و٢٣ من مارس؟

يمثّل تاريخ وفاة حضرة الأستاذ (رحمه الله)، ونحن في هذا التاريخ من كلّ عام نسترجع تلك الذكرى، ونتذكّر ما قاله لنا، فقبل وفاته جاء إلى إسطنبول وقال: الحمد لله فقد قصمت العمود الفقري للكفر والإلحاد ولن تقوم له قائمة في المستقبل.

هل تمثّل هذه الذكرى فرصة لتقديم الحصيلة وتجديد الصلة؟

نحن مستمرون بعد وفاته على ذات الأسلوب في العمل، فبعد أن فكّرنا في موضوع بعد وفاته، قلنا بأنّ الأستاذ إنتقل إلى عالم البقاء، فما علينا إلاّ الإستمرار في خدمة الحقائق القرآنية وإنقاذ الإيمان.

واستمر العمل مع الجيل الجديد من خلال المؤتمرات العلمية في البلاد الغربية والشرقية، ونتمنى تأسيس كرسي الأستاذ بديع الزمان النورسي في الجامعات العالمية، لأنّ رسائل النور تعرّف حقائق القرآن وفق المعايير العلمية التي ترضاها العقلية المعاصرة.

كيف تتصوّر إصلاح العالم الإسلامي وفق برنامج رسائل النور وكم يستغرق من الوقت؟

العالم الإسلامي الآن مشتت ممزّق، ولا مستقبل للعالم الإسلامي في غير الإتحاد والإندماج، لكن الإتحاد وفق رسائل النور لا يتم بغير العلم فبغير شعاع العلم وامتزاج الأفكار الذي يتم بالعلم لا يمكن تصور وحدة بمعزل عنه، ولتحقيق هذا القصد يمكن لرسائل النور أن تقدم الحل، وخدمة لهذا الهدف وخيره نبذل وسعنا في نشرها والتعريف بها.

نصيحة للمهتمين برسائل النور.

نصيحة لهم أن يعملوا على خدمة رسائل النور وفق مقاصدها العامة، ومقاصدها الإيمانية والأخلاقية لا وفق الأمزجة والإختيارات الإنتقائية، لأنّه لا مستقبل لرسائل النور إلاّ إذا دخلتها وفق معاييرها خدمة لمقاصدها.

نصيحة للأمة الإسلامية والإنسانية.

نأمل أن نوفّق لخدمة كلّ مكوّنات الأسرة الإنسانية، ونتلطّف معهم لنسمعهم حقائق القرآن الكريم ونعرّف بالله واليوم الآخر، وندعوهم ليسمعوا حقائق القرآن الكريم لأنّ به سعادة الدارين الدنيا والآخرة، ونؤكّد لهم بأنّ رسائل النور ليست إلاّ تفسيرا لحقائق القرآن الكريم لأجل إنقاذ الإيمان، لهذا نعمل على تبليغ حقائقه إلى العالم كلّه، فترجمنا الرسائل إلى عدّة لغات بحسب إمكانياتنا، لو أنقذنا إيمان إنسان واحدا لكان خيرا لنا مما طلعت عليه الشمس.

نترك لك اختيار ما تختم به هذا الحوار.

نتمنى صلاح الناس في دنياهم وأخراهم ونعمل على تحقيق هذا الهدف النبيل، ومن يخدم الإنسانية نحبّه ونتعاون معه، إما بطريق رسائل النور أو بغيرها، ولا نريد أن نصطدم مع أحد لأجل تيسير انتشار رسائل النور خدمة لحقائق القرآن بقصد إنقاذ الإنسان في الدنيا ة الآخرة.

* * *

الإصدارات

قراءة في كتاب:

مدخل إلى سعيد النورسي ومؤلفاته... كتاب في طريقه للطبع.

الكتاب: مدخل إلى سعيد النورسي ومؤلفاته.
تأليف: أ.د. إيان ماركهام (عميد المدرسة اللاهوتية بفرجينيا - أمريكا).
دار النشر: مجموعة النشر أشجات - الولايات المتحدة الأمريكية.
الطبعة: الأولى "أبريل ٢٠١١".

يركّز الباحث الغربي عادة، على الشق الديني والعقدي وأنظمة تفكيرهم لدى دراسة المتدينين وعلماء العقائد من النصارى، ، بينما يتجاهل هذا لدى التعامل مع المفكرين المسلمين المعاصرين، فيركّز الجهد على حياة المفكّر من منظور اجتماعي، ويهمل الشق الديني والعقدي، لهذا يُعَد هذا الكتاب نقلة نوعية في الدراسات الغربية، وهو ضمن سلسلة شاملة وفق ما ألمحنا إليه.

تقدم هذه السلسلة تعريفا بمؤلفات المفكرين المسلمين الفاعلين وإنجاز دراسات شاملة عن جهودهم، من خلال الجمع بين أساس الفكر وغناه وعمقه.

ألّف الكتاب باللغة الإنجليزية، وعرض في مدخل وأربعة فصول، وعرض المدخل نبذة من سيرة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي؛ مركّزا على ما عايشه من تغيّرات دينية وسياسية واجتماعية وثقافية في العهد العثماني، والتغيرات التي واكبت ظهور الجمهورية، تيسّر هذه الوقفات فهم الواقع الذي ألّفت رسائل النور، انتقل بعدها المؤلف إلى تعريف ببعض المصطلحات الإسلامية ذات الصلة بفكرة الكتاب، ولاسيما مسالك الاستمداد من القرآن الكريم في إثبات وجوب وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته، مما جعلها فرصة للتعريف الشامل بالقرآن الكريم، كما كانت له وقفات مع المعنويات والاختلاف ومقاربة التعددية، من خلال تحليل مختارات من مؤلفات رسائل النور، لأجل الاستدلال بها على ما أورده في هذا السياق.

وضمّن الفصل الأول التعريف بأفكار سعيد النورسي في فترة سعيد القديم ثمّ

تحوّله إلى سعيد الجديد، كما كانت له إشارات إلى تفسيره للقرآن ونظرته للغرب والسياسة بشكل عام.

وعرض في الفصل الثاني، رسائل النور والحركة النورية والعمل الإيجابي بوصفه فكرة نورية بامتياز، وهي التي كان باعثا على إشاعة ثقافة الحوار مع المناوئين والموافقين في الداخل والخارج على حدّ سواء، فاتّسمت علاقاته بالهدوء، كما اشتمل على الإشارة إلى تطبيقات ثقافة العمل الإيجابي وتطبيقاتها على العلاقة بالغرب، وهو الجو المثالي لبعث تجليات عملية التسامح، ويعد هذا الفصل مدخلا هاما للتقرب من فكر رسائل النور للمفكر الإسلامي المعاصر بديع الزمان سعيد النورسي.

فرّع المؤلف الفصل الثالث على ثلاثة أقسام، وهي:

القسم الأول: الفرق بين المؤمنين وغيرهم، وأشار في السياق نفسه إلى المعرّفات الثلاثة التي تعرفنا بخالقنا: القرآن والرسول ﷺ وكتاب الكون، ركّز بعدها على كتاب الكائنات، من خلال تحليل رسالة ''الآية الكبرى''، وتناول من خلالها مواضيع: التوحيد والأحدية والشؤون الإلهية ''أحدية الله تعالى وأفعاله''. وعرض في القسم الثاني التعريف بالنبوة ووجوبها وأسسها، ومقارنة الوحي بالفلسفة، ونفي فعل الطبيعة وإثبات خلق الله للكون، وخصّص القسم الثالث لمبحث الآخرة، واستقى المؤلف مادة القسم من رسالة الحشر ''الكلمة العاشرة من رسائل النور''، وكانت له بهذا الصدد وقفات مع مصطلح الحشر وأن الحشر جسماني، واستدلال الأستاذ على الحشر بالخلق والحشر الدائمين والمشاهدين بشكل يومي وفصلي وموسمي ''الشروق والغروب، وتبدل الكائنات، وتوالي الفصول وتغير المواسم...''؛ فضلا عن كون الحشر من تجليات اسم الباقي واسم الحي والمميت.

وذكر في الفصل الرابع العدالة والعبادة ومركز الأسماء الحسنى وحاجة الإنسان إليها، وبيّن في هذا المقام طبيعة العبودية وأهميتها وغايتها، واستفاد مادة الفصل من الخطبة الشامية.

يُعَد الكتاب لبنة في تطوير الحوار بين أهل الأديان السماوية، لما اتسم به المؤلَّف من عرض غير متحامل على الإسلام بالرغم من نصرانية مؤلفه، وقد استعان المصنف في تأليف كتابه بطالبة الدكتوراه ''سوإندام برنجي''، خصوصا فيما يتعلق بالمواضيع الإسلامية المستمدة من رسائل النور، وخاصة التوحيد والنبوة والحشر وغيرها ونظرة الإسلام إليها.

وذكر ''د. كافني دكوستا'' من جامعة ''بريستول'' بإنجلترا وهو عميد كلية الإلهيات بها وراهب في الوقت نفسه بإحدى كنائس المدينة، أنّ الكاتب ''لان ماركهام'' ومساعدته طالبة الدكتوراه ''سوإندام برنجي'' أنهما من المهتمين بفكر سعيد النورسي ورسائل النور، وأن فكرة الكتاب في حد ذاتها فكرة رائعة من حيث إنها دراسة شاملة حول أحد المفكرين المعاصرين في القرن العشرين، وكانت كتابتهما عنه متميّزة، يضيف ''د. كافني دكوستا''، وتعكس كتابتهم عنه حياته المليئة بالأحداث التي شكلت تاريخ تركيا، وصورة عن نماذج من أفكاره العميقة، وانتهى إلى القول بأنّه متيقن من أنهما سيكتبان حول سعيد النورسي ونظرته للقرآن الشاملة ورؤيته لكتاب الكائنات وتفكره العميق فيه، وما كتب من أفكار عن المسائل الروحية والتعددية من خلال القرآن، لهذا عُدَّت مساهماته فريدة من نوعها تأصيلا ومضمونا.

أما ''د. جون سميث'' وهو عضو هيئة التدريس من جامعة هارفورد بالولايات المتحدة الأمريكية فعلّق على هذا الكتاب بقوله: ''هذا الكتاب مهم وفريد من نوعه، وأنا متيقن من أنه سيضيف إضافات نوعية كبيرة لفهم الإسلام من طرف الغرب، وسيعرف بالعالم المسلم في العصر الحديث باعتباره عالما معاصرا ومفكرا ومجددا كبيرا، وسيقدم أعماله مباشرة للقراء دون تدخل فيها، كما سيساهم الكتاب في التعريف بشخصية سعيد النورسي بشكل جيد على نحو أوسع.''

المؤلف في سطور: الأستاذ الدكتور ''لان ماركهام'' عضو هيئة التدريس من كلية الإلهيات وعميد المدرسة اللاهوتية بفرجينيا، وفي نفس الوقت هو راهب في كنيسة ''إبسكوبال''. ألّف مجموعة من الكتب ومنها: فهم العقيدة المسيحية ''بلاك ويل: ٢٠٠٧''، قارئ ديانات العالم ''بلاك ويل: ٢٠٠٠''، ماذا تعني الأخلاق؟ ''بلاك ويل ٢٠٠٦''، العولمة والأخلاق والإسلام ''٢٠٠٥''، الولاء للاهوتية ''بلاك ويل: ٢٠٠٤''، ١١ سبتمبر: المنظورات الدينية والنتائج ''٢٠٠٢''، علم الأديان ''الثيولوجية'' والليبرالية ''٢٠٠٢''، المقارنة بين الأديان ''بلاك ويل: ١٩٩٨''، الله؛ الحقيقة والواقع ''١٩٩٨''.

سوإندام برنجي طالبة دكتوراه بجامعة ''إكستير'' بإنجلترا وهي في الوقت نفسه مُدَرِسَة بـ ''مدرسة العلوم الدينية هارفورد'' في مجال: ''المقارنة بين الإسلام والنصرانية'' وهي محررة كتاب ''استعراض الدين واللاهوت'' الذي قامت بنشره دار النشر ''بلاك ويل''.

المؤتمرات والحلقات الدراسية

١- المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي فرصة للقاء علماء الشرق والغرب

عقدت مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم بإسطنبول المؤتمر الدولي التاسع لرسائل النور ''العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية''، أيام ٣ و٤ و٥ من أكتوبر ٢٠١٠، وتأتي هذه الدورة إحياء للذكرى الخمسين لوفاة الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله.

افتتح المؤتمر يوم الأحد ٣ من أكتوبر بالمجمع الرياضي سنان أردم بإسطنبول، وعقدت الجلسات العلمية خلال اليومين المواليين ٤ و٥ أكتوبر في فندق ''واو''.

ابتدأت جلسة الافتتاح على الساعة العاشرة والنصف صباحا بحضور أكثر من ١٤٠٠٠ مشارك، من مختلف المدن التركية، وبمشاركة أكثر من ٢٥٠ من العلماء والأساتذة والباحثين من أكثر من ٤٥ دولة ومن ديانات وجنسيات مختلفة ''العربية السعودية والعراق والمغرب والجزائر ومصر واليمن والأردن ولبنان والنيجر والفلبين وماليزيا وباكستان وإيران والإمارات العربية وروسيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وهولندا...''، وتصدّر المشهد السادة عبد القادر بادللي، سعيد أوز دمير، مصطفى صونغور، عبد الله يكين، محمد فرنجي، وصالح أوزجان، طلبة الأستاذ سعيد النورسي، كما شهد الحفل حضور كبار رجال الدولة منهم نائب رئيس الوزراء السيد بولند أرينج، ووزير التعليم السابق، ونائب رئيس حزب العدالة والتنمية السيد حسين جيلك، ورئيس البلدية الكبرى لإسطنبول السيد قادر طوب باش، ونائب رئيس الشؤون الدينية، كما حضر الافتتاح شخصيات مهمة من نواب حزب العدالة والتنمية وشخصيات أخرى، تليت بالمناسبة رسالتان موجهتين للمؤتمرين، أولاهما من رئيس الوزراء السيد رجب طيب أردوغان، والثانية من العالم الفاضل فتح الله كولن، واختتم

البرنامج على الساعة الثالثة بعد الزوال بعد الكلمات الشرفية القصيرة التي ألقاها نخبة من الأساتذة المشاركين.

وكرّم بالمناسبة مترجما رسائل النور إلى الإنجليزية ''الأستاذة شكران واحدة'' والعربية ''الأستاذ إحسان قاسم الصالحي''، وسلّمهما السيد نائب رئيس الوزراء والسيد وزير التعليم السابق هدايا رمزية.

واعتبر المتابعون بمختلف مشاربهم الحفل الافتتاحي من أهم محطات المؤتمر بالنظر إلى الكلمات القوية التي ألقت فيه، خصوصا ما قدّمه رجال الدولة، ومن أهم ما سجله الملاحظون بخصوص هذه الكلمات هو إلحاحها على الاعتراف بالجميل المعنوي والتربوي الكبير الذي أسداه الأستاذ بديع الزمان لتركيا والعالم الإسلامي والإنسانية، واعتبر البعض هذا الموقف منعطفا تاريخيا مهما في تاريخ رسائل النور، لكونها تأتي تثمينا لدورها في العالم كله، يضاف إلى رصيدها في نشر القيم الأخلاقية السامية، وفكر التسامح بين مختلف مكونات المجتمع الإنساني، وسجلت الكلمات بتقدير وإجلال عظمة شخصية بديع الزمان سعيد النورسي الإصلاحية، فقد كان أنموذجا في ثقافة العمل الإيجابي ونكران الذات، وهو ما يسّر لرسائل النور الانتشار الإثمار، ولم يكن هذا الأمر مستغربا على رجل جعل القرآن الكريم إماما، والرسول ﷺ مرشدا، وسخر حياته كلها من أجل إرشاد الناس إلى تحصيل فضل التخلّق بأخلاق القرآن، والتعلّق في الحياة الدنيا بالآخرة.

وورد في رسالة السيد رجب طيب أردوغان التذكير بأن تنظيم هذا المؤتمر العالمي الكبير له شأن كبير في التعريف بفكر ومؤلفات وحياة ونضال بديع الزمان سعيد النورسي، وأنه ليس مرشدا دينيا قويا وصامدا أو عالم دين فحسب، بل تجاوز كل ذلك ليلج القلوب ويفتحها من بابها الواسع كزعيم ورائد، وختم رسالته بتأكيده على أنّ هذا المؤتمر سيكون وسيلة لفهم مؤلفات سعيد النورسي على نحو أوسع وبشكل أكبر.

وذكر السيد بولند أرنج بأن سعيد النورسي كان عالما جليلا وصاحب معرفة عالية هدفه الأسمى العلم والمعرفة، وكانت كل جهوده شرارة نورانية أضاءت في الظلمات، ذلك أنّه بالرغم من الحرمان من الحقوق وسجن ونفي مدة خمسا وثلاثين سنة، ظلّ محافظا على هدوئه ورزانته، فأكرمه الله بنجاح دعوته في عزّة وشرف إنساني رفيع، فخدم تركيا والعالم الإسلامي والإنسانية التي ذكّرها بالعزّة والشرف الكرامة.

وأكّد السيد د. حسين جيليك وفي الكلمة أنّ سعيد النورسي مفكر إسلامي كبير وعالم ومجدد ورجل سلم يَمُجُّ العمل السلبي، ناضل ضد العنصرية والظلم، فقد كانت رسائله دواء فعّالا في استئصال العنصرية، ولو استمعنا له بالقدر الكافي، لما وُجِد صراع بين الشباب الأكراد الذين في شرق تركيا والشباب الأتراك الذين في غربها.

قدّمت للمشاركة في أعمال المؤتمر أكثر من ثلاثمائة بحث، قبلت منها لجنة التحكيم، وفق قواعد علمية أكاديمية صارمة، مائة بحث ونيّف، وهو ما اعتبر دليلا قويا على المكانة المرموقة لرسائل النور في الأوساط الأكاديمية والفكرية في العالم شرقا وغربا، وخاصة في ظل جودة البحوث التي اختيرت بحسب تقرير لجنة التحكيم، إذ اختير للإلقاء المتميز ببعض الشروط المعروفة لدى لجنة التحكيم، وجرى تقديم العروض في ثلاث قاعات، وعرفت حضورا مكثفا لجمهور المهتمين برسائل النور وطلبتها، الذين حضروا خصيصا من مختلف المدن التركية لمتابعة أعمال المؤتمر، متحملين مشقة السفر والمتابعة.

وسجّل المشاركون في المؤتمر من باحثين وأكاديميين ومثقفين إعجابهم وتقديرهم بما دار من مناقشات وردود أعقبت إلقاء العروض في الجلسات العلمية والبروتوكولية، واعتبروا ذلك دليلا على صدق التفاعل مع رسائل النور وكل ما يمت بصلة للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

تمحورت مواضيع المحاضرات، التي ألقيت باللغات العربية والتركية والانجليزية مصحوبة بالترجمة الفورية، حول مُثُل الإيمان وعلاقته بالأخلاق والعلم ودوره في تأهيل الشعور بالمسؤولية وأبعاد وخصائص مفهوم الأخلاق استنادا للعلم والإيمان، وبيّن بعض الباحثين أنّ العجز والفقر والشفقة هي أسس مسلك الخدمة عند النورسي في حل المشاكل، كما استخرجت من رسائل النور مقترحات حلول مشاكل العنصرية والظلم الاجتماعي، وقد كان لبعضهم وقفات مع الحلول المستلة من فكر الأستاذ في مواجهة التنازع في المجتمعات المتعددة الثقافات، واستقت بعض البحوث من بديع الزمان مسالك استئصال عوامل تغذية ثقافة العنف، والحد من عادات الإستهلاك...

ونظمت بعد اختتام الجلسات العلمية، اللجنة المنظمة لقاء تواصليا مع المشاركين في المؤتمر ببحوث باللغة العربية، واشرف عليه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي،

وبالرغم من ضيق الحيز الزمني الذي استغرقه اللقاء، لظروف قاهرة وخارجة عن إرادة اللجنة المنظمة، فقد اعتبر لقاء مثمرا ومفيدا، ميّزته الصراحة، وعَبَّر أغلب المتدخلين عن سعادتهم بالمستوى الكبير الذي وصل إليه عمل مؤسسة الثقافة والعلوم في السهر على تنظيم مؤتمرات رسائل النور.

ألح الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في بداية الجلسة على أهمية المؤتمر التاسع ودقة الظروف التاريخية التي صاحبت تنظيمه، وعن الجوانب المتعلقة بالتنظيم جدد اعتذاره عن بعض الهفوات التي شابت التنظيم وبين بأنها هفوات خارج عن الإرادة ولم تكن مقصودة.

وعن أفاق العمل المستقبلي التمس من الحضور تقديم ملاحظاتهم بخصوص سير أعمال المؤتمر إيجابا وسلبا، حتى يتم تعزيز الإيجابيات وتلافي السلبيات في قابل الأيام، والتمس من الحضور تقديم مقترحات مواضيع وقضايا فكرية ومنهجية وفلسفية مستقاة من رسائل النور تصلح للإثراء والبحث في المؤتمرات المقبلة، وألحّ الأستاذ إحسان على الرفع من درجة التواصل الفكري والحضاري حول مائدة القرآن الكريم انطلاقا من رسائل النور.

ورفعت الجلسة بعد توجيه الشكر للجنة المنظمة على ما تقوم به مثمنة أعمال المؤتمر وما يشكله من صرح للتواصل فيما بين طلبة النور والباحثين في الرسائل بصفة عامة.

٢- ندوة النورسي بألمانيا

نظمت أقدم جامعة في ألمانيا ''أسنابروك يومي ٨-٩ نوفمبر ٢٠١٠'' ندوة دولية عن بديع الزمان سعيد النورسي بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته، وشارك فيها سبعة وعشرون مفكرا وباحثا من دول عديدة ''ألمانيا والدانمرك وتركيا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية والبوسنة والهرسك وإنجلترا''.

ونوقشت في الندوة مواضيع متعددة ولفت النظر إلى أفكار مهمة، وحضر الندوة جمهور غفير من الأساتذة وطلبة الجامعات.

عقدت الندوة خلال ست جلسات، وتمحورت على المحاور الآتية:

العلاقة بين الدين والعلم.

الفلسفة وحقوق الإنسان من منظور النورسي.

التعليم الديني في ضوء فكر النورسي.

الحريات والحداثة عند النورسي.

العدالة والحوار بين أهل الأديان.

رسائل النور وعلاقتها بالوحي.

ولعل من أهم ما شدّ اهتمام جمهور الأساتذة والطلبة في جلسة الافتتاح، المحاضرة أ.د. بولند أوجار رئيس الهيئة المنظمة للندوة ورئيس قسم العلوم الإسلامية بجامعة ''أسنابورك'' بألمانيا في الافتتاح وأوضح خلالها الأهمية التي تكسبها هذه الندوة، وذكر أن ندوة اليوم تدريس للعلوم الإسلامية في مدارس ألمانيا وفق ما دأبت عليه مدارس ألمانيا في تعليم التلاميذ المسلمين دينهم وترسيخه لديهم، وتخريج الأئمة والخطباء، وعبر عن فرحته العارمة بتخرج طلبة من هذه المدارس، وذكر بأنّ للندوة أثار محمودة على مشاعر وقلوب الأساتذة والشباب وأوليائهم.

أجاب في بداية محاضرته عن سؤال طرحه في المستهل: من هو سعيد النورسي ذلك الأستاذ الذي لقبه علماء هذا العصر بمجدد القرن؟ وما هي الصفات التي جعلت منه مجددا؟ وهل كانت مؤلفاته منتشرة ومستمرة إلى اليوم؟

ولخّص رسائل النور في ثلاث قضايا أساسية وهي: الإيمان والتعليم والأخلاق، وانتهى إلى القول بأنّ إجاباته عن أسئلة العصر الصعبة، كانت أجوبة فعالة وفق منظور عصري، مزجت بين العلوم الإسلامية والعلوم الحديثة، وهي مثّلت هذه المساعي محاولة جادة لبناء فكر إسلامي جديد يعالج أمراض العصر ويجيب عن أسئلته المحيرة.

وعرض أ.د. بولند أوجار، من خلال رسائل النور، الأعداء الثلاثة التي يواجهها العالم الإسلامي وهي الجهل والفقر والاختلاف، كما توقّف المؤلف عند مقترحات العلاج التي لخّصها في: العلم والتعليم والتوحد والوحدة. وأسهب في شرح كيفيتها وفعاليتها إذا استثمرت بإخلاص، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وأشار في كلمته إلى ما تميّز به الأستاذ سعيد النورسي، من نحو عنايته بالحرية وخصوصا الحرية العلمية، لما لها من مساهمة فعّالة في تحرير العلم والتعلم، مستدلا

بقول الأستاذ بديع الزمان: ''أسوأ شيء يمكن أن يخطر على بالي هو قمع العلم والمعرفة''، وقوله المشهور: ''أستطيع أن أعيش بدون خبز، لكنني لا أستطيع أن أعيش من دون حريتي''.

لقد أولى النورسي الحرية عناية كبيرة، ذلك أنّ الحرية شرط أساسي للنمو والتطور والحياة السعيدة، ولهذا صلة وثيقة بالإيمان، فكلما تطور الإيمان قدرت قيمة الحرية وتطورت، وكلما تطورت الحرية ازدهرت باقي الميادين العلمية والسياسية والاجتماعية وغيرها من المجالات، لهذا فهي بمثابة الضوء المعنوي للعالم، ينير العالم بوجودها وتنطفئ منارته بعدمها.

ثم تساءل أ.د. بولند أوجار: هل تستطيع هذه النتائج أن تثبت نفسها، لا سيما في مثل هذه الأوقات وهذه الأماكن؟ ويجيب عن السؤال بقوله: ''إنّ هذه النتائج لا تستطيع اليوم أن تعبر عن نفسها كما ينبغي، لأننا لازلنا في البداية، لكن يمكن أن يحدث ذلك في المستقبل الذي يبشر بألف خير''، وينتقل بنا بعدها إلى سؤال آخر مفاده: ''أين يمكن التعبير عن اتحاد العلم والإيمان في أي مكان آخر خارج جامعة؟'' في البداية سجّل أسفه لعدم إمكان التعبير عن مزج العلوم الدينية بالعلوم الحديثة بكل حرية في غير فضاء الجامعة.

وعدّ الأستاذ الإجابة عن هذه الأسئلة، تكفّل بها المدعوون من العلماء والأساتذة لتقديم عروض حول رجل علم مسلم من خلال فكره المتنور في هذه الندوة الدولية.

ترى ما هي الظروف التي أخرجت سعيد النورسي في مرحلة معينة من التاريخ؟ وما هو السبب في نجاحه الفريد من نوعه؟ وما الذي جعل بديع الزمان يظهر في فترة التغيير والتحول الجذري في العشرينيات والثلاثينيات؟

وبالرغم من الظلم الذي تعرّض، بقي ثابتا على ترك العنف قولا وتصرفا وآثر تبني العمل الإيجابي والابتعاد عن كلّ تصرّف سلبي، فقابل كل ما تعرض له ظلم وسجن ونفي بمسامحة واعتبره رسالة من القدر.

سعيد النورسي شخصية عالمية متمسك بالقيم وفق منهج أهل السنة والجماعة، مرشد ديني يعمل بما يعلم، يؤكد على ضرورة التنمية الاجتماعية، مهتم بالتصوف والعلوم الدينية في توازن، إلا أنّه ركّز على ما يتطلّبه عصره، فبذل الجهد في إنقاذ الإيمان وفق ما ينسجم والعقلية المعاصرة، وظلّ في الوقت نفسه مرتبطا بالحياة

الاجتماعية وعلى اتصال بها وبكل ما له علاقة بالأمور الدنيوية التي لها بُعْدٌ مجتمعي.

وبالرغم من الميئسات كان الأستاذ كارها ورافضا للتشاؤم ونفوره من الكسل، فعرف بحب العمل والعلم والاجتهاد، كما اشتهر بالتمسك بالقدر الإلهي فلا يهاب في الله لومة لائم، قال الأستاذ رحمه الله: ''رأيت رجلا مبتلى باليأس ومريضا بالتشاؤم، قال لي يوما: نقص العلماء نخاف أن ينطفئ ديننا يوما ما'' فقلت له: ''ما دام الكون لا ينطفئ فلن ينطفئ الإيمان والإسلام.''

العالم والمرشد الحقيقي يكون كالغنم ولا يكون كالطير كما قال بديع الزمان: ''فالشاة تعطي لصغارها طعاما مهضوما على صورة حليب مصفى والطير يغذي فراخه بالقيئ''.

وينتهي المحاضر إلى القول بأنّه تعرّف على رسائل النور من خلال بعض أصدقائه، وذلك قبل التعرّف على التعرف على طلبة النور، ثم يردف قائلا: الآن قرأت حوالي سبعين بالمئة منها ولم أجد مما قرأت منها خطأ أو نقصانا أو شيئا ينافي الحقيقة الدينية أو جملة تخالف الكتاب والسنة، كنت أقرأ بنفسية الباحث عن الأخطاء أو النقص لكني لم أجد ذلك في كل صفحاتها رغم قراءتي المتفحصة، وخَلُصَ إلى الاعتراف بأنّه على قناعة بأن سبب عدم عثوري على أي خطإ أو نقصان، يعود بالدرجة الأولى إلى كون رسائل النور مستمدة من حقائق القرآن وتمثّل تفسيرا له.

وقبل أن ينهي كلمته، سجّل احترامه وإعجابه بهذا العالم الجليل، وأعرب في الختام عن احترامه وتقديره الكبيرين لبديع الزمان سعيد النورسي.

ودامت الندوة يومين آخرين تم فيهما قراءة باقي الأساتذة للمداخلات ومناقشة مواضيع متفرقة من فكر بديع الزمان.

وعقد عقب هذه الندوة لقاء عام شمل كل الأساتذة المشاركين في قصر البلدية بدعوة من رئيسها، هذه البلدية التي شهدت عقد صلح بين البروتستنت والكاثوليك إثر الصراعات الدموية التي شهدتها ألمانيا في السنوات الماضية، والتي استمرت لما يقرب ثلاثين سنة. وقد ختم اللقاء بتقديم طالب النور الأخ الكبير محمد فرنجي تذكارا رمزيا لرئيس البلدية.

* * *

إستكتاب لملف العدد الرابع

تسعى المجلة، كما هي عادتها، إلى المساهمة العلمية الرفيعة التي لها مقاصد وظيفية علمية وعملية ظاهرة، ولا شكّ أنّ التربية هي المدخل الرئيس للنجاح والفعالية بالإيمان في شعاب الحياة، من هذا المنطلق، ونظرا لعدم استيفاء ملف العدد السابق حقه من الدراسة و التحليل، رأت المجلة الإبقاء على مجال الكتابة في التربية مفتوحا، لهذا ننتظر من الباحثين الراغبين في النشر في مجلتنا الكتابة في موضوع: ''التربية في رسائل النور'' وفق المقاييس العلمية المعهودة في الدراسات الأكاديمية، وتفتح الباب واسعا للكتابة في الشأن التربوي بصفة عامة، وفق ما ينسجم مع خط المجلة، واختصاصاتها، وبناء عليه ترحّب المجلة بالدراسات الجادة في الموضوع المشار إليه، وتيسيرا منها لبعث الفعالية والجدية، ننهي إلى علم الأساتذة أنّ العدد القادم موعده بداية النصف الثاني من الموسوم الحالي (٢٠١١)، وعليه نضع بين يدي الباحثين الملاحظات الآتية:

١- الإلتزام بموضوع العدد، وطبيعة المجلة، لهذا نرجو عدم الإحراج بإرسال مادة بحثية لا صلة لها بما أشرنا إليه.

٢- ترسل البحوث قبل ٢٠١١/٠٥/١٥.

* * *

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضائين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الاشتراك السنوي (عددان)

الاشتراك في تركيا: .....٢٠ ليرة تركية

الاشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: .....١٥ دولار أمريكي

الاشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: .....٣٠ دولار أمريكي

العنوان للاشتراك

عبد الكريم بابيارا kerimbaybara@gmail.com
شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع جعفر الصادق - الحي السابع
مدينة نصر- القاهرة - جمهورية مصر العربية
تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk.
No: 6, VEFA 34134 Fatih
ISTANBUL - TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla. com
www. nurmajalla. com

Contents

Editorial

- Prof. Dr. Amar Djidel: “introduction to the 3 nd” issue 3

Miscellaneous Studies

- Abu’l-Hasan ‘Ali al-Hasani al-Nadwi: “Nursi and His Mission” 7
- Prof. Dr. Ahmed Davutoğlu: “Bediuzzaman and the Politics of the Twentieth Century Islamic World”..... 15
- Sena Hasan Hedle: “Methods of Pedagogy in Islamic Legislation” 49

Dossier

- Prof. Dr. Farid al-Ansari: “Bediuzzaman Said Nursi’s Views on the Qur’an as a Source of Education” 79
- Prof. Dr. Muhsin ‘Abd al-Hamid: “Nursi’s Approach to Education”..... 105
- Khalid Mahjub: “Educational Dimensions of Nursi’s Teaching”..... 115
- Prof. Dr. Jamal al-Din ‘Abd al-‘Aziz Sharif: “Nursi’s Views on Self-Abnegation and Renouncing Egotism”..... 129
- Dr. Hasan Izral: “Bediuzzaman Said Nursi and His Project for Educational Reform”..... 153

Interviews, Publications and Conferences

- An Interview with Said Nursi’s student, Mehmed Fırıncı 167
- New Publications 181
- Conferences and Study Circles 184
- Request for comments on our fourth Dossier..... 191
- Information about publication of articles or papers in the Journal..... 192